الخليل

عليه السلام

رحلة في المكان

سياحة في الزمان

إعداد

محمود القليني

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دار الجديد للنشر والتوزيع

913.5

ا. م

محمود . القليني ،

الخليل عليه السلام / محمود القليني.- ط1.- دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دار الجديد للنشر والتوزيع .

280 ص ؛ 17.5 × 24.5سم .

تدمك : 6- 617- 308 - 977 - 978

1. العراق القديم – موصف ورحلات. 2.السومريون.

أ -العنوان

رقم الإيداع : 25824 .

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز

E-mail: elelm_aleman2016@hotmail.com & elelm_aleman@yahoo.com

الناشر : دار الجديد للنشر والتوزيع

تجزءة عزوز عبد الله رقم 71 زرالدة الجزائر

E-mail: dar_eldjadid@hotmail.com

2018

الفهرس

قائمة المحتويات

المقدمة

أن يشهد بعض الناس لإنسان بالصلاح والتقوى ، فهذا - في حد ذاته- شيء محمود ، وأن يجتمع كل الناس على الشهادة لإنسان بالصلاح والتقوى فهذا يدعو إلى الإعجاب والتعجب في نفس الوقت ، وأن يشهد الله عز وجل لإنسان بما شهد له ، ليس هذا فحسب ، بل ويتخذه خليلا ، الله عز وجل في عظمته وجلاله وكبريائه يتخذ مخلوقا من مخلوقاته خليلا له ! هذا يجعلنا نقف مشدوهين مبهورين لنسأل أنفسنا :ما الصفات وما السمات وما الخلال التي تجمعت وجمعها هذا الإنسان ليظفر ويفوز وينال ويصل إلى تلك المكانة؟لا أنه لم يصل إلى نقطة محددة أو حد معين ، وإنما تجاوز كل النقاط وتعدى كل الحدود .

فهولم يحقق الكمال البشري وكفي .

ولم يؤد دور النبي وكفى .

ولم ينهض بمهمة الرسول وكفي .

ولم يجسد أبوة النبوة وكفى .

وإنما تفوق وبز كل هؤلاء ، ومضى مصعدا لا يوقفه ولا يعرقله شيء ، ولم يهدئ من غلواء رقيه ودوام استمرار سموه قناعةٌ بما وصل إليه ، أو رضا عما حققه ، أو سعادة بما أنجزه ،يدفعه إلى ذلك معين لا ينضب من القوة ، وتيار لا يتوقف من الحماس ،وبحر لا ينفد من النشاط والحيوية ، وكأنه يجري في مضمار وبيده قصبة السبق ، يحمل على عاتقه طموحات وأمال الجنس البشري في الاقتراب من أنوار الخالق الأحد ، نعم ، هذا ما دفع إبراهيم - ؛- أن يحقق ما حققه ، كان مدفوعا بأشواق كل أفراد الجنس البشري ، جسد إبراهيم - ؛- وتجسدت فيه كل تلك الطموحات والأشواق لكل البشر في كل زمان وفي كل مكان .

نخطئ إذا نظرنا إلى إبراهيم أنه فرد حقق إنجازا ما .

ونخطئ إذا نظرنا إلى إنجاز إبراهيم أنه إنجاز فرد ، فهو لم يكن فردا وإنما كان أمة تجمعت فيها كل معاني وصفات الخير والبر، وإنجازه لم يكن إنجازا تم في زمان ومكان ، وإنما إنجاز وعمل ومشروع تجاوز وتعدى كل الأزمنة والأمكنة ، ليظل كشعاع الشمس لا يغيب إشراقه ونوره عن هذا الكون ، وقبس من روح هذا الوجود الحي ،إن كل خطوة خطتها البشرية وتخطوها نحو الهدى والرشاد لإبراهيم - ؛- فضل عميم،

ودين عظيم له في عنق البشرية ؛ لأنه هو الذي نهج سبلا وطرقا إلى الخالق الأعظم ، وما يقدر للبشرية أن تسير فيها وتصل إلى ما تصل إليه لولا إبراهيم .

من بين ملايين الملايين في العالم اختارت العناية الإلهية إبراهيم ليكون إمام البشرية ، ويؤمها وتأتم به .

ما الذي توافر في هذا الفرد من صفات وخلال ليكون موضع الاختيار؟

ما الذي ميز هذا الإنسان دونا عن غيره ليكونه ؟

لا يكون هذا إلا لأن إبراهيم جمع البشرية كلها في شخصه ، فكان البشرية وتجمعت البشرية كلها فكانت إبراهيم .

أو أن البشرية وإبراهيم في مكان ما وفي زمان ما وفي موقف ما ولغرض ما أصبحا شيئا واحدا وليس بالغريب أن تتجمع صفات الجنس البشري كله في فرد ، ولا هو بالعجيب أن يجسد فرد واحد منها كل صفاتها،

كما هو الحال مع آدم - ؛- فالبشرية كلها تتفرق فيها صفات آدم، وآدم مجمع لكل ما تتصف به البشرية ، والفرق بين آدم وإبراهيم - عليهما السلام - أن آدم هو أبو البشر خِلقيا وإبراهيم هو أبو البشر خُلقيا ، فقد ظلت البشرية جسدا بلا روح ، وكيانا بلا ضمير ،

ووجودا بلا هدف ، تتخبط في ظلمات الجهل ، وتنحدر في مهاوي الفساد والضلال ، فجاء إبراهيم ، فأصبحت البشرية تأتلق روحانيا ، واستنار كيانها بأنوار الضمير ، لوجود هدف وغاية ، وأزال عن عقلها ظلام الجهل ، وأنقذها من السقوط في وهاد الفساد والضلال .لم يكتف إبراهيم بذلك ، بل أراد أن يهب النبوة البشر ،أن يكون كل فرد نبيا في ذاته ؛ لأن النبوة تجسيد وتحقيق لغاية الكمال البشري، ولأن ذلك مستحيل أن يكون البشر كلهم أنبياء ، فقد أراد ألا تنقطع حلقات سلسلة الأنبياء وأن تظل متصلة ومتواصلة وملازمة للبشرية ، لأنها هي - النبوة - العاصم لها من كل شر ، والنجاة لها من كل ضلال .

وشاء الله – عز وجل – أن يجيب رغبة إبراهيم ، وكانت النبوة هي الباب الذي فتح للبشر للاتصال أومعرفة ملكوت الله ، ومن أكبر وأجل منن الله على الإنسان أن فتح له سبيلا إلى ذاته العليا ، وإمعانا في تكريم وتشريف الله للإنسان ، أن قصر هذا السبيل على الإنسان ، وجعل في جبلة هذا المخلوق ما يهفو وينجذب إليه ويتجه إليه ، لم يشأ الله أن يتركه نهبا للوساوس ،يتخبط في ظلام الجهل ، وعتمة الطبع الطيني الذي خلق منه ، لقد ارتفع به طبقات وارتقى به درجات ، حين أودع في خلقته هذا النزوع نحو النور والخير والعدل والجمال ، هذا النزوع هوما جعله خلقا سويا ، يسير على قدمين ، رافعا وجهه نحو السماء مستشرفا صدى لما يمور في صدره ، أو ما يأتنس به لإرضاء هذا الشوق والنزوع والحنين إلى مصدر النور والخير والجمال ، لم يكن تشريف وتكريم الله للإنسان ، إلا لأنه أزال تلك الحجب من على قلبه والأغشية من على بصره ليتسنى له إدراك أن هناك وراء ما تبصره عيناه وتدركه حواسه ، هناك شيء آخر ، وراء العالم وما يموج به ، والمكان وما يشتمل عليه والزمان وما يحتويه ، خلف كل هذا المصدر والمنبع ، الخالق العظيم ، الواحد الأحد .

ولكن رغم هذا النزوع الخِلقي والخُلقي نحو الخالق ، لم يكن ليتسنى للإنسان أن يتلمس بحواسه أو يصل إلى تخيل أو تصور حقيقي لفكرة الألوهية ، ليس لقصور أو عجز لتلك الحواس ،ولكن لأن مفهوم الذات الإلهية أعلى وأرقى وأسمى وفوق كل تخيل وتصور إنساني ، وهذا هو قدر الإنسان ، أنه مندفع ونزاع لا إراديا نحو خالقه ، وأن فكره ووجدانه معلق – دائما – به ، ومع ذلك فان هذا الاندفاع والنزوع والتعلق لا يصل به إلى شيء ، أو على الأقل لا يصل به إلى درجة القناعة الفكرية والراحة العقلية والاستقرار الوجداني ، شأن طريقته وأسلوبه مع كل ما يحيط به في الوجود، فإن كل شيء حوله استطاع أن يعقلنه ، وما لم يستطع أن يعقلنه ، حاول أن يخضعه لتخيله وتصوره بطريقة ترضيه وتريحه ، ولكن هذا الأسلوب وتلك الطريقة لم يصلحا ولم ينفعا مع فكرة الألوهية ، فبعد محاولات مضنية من جانبه استغرقت أحقاب طويلة من تاريخه وصل واكتشف أن كل أفكاره وتصوراته وتخيلاته عن الإله فاسدة وباطلة ، فما وصل إليه هو إله بشري التصور إنساني التخيل ، إله يتناسب مع قدراته العقلية وإمكاناته الوجدانية ، وطاقاته الروحية ، وكل هؤلاء قاصرون وعاجزون عن إدراك أو الوصول إلى الفكرة الحقيقة والصادقة للإله ،

فالفكرة الحقيقية والصادقة عن الإله ، لابد أن تكون بعيده وخاليه ومنزهة عن كل ما هو إنساني ، فكل ما يدركه الإنساني بجميع حواسه لا يمت للذات الخالقة بأي صلة ، لأن كل ما تدركه الحواس ، هو بالقطع محدود ومتناهي وزماني ، ووصلت الإنسانية إلى حقيقة هامة ، جعلتها تنتظر – إزاء قصورها وعجزها ومحدودية حواسها – أن يعلن الخالق عن نفسه ، أن يعرف المخلوقات ذاته المقدسة ، ولكن كيف ذلك ، وهناك العجز والقصور والمحدودية لدى المخلوق ؟

إذن الأمر في حاجة إلى إستثناء،في حاجة إلى بشريٍ ولكنه يتجاوز كل حدود وقصور وعجز ووسع وطاقة البشر، في حاجة إلى بشري ولكنه يرتفع ويرتقي ويسمو فوق هموم البشر الزمنية ، متطلعا ومستشرفا عالم البقاء والخلود ،لو لم يكن الخلود متحققا ، والعالم الآخر مؤكدا ، والثواب والعقاب واقعا ، وأن وراء أو في نهاية هذا الوجود وجود آخر لاخترعت وأوجدت البشرية كل هذه ، لأن حياتها لا تصح ووجودها لا يستقيم وأمرها لا يدوم ولا يستمر إلا بوجود هذا المسلمات والبديهيات في عقل ووجدان البشرية ، ويجيء النبي ليلفت الأنظار وينبه الأذهان ويدلل ويبرهن على هذا ، ولأن الجبلة البشرية بها بعض العتامة وتغشى بصرها الكثير من الظلمة وتأخذها الأوهام والأضاليل والأهواء

وتذهب بها في كل سبيل ، وكل هذا يصرفها عن حقيقة أمرها وجوهر وجودها ، فإن الأمر في حاجة إلى تحذير وتبشير، في حاجة إلى وعد ووعيد ، في حاجة إلى كشف تلك العتامة ،وإزالة هذه الظلمة ، والتخلص من الأوهام والأضاليل ، ولا يقدر على فعل كل هذا سوى النبي .

والله -عز وجل -يخلق الشيء في صورته التامة الكاملة بداية ، ثم يتفرع عن هذا الشيء فروع كثيرة ، فيها من سمات وصفات الأصل الكثير ،فكل ما هو موجود في الأصل متفرق ومنتشر ومبثوث في الفروع ، وكل ما هو موجود في الفروع رافده ومانحة الأصل ، كالشجرة المباركة ، وإبراهيم كالشجرة المباركة ، التي تفرع وخرج منها جميع الأنبياء .

وهذا الكتاب لا أدري إن كان محاولة لرسم أو الإمساك ببعض خطوط وملامح وسمات شخصية إبراهيم .

أو هو رحلة في المكان ، وأي مكان بالتحديد ؟

فقد مر إبراهيم -؛- على معظم بلدان العالم ، وطاب تراب تلك البلدان بمروره عليه .

أو هو رحلة في الزمان ، وأي زمان بالتعيين ؟

فكل الأزمنة قد حلت فيها رائحته الطيبة الذكية المقدسة ، أو كل الأزمنة تنافست فيما بينها لتقتبس وتستبقي شيئا من هذا العبق العتيق .

أو هو رحلة في عقل البشرية التي وقفت مشدوهة ومبهورة أمام مواقف وأفعال هذا النبي الجليل ؟

أو هو سياحة في ضمير ووجدان الإنسانية التي التي أثرت واغتنت وعمرت بما رفدها الخليل وأمدها وألهمها من معاني الخير والإحسان .

قد يكون الكتاب واحدا من كل أولئك ، وقد يكون كل أولئك مجتمعين .

والذي أنا على يقين منه أن دافع هذا الكتاب مثل الدافع الذي دفعني أن أكتب عن موسى وعيسى ومحمد – علي نبينا وعليهم أفضل السلام – وكنت لا أظن أنه سيأتي اليوم الذي أكتب عنه خوفا وتهيبا وقلة جهد وضيق طاقة.

وكنت لا أظن أنه سيأتي اليوم الذي انتهي منه انشغالا وحيرة وتشتتا .

ولكن عظمة الشخصية وجلال السيرة ونبل المقصد وشرف الوسيلة ، كل أولئك يأخذون بيدك ويدفعونك في طريقك ويهونون عليك كل مشقة ، ويذللون عليك كل صعب ، ويزيلون من أمامك كل عقبة .

وليست كل مشقة بالتي تجعل صاحبها ينكص على عقبيهولا يكمل مابدأه.

وليس كل صعب بالذي يستفرغ جهد صاحبه ويبقى بعده بلا جُهد أو جَهد.

وليست كل عقبة بالتي تحجزوتمنع صاحبها عن الوصول إلى هدفه وغايته .

فأول عظة وعبرة نخرج بها من خلال سيرة الأنبياء والرسل هو صلابة التحدي وقوة التصميم وصدق الإرادة ومطاردة أشباح اليأس وتبديد خيالات الإحباط ونزع جذور الحزن والأسى والحسرة .

نعم ، فهو درس جليل تتعلمه البشرية من معلمي الإنسانية الإجلاء وأبيهم نبوة إبراهيم- ؛- أن الوجود ما هو إلا أنواع من الإبتلاءات ، وأن كل ابتلاء يستدعى أقصى ما لدى الإنسان من طاقة ووسع وقدرة ، ويستفرغ غاية ما لدى الإنسان من تماسك وصمود وصبر، وكان إبراهيم أشد أنبياء الله ورسله إبتلاء ،ولم يذكر القرآن أن الله - عز وجل - قد ابتلى أحدا من أنبيائه سوى إبراهيم – عليه السلام.

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُالبقرة: ١٢٤

وقد حار المفسرون في تفسير مادة الإبتلاء ، وفي أي شيء ابتلى الله - عز وجل – وأظن أن جهدهم في هذا لم يكن له مبرر ، فيكفي أن نعرف أن إبراهيم هو المبتلَى ، وأن الله هو المبتلِي ، وماعلينا بعد ذلك أن نعرف في أي شيء كان موضوع الإبتلاء ، فالله - عزوجل – لا يبتلي من عباده إلا ما يستحق هذا الإبتلاء ، الإبتلاء في حد ذاته شهادة وتقدير من الله لهذا العبد ، وهذا هو الفرق بين الإبتلاء الذي يقوم به البشر والإبتلاء من الله ، أن القصد من الأول هو معرفة الصادق من الزائف ، معرفة ما يستحق التقدير ممن لا يستحق التقدير ، وله نتيجة إما ...أو ...والقصد من الثاني هونوع من التقدير الإلهي وليس له إلا نتيجة واحدة هو مزيد من التكريم تصعيد نحو الإرتقاء والسمو والعلو. فقد كان إبراهيم قبل الإبتلاء إماما في حد ذاته ، بصفاته وخلاله وأفعاله وتصرفاته ومواقفه ، وبعد الابتلاء ، أذن الله أن يكون إماما للناس ، للبشرية كلها إلى أن تقوم الساعة .

سلاما على إبراهيم في العالمين .

توطئة

إذا أردت أن تكتب عن شخصية ما ، فتستطيع منذ البداية أن تحدد الخطوط العامة التي ستلتزم بها ،وربما يكون لديك تصور لما سوف تخطه بيمينك ، إلا أن الأمر يختلف اختلافا كبيرا وأنت تكتب عن شخصية من شخصيات الأنبياء ، فأنت حينما تهم بالكتابة دافعك إلى ذلك أمور كثيرة ، وأغراض متعددة وأهمها معرفتك بالشخصية التي ستكتب عنها ، وإلا ما الذي دفعك للكتابة عن شخص لا تعرف عنه شيئا ؟!

وحينما تبدأ بالكتابة تكتشف أنك لا تعرف عن شخصية النبي أي شيء ، أوبالأحرى لا تعرف شيئا يستحق أن تكتب عنه ، حقيقة نحن لا نعرف عن الأنبياء شيئا سوى النذر اليسير ، نحن بعيدون كل البعد عن شخصياتهم ، نكتفي ونقنع بموقف هنا ، بحديث هناك ، بمرحلة أو مرحلتين من مراحل حياته ، نجتزئ أونختزل علاقاته ، أما أن يكون لدينا معرفة شاملة صادقة أصيلة عن شخصيته ، فأظن أننا مقصرون في هذا،والمعرفة بتلك المواصفات ليست قاصرة بما تستمده من مصادر المعرفة فقط ،

بل القصور أنك ما أخذته من مصادر المعرفة لم تعرضه على عقلك ولم تعرضه على قلبك ، ولم تعش وتتعايش معه ، تقترب منه القرب الحميم ، ولم تستحضر شخصية النبي وتحدثه وتناقشه وتحاوره ،وتمضي معه ما شاء الله لك أن تمضي من وقت قد يطول وقد يقصر ، فليس الأمر بيدك ، أنت مساق في هذا الأمر ، لا تدري متى ستشرع في الكتابة ولا متى ستنتهي ، ولاماذا ستكتب.

وأظن أن البشرية لن تتوقف عن الكتابة عن هؤلاء ؛ لأن الكتابة عنهم إعلاء وتأصيل وترسيخ لقيم الخير ومبادئ العدل ، ودائما البشرية في حاجة ماسة ليس لإعلاء تلك القيم وإنما التمسك بها وتجسيدها أفعالا وتصرفات ومواقف، كفعل الأنبياء، فهم تجسيد حي للقيم والمبادئ، ولم ينجح أحد كما نجح الأنبياء في أن يعبروا الهوة الفاصلة بين المثال والواقعي ، وبين الحلم والحقيقة . واليوم البشرية في حاجة إلى هذا ، فما أبعد البون بين الأمرين، فكل مشكلات وأزمات ومآسي البشرية تكمن هنا ، في تلك الهوة التي تتسع وتزداد اتساعا مع مر الأيام والسنين .

وإبراهيم – ؛– لم ينل ما يستحقه من اهتمام ، لأن دوره ومهمته تأسيسية وقاعدية ، ودائما الأسس والقواعد تكون تحت الأرض لا تدركها الأعين ولا تتنبه إليها العقول ، وإن كان كل ما فوق الأرض وكل ما تبصره الأعين وتعيه العقول يعتمد على تلك الأسس وتلك القواعد ، وكان- ؛- جل اهتمامه منصبا على إعداد وتكوين ذرية من الأنبياء والرسل ، والذين بدورهم سيتولون هداية وإرشاد البشرية إلى سواء السبيل، فقد كان يدرك إدراكا واعيا أن مهمة هداية البشرية في حاجة إلى أكثر من نبي، ولن ينهض بها نبي أو اثنان ، فهذا نوع من الرؤية القاصرة، والنظرة السطحية والإدراك المحدود لإحتياجات وحاجات البشرية.أعظم جانب من جوانب شخصية الخليل – وكل جوانب شخصيته تعددت وتجاوزت حدود العظمة – أن نظرته ورؤيته وفكره مندفع إلى الأمام إلى المستقبل ، مستقبل البشرية العقائدي، وتأبى عظمته إلا أن يحمل ذريته – كما حملها وتحملها –مهمة هداية وإرشاد البشرية إلى خالقها الواحد الأحد ، وكان ختام تلك الذرية الصالحة المباركة هو محمد ص ، فهو دعوة إبراهيم ؛ .

الفصل الأول

" أور"... الموطن الأول

يكاد يكون هناك إجماع على أن مدينة " أور " هي موطن إبراهيم ؛ فكل الدراسات والأبحاث تؤكد بل تكاد تجزم على هذا الأمر ، وهي مدينة عريقة تقع في الطرف الجنوبي الغربي من شاطي نهر الفرات " ، "وإذا بحثنا عن مدينة باسم (أور ur) في الخريطة التاريخية للمنطقة ، وتنسب في ذات الوقت إلى دولة الكلدانيين سنجدها على الشاطئ الغربي لنهر الفرات في أقصى جنوب الوادي الخصيب ، و تخصيص (أور) بأنها (أور الكلدانيين)لا يعني -للعارف بالتاريخ- أنها وجدت فقط في عصر الدولة الكلدانية التي قامت ما بين عامي 625و 538 قبل الميلاد ، فهي مدينة عريقة عراقة العراق وتعد من أشهر حواضر هذا الأقليم الحضاري الكبير ،بينما الكلدانيون لا يحسبون إلا على الهامش الأخير لهذه الحضارة الكبرى فهم أصحاب دولة بابل الحديثة التي سبقتها دول كبرى وعظمى بدأت منذ منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد على يد السومريين ، وكانت (أور) أنذاك دولة مدينة مستقلة ذات شأن ومكانة ، وظلت (أور) على مكانتها مع الدول التي تتابعت في المنطقة بعد السومريين ،

وظلت مدينة إدارية ودينية رفيعة الشأن إبان حكم الأكاديين وإبان العصر السوري الثاني وإبان حكم دولة بابل الأولى وظلت صامدة أيام الاحتلال الجوتي والكاسي واستمرت على ازدهارها حتى قيام الدول الكلدانية آخر ممالك العراق المستقل في ذاك الزمان ، فعاشت (أور) كمدينة كبرى ، ذات دور فاعل ،ما يزيد على ثلاثة آلاف عام متتالية دون انحسار تام أو انكسار حاد يذهب بها في طوايا القرى والقرون الخوالي "1

وزادت تلك الدراسات دقة وتحديدا بأن عينت الزمن الذي خرج فيه إبراهيممن تلك المدينة مرتحلا ومطوفا في أماكن مختلفة من العالم "ومن ثم أعلن الأستاذ (دي فو de- vaux) أن إبراهيم قد هاجر من (أور) ما بين عامي 1900- 1850 ق . م) مؤسسا إعلانه على زعم أن سبب الهجرة هوالنزاع الذي قام في جنوبي الرافدين حينذاك بين دولتي (إيسن) (لارسا) مما أدى إلى هجرات متتابعة من المنطقة هربا من أوار الحرب "2

1إبراهيم النبي ذلك التاريخ المجهول – محمود سيد القمني – (26- 27)
2المصدر السابق (30)

واستندت تلك الدراسات إلى دليل نقلي وهو ما جاء ذكره عن إبراهيم في التوراة حينما اصطحب ابن أخيه أو ابن عمه (لوط) وبعض أهله مرتحلا عن مدينته "إن هؤلاء المرتحلين ، قد خرجوا من مكان اسمته التوراة (أور الكلدانيين) دون ان توضح سببا عقديا ، أو حتى خلافا فقهيا أو سياسيا لخروجهم من هذا المكان العريق ، فقط تذكر التوراة أن هدف المرتحلين كان أرض كنعان - المفترض أنها فلسطين الحالية - والتي تواتر وصفها في التوراة بأنها (أرض اللبن والعسل) مما يشير إلى أن هدف الرحلة كان الوصول إلى أرض أكثر خيرا وفيئا "1

فرواية التوراة لا تذكر أي سبب يدفع إبراهيم لترك "أور" فلا يوجد عامل طرد ، وإنما جاذبية المكان المرتحل إليه هو ما دفعهم أو جذبهم إليه .

1المصدر السابق (18)

وقد اهتم الباحثون والدارسون لجمع الدلائل والشواهد التي تثبت وجود تلك المدينة ، لأنه ثارت شكوك - في بداية الأمر-ليس في وجود المدينة ، بل في شخصية إبراهيم نفسه ، " فإنه لم يعثر حتى الآن على أي دليل أثاري ، سواء كان كتابة أو نقشا ، أو حتى نقش يقبل التفسير ، أو في نصوص تقبل - حتى - التأويل يمكن أن يشير إلى النبي وقصته سواء في آثار وادي النيل أو آثار وادي الرافدين على كثرة ما اكتشف فيهما من تفاصيل ووثائق "1

ولكن ليس معنى أنك لم تعثر على دليل يثبت أمرا ما ، أن هذا الأمر لا وجود له أو يخول لك عدم وجود الأدلة- المادية - صلاحية الشك ، فالقاعدة هي الوجود ، وأنت في حاجة إلى أدلة نفي ، وليس في حاجة إلى أدلة تثبت الوجود ، لأن الوجود متضمن الدليل ، فنحن نقول أن في زمن ما وفي مكان ما وجد إبراهيم - ؛-هنا أنت لا تطالبني بأدلة تثبت هذا الأمر ، ولكن إن شئت أنت أن تأتي بأدلة تنفي هذاالأمر ، وأنت لا تملك يقين النفي ، بينما أنا أملك يقين الإثبات ، حتى وإن فرضنا أن تنفي فلا يمكن أن تنفي نفيا قاطعا غاية ما هناك ستحيل الأمر إلى أساطير أو أحاديث خرافة ، حتى الأساطير وأحاديث الخرافة دليل إثبات وليس دليل نفي ،

1المصدر السابق – (16)

فلابدأن تعتمد الخرافة على نواة وكذلك الأساطير على شيء من الحقيقة ، ولتكن الحقيقة في العقول والضمائر ، وأظن أن الحقيقةتُتلمس – أول ما تتلمس – في العقول والضمائر . وها هي الاكتشافات الآثارية تثبت للمنكرين والمتشككين والماديين وجود تلك المدينة ومدن أخرى ، وأنت إذا أثبت وجود المكان فمن باب أولى تثبت وجود قاطن هذا المكان ، بل أن الأماكن يجري عليها عوامل الزوال والفناء ، ويد الغير لا ينقطع عبثها،ولكن مع ذلك تبقى الآثار دليل ساطع وبرهان قوي " حتى إذا بلغنا عصر الدول ألفينا أنفسنا في ميدان من اليقين لأن الاكتشافات الآثارية أكدت حقيقة الدول الواحدة بعد الأخرى . ذلك أن تنقيبات ((سير تشارلس ليونارد دوولي))في ((أور)) – وهي بلدة الكلدانيين الواردة في التوراة ، ومسقط رأس سيدنا إبراهيم ، أثارت اهتمام العالم ، وأصبحت دولة أور الأولى حقيقة ملموسة ، حيث نمت مدن سومرية نموا استغرق زمنا طويلا ليس في موضع ((أور)) فحسب

بل كذلك في ((كيش))و ((الوركاء)) و ((نفر)) و ((لارسة))و ((أريدوا)) و ((أدما)) و ((تلو))وفي مواضع أخرى وإن معلوماتنا عن مواضع تلك المدن ليست معلومات أسطورية أو خيالية ، بل تستند إلى تنقيبات علمية ، وأصح كل من تلك المواضع معروفا الآن في شيء من التفصيل ، إذ تنسجم الاكتشافات الأثرية مع الأخبار المستقاة من النصوص السومرية أو النصوص المتأخرة عنها "1

وتميزت ((أور)) عن غيرها من المدن ، فهي تفرض سطانها وزعامتها على غيرها من المدن المجاورة ، ليس هذا فحسب بل ، بل إنها ترسل الحملات الحربية شرقا وغربا ، وهذا يدل على مدى غنى ورفاهية وقوة تلك الدولة " وأخيرا نهضت مدينة (أور) مرة أخرى ، وأصبحت لها الزعامة على غيرها" ، " استمر حكم ملوك (سومر وأكد) نحو ثلاثة قرون كان القرن الأول منها عصر رفاهية تحت زعامة مدينة أور ،

1تاريخ العلم – جورج ساتون – (147)

ثم تلاه قرنان مليئان بالتدهور فيما تلا ذلك ، وبالرغم من أن الحفائر لم تكشف عن كثير من المدونات الرسمية في أور ، فإننا نعرف أنها تقدمت في فتوحاتها نحو الشمال على طول نهر دجلة حتى شملت فتوحاتها بلاد(أشور) التي تظهر ابتداء من هذا الوقت في صفحات التاريخ، وأرسلت أور الحملات الحربية شرقا إلى عيلام وغربا على امتداد الفرات فوصلت إلى البلاد التي يقطنها قوم ساميون كانوا قد بدأوا يظهرون أيضا وهم الذين نعرفهم باسم العموريين "1

سهل شنعار وتعانق الحضارات :

إذن نحن مع مدينة تطورت وتقدمت ثم تزعمت وقادت بقية المدن ، وما كان يتوافر لها هذا إن لم يكن هناك عوامل تساعدها أو تمكنها من ذلك وأول هذه العوامل المكان ، وهناك من المدن مايتجسد فيها أو يتجمع بشكل واضح وجلي صور وأشكال التقدم والتطور ، وكل ما حولها من مدن وبلدان يسلمون لها بهذا الدور وهو ما نطلق عليه في العصر الحديث اسم (العاصمة)

1تاريخ الشرق القديم – جيمس هنري برستد- (180)

والكلمة مأخوذة من العصم وهي الحماية والحفظ والصيانة والرعاية إلى جانب الريادة والزعامة ، ففي مدينة (أور) جمعت كل ما في هذا السهل من خصائص حضارية ، وهو سهل - بحق - كان بمثابة حاضنة لكبريات الحضارة التي شهدتها الإنسانية .

" بدأت المدنيات الباكرة على ضفاف الأنهار الكبرى في البلاد الدافئة حيث الأرض قوية عنيفة يغمرها في الغالب طمي النهر ويغطيها بطبقة تكسبها أكبر الخصوبة وتلك الأنهار هي النيل في مصر والدجلة والفرات في العراق والإنداس في الهند "1

وإذا كان نهر واحد من عوامل وأحد أسباب قيام ونشوء حضارة من أعظم الحضارات ، فما بالك بمكان يتوافر فيه نهران ويحصران فيما بينهما أرضا تعد من أخصب وأغنى الأراضي في العالم ، فهو مكان مثالي وممتاز بكل المعايير ، محليا وإقليميا وعالميا ، نطاق من الثراء والغني والرفاهية والتقدم ، وكما أطلق عليه حقا ((الهلال الخصيب)).

1تاريخ العالم الغربي – ل . ج . شيني – (25)

"وفي بلاد ما بين النهرين يوجد الخليج الفارسي في الجهة الجنوبية الشرقية والبحر المتوسط في الغرب ، ومعظم الحوادث التاريخية وقعت في الواديين دجلة والفرات ، وفي السهل الممتد بينهما ، وهو سهل ((شنعار))المذكور مرارا في التوراة ، ومع ذلك فلكي يدرك المرء سياق تلك الحوادث وسيرها ينبغي له أن يأخذ في حسابه الأقليم الجبلي شرقي نهر دجلة والأقليم الممتد على طول ساحل البحر المتوسط الشرقي ، ثم أن البحرين اللذين يطلان على بلاد ما بين النهرين موصولان برقعة من الأرض شبه دائرية سماها المؤرخ ((بريستد))((الهلال الخصيب)) ، وهو اسم يليق بها كل اللياقة ، ويتضح من الخارطة أن هذا ((الهلال))الذي يصل بين البحر المتوسط والخليج الفارسي يواجه بادية الشام ويحيط بها ، وهي بادية يمكن تشبيهها ببحر آخر وإن كان بحرا يابسا ، وذلك لأن الإنسان لا يستوطن الصحراء استيطانا ، بل يخوض ويجوس أرجاءه إلى مختلف الاتجاهات "1

1المصدر السابق – (143)

نستطيع أن نقول إن هذا المكان يمثل بؤرة أو مركز حضاري لا مثيل له في العالم ، وهو نعمة ونقمة في نفس الوقت ، نعمة لمن يعيشون فيه لأنه يوفر لهم كل وجميع أسباب الغنى والرفاهية والعيش الرغد ، ونقمة لأنه مطمع للآخرين ، فلن تترك أنهار العسل واللبن تنساب هكذا لا نقول أن ينالها الآخرون بل يغتصبونها ، فقد تعاور على هذا السهل أصناف من الأمم والشعوب والقبائل ما هو معلوم وما هو مجهول ، الجميع يبغون شيئا واحدا، وهو أن يعبوا من تلك الأنهار ، بأي وسيلة وبأي طريقة " ثم أنه حين تنشأ حضارة جديدة في بيئة جغرافية تشبه في خصائصها بيئة بلاد ما بين النهرين ، ينبغي لنا أن نتوقع صراعا مثلثا بين الحضر المستقرين في الحواضر ، وهم أصل تلك الحضارة ، وبين البدو المتنقلين عبر البادية وفي أطراف الأراضي المزروعة ، وبين أهل الجبال المرنين على حياة أصعب وأقسى من حياة السهل الطامعين أبدا في سهولة العيش ووفرة المتاع عن أهل السهول " 1

1المصدر السابق (146)

وكان – دائما – ينشأ نوعان أو شكلان مختلفان من الحرب ، حرب داخلية بين المدن المتقاربة وهي حرب وتنافس على الزعامة والقيادة ، وحرب خارجية تبغي الاحتلال السيطرة والاغتصاب " ولم يكن القضاء على دويلة " أور" في نهاية القرن الثالث والعشرين ق. م راجعا إلى الحروب التي كانت بينها وبين الدويلات المنافسة لها ، بل كان راجعا أيضا إلى غزو أجنبي رزئت به البلاد من الشرق والغرب في وقت واحد فقد جاء العيلاميون من الشرق واستولوا على المدن السومرية وأسروا آخر ملوك ((أور)) ونهبوا مقابر الملوك السابقين . وجاء من الغرب قوم آخرون من الساميين وهم ((العموريين)) وبدأوا يغزون بلاد ((أكد))وتمكن زعماء العموريين في النهاية من فرض سلطانهم على بعض المدن في الشمال ، وفي منتصف القرن الحادي والعشرين ق. م نصب أحد الزعماء نفسه ملكا على بابل التي لم تكن حتى ذلك الوقت بلدا له أهمية سياسية كبيرة " 1

إلا أن الصراع سواء كان وسيلته القوة أو الحضارة انحصر بين فئتين أو صنفين من البشر يمثلان بدورهما طابعين من الحضارة : السامية والهند إيرانية .

1المصدر السابق (186)

" وراء بحر قزوين توجد منطقة تجري مجموعة من السلاسل الجبلية ينساب منها نهرا الدجلة والفرات هابطين سهول العراق إلى الخليج الفارسي ، وهذا الصقع الذي يضم الجبال الخضراء وأهداب الصحاري والسهل الباسم كان مسرحا لامتزاج وتطاحن هاتين المجموعتين من الشعوب وهما السامية والهندية الإيرانية . لقد كانت تعمر بالمدائن والناس والمعابد والتجار والصناع والكهنة وبجماهير من الفلاحين الكادحين والرعاة وبالغزاة وجحافلهم الزاحفة وبالمحاصرات الحربية وجلبتها وبحشود من الأسرى والعبيد وكان ذلك منذ نيف وألفين من السنين " [1]

خزان بشري :

ونستطيع أن نقول أن هذا المكان أو السهل كان بمثابة خزان بشري يجمع فيما بينه أصناف مختلفة من الثقافات والأفكار والعقائد والديانات والحضارات، ولكن مع ذلك لم يكن بينهم خلاف أو تدابر ، لأنك إذا رجعت إلى الوراء أو تغلغلت إلى العمق ونفذت إلى الجذر ستجد كل هؤلاء يجمعهم نسيج واحد فهم قد خرجوا أو صدروا من أو عن بوتقة واحدة .

1 تاريخ العالم الغربي – ل . .ج . شيني (34)

" ولكن في وسعنا أن نقتفي أسلاف الشعوب والقبائل مصعدين إلى العصور الموغلة في القدم ثم نحاول أن نردهم إلى مكان يبدأون منه ، ومن هذه الاماكن : الجزيرة العربية فمنها جاءت الشعوب ((الكثيرة)) كالبابليين واليهود والأموريين والفنيقيين والإراميين – الذين كانوا يتكلمون لغة سامية الطراز .وهؤلاء لم يفدوا دفعة واحدة بل على دفعات تفصل بينها فترات طويلة من الزمان ، ويبدوا كأن قبائل البوادي وأشباه البوادي تتكاثر حتى تضيق بهم الأرض ويقصر عن كفايتهم الطعام ، فإذا برز من بينهم زعيم شديد المراس أغاروا على أرض جيرانهم " 1

إذن هي مسميات متعددة ومختلفة والمسمى واحد ، أو هي أقنعة كثيرة والأصل واحد ، لذلك نجد المد الحضاري ممتد ومستمر لم يتوقف ، أو قل هي سلسلة واحدة تختلف حلقاتها ولكن كل حلقة ترتبط بما قبلها وبما يليها ، نهر واحد للحضارة الإنسانية يرفد أكثر من رافد ، وتتجمع الروافد كلها على اختلاف مسمياتها وأشكالها وأحجامها ومدى تتدفق مياهها ومدى ضحالتها أو عمقها ، ولكنها كلها تصب في نهر واحد ، ويصبغها النهر الواحد بصبغته الرئيسة ،

1المصدر السابق (32)

أو أن الأنهار كلها تكتسب المزاج العام من الملامح المشتركة أو المتجانسة فيما بينها .
ولم يقتصر هذا الأمر على الحضارة التي نشأت ما بين الرافدين ، بل شمل الحضارتين المصرية والعراقية ، فهناك تأثير وتأثر بينهما "على أنه من المعروف أن الحضارة السومرية الأصلية تأثرت في كثير من النواحي بحضارة الغزاة من البابليين ثم الآشوريين ، ولم يقتصر الأمر على ذلك فحسب . بل امتد التأثير المصري إلى بلاد ما بين النهرين عن طريق الجانب الغربي من الهلال الخصيب ، خلال الألف الثاني قبل الميلاد إن لم يكن قبل ذلك ،واشتد هذا الغور الحضاري بوجه خاص أثناء العهد الذي سيطرت فيه مصر على الشرق الأدنى (من القرن السادس إلى القرن الثاني عشر ق.م) " 1

1تاريخ العلم – جورج سارتون (149)

وتارة أخرى تسيطر حضارة ما بين الرافدين على حضارة وادي النيل حينما تصل تلك إلى درجة كبيرة من الضعف ، وتصعد الأخرى إلى قمة القوة " ولما قامت دولة الآشوريين في القرن التاسع قبل الميلاد وأخذت تزحف غربا من بلاد ما بين النهرين نحو سواحل البحر المتوسط أخذت دول فينقيا تضعف تدريجيا فسقطت سوريا وفلسطين ومصر تحت حكم أشور"[1]فالموقعان أو المركزان - مصر والعراق -

بمثابة قطبان يقع العالم بينهما ، وكل منهما - مجتهدة - تحاول أن تجذب العالم نحوها او تفرض سيطرتها وهيمنتها عليه ، مصر - في عصور قوتها - تتجه نحو الشرق إلى أقصى ما تمكنها قوتها وإمكانياتها ، والعراق تتجه إلى الشمال ثم إلى الغرب ووسيلة كل منهما المعاملات التجارية او الحملات العسكرية "

1تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية – محمد رفعت – (21)

واتصل ملوك بلاد ما بين النهرين عن طريق المعاملات والحروب الكثيرة بجيرانهم الشماليين الغربيين الساكنين في الأقاليم الجبلية في الأناضول وأرمينية ، كالحوريين الذين جاءوا من الغرب من ناحية بحيرة وان ، ثم صاروا دولة واحدة مع الحيثيين تحت ملوك بلاد ((ميتاني))،

ذلك أن أولئك الحوريين غزوا أقاليم الحيثيين حتى استولواعلى عاصمتهم في موضع ((بوغاز كوى الحالية))(90ميلا شرق أنقرة) ، ثم اتجهوا جنوبا في محاذاة الساحل السوري وتوغلوا في أرض ((أدوم))جنوب البحر الميت ويوجد من أثار محلاتهم ما كشف عنه البحث ((عند رأس الشمراء)) وأورشليم وما يليه جنوبا . ومن المحتمل أنهم اتصلوا بالهكسوس الغامضين الذين غزوا مصر في المدة الواقعة بين 1788و1580 ق.م أما ملوك بلاد ((ميتاني))فيرجعون إلى أصول هندية إيرانية وكانوا يقسمون بالإله ((اندرا))و((مثرا))وبآلهة أخرى مماثلة ،وأما الحيثيون فكانت لهم بعض القرابة بالأقوام الهندية الإيرانية على قدر ما نستطيع أن نحكم من لغتهم ، أما أهم ما جاء به الحوريون فهو العربات الحربية التي تجرها الخيل ، ومن المحتمل أن أصلها من الهند "1

1إبراهيم أبو الأنبياء – عباس محمود العقاد – (150)

وإن كان قولنا بأنهما قطبان فيه مجاوزة للحقيقة ، ومجانبة للواقع فقد كان بينهما ملامح تلاق وصفات تقارب وسمات تناغم ، أكثر مما كان بينهما من اختلاف وتباعد وتنافر فما ترسله كلا الحضارتين من تأثير وإشاعات حضارة كان يستقبل بنوع من الحفاوة والتسامح على مدى قرون من الزمان" فإن تجارة بلاد الرافدين كانت تتلاقى وتتداخل مع تجارة مصر في بلاد شرقي البحر الأبيض المتوسط ، ومن المحتمل جد أنها كانت تصل إلى مصر نفسها، ولا شك أنه كانت هناك صلة بين مصر وبلاد الرافدين ، لأن كلا من الحضارتين كانت تخرج أشياء مصنوعة متماثلة الطراز وذات أشكال خاصة، مثل دبوس القتال الذي على شكل الكمثرى ، والأختام الأسطوانية واستعمال حيوانات مرتبة في أشكال خاصة في الفن الزخرفي في كل من الحضارتين"[1]

1تاريخ الشرق القديم – جيمس هنري برستد – (160)

ولم يقتصر الأمر على التبادل التجاري فحسب ، بل وصل أمر التقارب والتفاهم إلى عقد اتفاقات ومعاهدات " والواقع أن التأثير الحيثي امتد حتى بلغ مصر ، وتشهد على ذلك معاهدة عقدت بين أحد الملوك الحيثيين وبين الفرعون رمسيس الثاني (1292- 1225) وبين أيدينا لوحان يحمل أحدهما النص البابلي الأصلي لتلك المعاهدة ، ويحمل ثانيهما ترجمتها مكتوبة بالهيروغلفية"1

وإن كانت الحضارة المصرية أكثر تحفظا وتزمتا وتمسكا بالطابع الإقليمي ، بينما حضارة ما بين الرافدين اتسمت بالسمة العالمية والانفتاح على العالم ، ذلك لأن المكون الحضاري لها متعدد ومتنوع ومتشابك لذلك كان قابلية التأثير والتأثرعند حضارة ما بين الرافدين أشد من الحضارة المصرية " وصفوة القول أن حضارة ما بين النهرين وهي الحضارة التي حاولنا إيجاز معالمها وظواهرها الرئيسية هنا ، استمرت أزمانا طويلة وعصورا مختلفة - وهي العصر السوري والبابلي والاشوري والكلداني - بحيث يصعب علينا توضيح أثرها في الشعوب الأخرى على وجه الدقة ،

1تاريخ العلم – جورج سارتون – (157)

وعلى أية حال فالكتابات التي كتبها أشخاص من غير علماء الآشوريات مملوءة بالغموض والابهام ، وينبغي للباحث أن ينظر إلى تلك الحضارة على أنها مركز الطاقة الروحية المتحركة إلى الأمام طوال ثلاثة أو أربعة آلاف عام فنشرت حول نفسها إشاعات حضارية طوال ذلك الزمن ، ووصلت تلك الإشاعات إلى سورية ومصر وإلى الجزر الكائنة في شرقي البحر المتوسط وإلى الأقاليم المطلة على ذلك الجزء من البحر المتوسط أي الأناضول وأرمينية وبلاد فارس وربما إلى الهند والصين " 1

اللغة والدين عنصرا تقارب حضاري :

والدليل على أن كل العناصر الحضارية المختلفة قد انصهرت كلها في قوام حضاري متجانس ومتناغم أن الهلال الخصيب كله كان يتحدث بلغة واحدة ، وكانوا يستخدمون القلم والورق البردي في الكتابة "

1إبراهيم أبو الأنبياء – عباس محمود العقاد – (213)

وكانت اللغة الآرامية وهي اللغة التي كان يتكلم بها التجار الأراميون الذين كانوا يملأون الأسواق البابلية ، قد أصبحت في ذلك الوقت لغة الهلال الخصيب بأسره . وكانت الوثائق التجارية تكتب بالأرامية بالقلم والمداد على أوراق من البردى، إذ كانت الرقم الفخارية في طريقها إلى الزوال شيئا فشيئا " 1

ليس هذا فحسب بل وصل الأمر أن العالم كله والذي يضم الحضارتين المصرية والعراقية ، أو الذي تظلله الحضارتان يتحدث بلغة واحدة وأصبحت هناك تقاليد دولية يلتزم بها العالم كله ، أو قل يحرص على مراعاتها ، فإذا ذهب شخص ينتمي إلى حضارة ما بين الرافدين ، إلى مصر فيستطيع أن يتفاهم ويتواصل مع أهلها ، وقل ذلك في أي مكان آخر ينتمي إلى عالم الحضارتين ، وتلك اللغة الواحدة لم تفرض فرضا من جانب على جانب ، ولم تكن تعكس قوة وهيمنة جانب على جانب آخر ، وإنما هي مظهر من مظاهر القوة الناعمة كما نقول بمصطلح العصر الحديث "ومن الدليل على قدم حضارة بلاد ما بين النهرين أن الوثائق المعروفة باسم ألواح ((تل العمارنة))

1تاريخ الشرق القديم – جيمس هنري برستد – (266)

التي اكتشفت في وادي النيل ، وهي ألواح مكتوبة بالخط المسماري وباللغة البابلية – كشفت لنا على وجه التفصيل عن العلاقة التي تكونت حول منتصف الألف الثاني ق. م . بين مصر وبين شعوب آسيا الغربية ، وهي تبرهن على أن اللغة البابلية صارت في ذلك العصر لغة الدبلوماسية الدولية . ولم يكن ذلك بسبب السلطة والقوة ، لأن المصريين كانوا وقتذاك أشد بأسا من البابليين بل هو من جراء التقاليد الدولية ، على مثال اللغة الفرنسية التي ظلت لغة الدبلوماسية زمنا طويلا بعد أن ذهبت أيام السيادة الفرنسية على أوربا ." 1

إذن بالرغم من اختلاف الشعوب والأمم وتباعدها إلا أنه كان يجمعها لغة واحدة وخط كتابي واحد ، وهذا يزيل الغرابة ونحن نتأمل الآن كيف لجماعة أو قبيلة أن تتحرك أو تنتقل أو ترتحل من جنوب العراق إلى الشمال ثم تخترق بلاد الشام إلى كنعان ثم إلى مصر ، وأنها تستطيع أن تتعامل وتتفاهم وتتعايش وتندمج مع بشر مختلفين معها في اللغة والطباع ، وأبناء حضارة أخرى " قبل نهاية القرن الخامس عشر ق.م . صارت اللغة البابلية والخط المسماري لغة الدبلوماسية ،

1تاريخ العلم – جورج سارتون – الجزء الأول- صفحة (149-150)

وكانت هذه اللغة شائعة منتشرة ، لكن الخط المسماري كان أكثر شيوعا منها فلم يقتصر استعماله على كتابة اللغة البابلية فحسب ، بل اللغة السومرية القديمة ولهجات عدد من الشعوب الأجنبية ، ومنهم العيلاميون والحيثيون والحوريون والفنيقيون وغيرهم ، ولذا انتشرت الألواح المسمارية المدونة لنصوص هذه أو تلك من اللغات في جميع أقاليم غرب آسيا " 1

أضف إلى اللغة الدين ، وبالطبع لم يكن هناك دين بالمفهوم الحديث ، ولم يكن الناس كلهم على عقيدة واحدة ،ومن الممكن لملوك دولة أن يتبعوا أكثر من دين وتكون لهم أكثر من آلهة فلا بأس من ذلك أو في ذلك، "أما ملوك بلاد ((ميتاني))فيرجعون إلى أصول هندية إيرانية وكانوا يقسمون بالإله ((اندرا))و ((مثرا))وبآلهه أخرى مماثلة " 2

1تاريخ العلم – جورج سارتون – (157)
2المصدر السابق (150)

ولم يكن الدين يشكلمظهر من مظاهر السيادة والهيمنة ، بل هو أخر تلك المظاهر وأضعفها وأهونها شأنا ، بدليل أن قوم إبراهيم لم يحركوا ساكنا إلا بعد أن كسر وحطم أصنامهم ، ورغم أنه سفه آلهتهم وسفه أحلامهم وأباءهم وهاجمهم ، إلا أن كل هذا لم يستفزهم ، مع العلم أنه ينالهم في صميم عقيدتهم ، ولكن حينما كسر آلهتهم اعتبروا هذه إهانة لهم ، لأنهم اعتبروا أنه مس أو اعتدى على شيء خاص بهم ، شيء يعتزون به ويبجلونه ، وما أكثر الأشياء التي يعتز بها الإنسان ويبجلها وإن كانت لا تدخل في إطار الدين أو تنتمي إلى العقيدة ، أو قل أن العقائد الدينية في ذلك الوقت لم تكن محورا تدور حياة الناس أو أفكارهم حولها ، أو يبذلون المهج في سبيلها ، "وكانت القبائل القوية حول العواصم تتنازع السلطان فهي في شغل شاغل بالسيطرة عن العبادة " 1 فكثرة العقائد والملل والنحل يضعف بعضها بعضا، وكذلك الاقتراب الشديد والتجاور بين أصحاب تلك العقائد بل والامتزاج يخلق نوعا من التسامح أويستل سخيمة الغضب والنفور من المتعارضين في العقائد ،

1 المصدر السابق (185)

والدليل أن أبا إبراهيم لم يكن يمانع ألا يتبع ابنه دينه ودين قومه ، وكان غاية ما يريده أن يكف إبراهيم عن دعوته أو عن مهاجمة ما يعتقده قومه ، وكان الأب على استعداد أن يظل على سابق وده مع ابنه لو أقلعن طريقته في مهاجمته وقومه ، لذلك لم يكن يُرى بأس ولا غضاضة أن ينقل قوم عن قوم عبادتهم أو شعائر تلك العبادة ،"فإن الأشوريين نقلوا الشمس المجنحة عن الحيثيين الذين كانوا في شمال سوريا والذين كانوا نقلوها بدورهم من مصر"[1]

ولم يكن الدين ليترك طابعا أو أثرا ما على حياة الناس ، بل لم يكن ليملي على الناس خلقا أو سلوكا معينا يجب اتباعه ، فلم تكن هناك عقيدة راسخة أو تعكس نظرة شاملة للكون أو البعث كما الأمر في الحضارة المصرية مثلا "ولم يكن للديانة بين شعب أشور ذي النزعة الحربية القوية، إلا أثر قليل على أخلاق الناس ،

1 تاريخ الشرق القديم – جيمس هنري برستد (212)

وكان الأشوريون في مثل من سبقهم من البابليين . ويرجع السبب الأكبر في ذلك إلى أن كلا الشعبين تشابه في عقيدته عن الحياة الأخرى وأنهم لم يؤمنوا بأنه سيكونهناك حساب في الآخرة ، أما موتاهم فكانوا – مثل البابليين – يدفنون في أرضية المنازل التي كانوا يعيشون فيها " 1

إذن كانت هناك لغة عالمية يستطيع الإنسان أن يتفاهم من خلالها في أي مكان يذهب إليه في العالم ، والآخرون يتفاهمون ويتعاملون معه . فهي وسيلة تفاهم وفي نفس الوقت أداة تقارب ، ولم يكن الدين سببا من أسباب التباعد أو التنافر أو التشاحن بين البشر مثلما هو حادث الآن في بعض البلدان في عالم اليوم .

الشخصية الإنسانية في التاريخ :

" يعتبر التاريخ من أكبر الظالمين ومن أكبر المنصفين – كذلك – للشخصية الإنسانية .

فمثلما تقطف زهرة ناضرة من الرياض الغناء ، وتضعها في صفحات كتاب ، ثم تعود إليها مرة أخرى بعد أيام أو شهور .

1 تاريخ الشرق القديم – جيمس هنري برستد -213)

ومثلما تصيد فراشة كانت تطوف بين الأزهار لتمتص العبير والرحيق، وتسبح بأجنتيها الملونة والمزخرفة المنمنة وسط الضياء ، وتجففها ثم تضعها داخل زجاجة لتراها الأعين ولا تلمسها الأيدي .... كذلك يفعل التاريخ بالشخصيات الإنسانية ، أو هو ذا وضع الشخصيات الإنسانية في التاريخ .

فهناك فرق كبير بين الزهرة في الرياض ، وبين الزهرة المجففة وسط صفحات الكتاب ، وكذلك هناك فرق كبير بين الفراشة وسط الرياض ، وبين الفراشة محنطة ومجففة في جوف زجاجة .

فقد نجحت أن تستبقى من الزهرة كل شيء إلا الحياة .

وكذلك الحال مع الفراشة .

فليس ما أمامك زهرة ، وإنما شيء ما يمت للزهرة ، بل لا علاقة بين الزهرة المجففة والزهرة الحقيقية ، وكذلك الفراشة .

كذلك الشخصية في التاريخ ، فلا علاقة بين الشخصية في التاريخ والشخصية الحقيقية ، أو هي في أفضل صورها علاقة مشابهة ، ولكنها ليست هي .

فالتاريخ يرسم صورة للشخصية من أقوال المحيطين بها ، أو من أرائهم أو إنطباعاتهم ، بل هو لا يكلف نفسه أن يخرج لنا صورة كاملة ، وإنما غاية ما يجهد نفسه به جمع أقوال – وهي في أغلبها – متناقضةأو مختلفة ، أو شذرات متناثرة لا يجمع بينها رابط أو صلة .

كذلك التاريخ يجافي مجافاة خطيرة المنطق ، ونحن لا نقصد المنطق العقلي ، ولكن منطق الأحداث ، أو السياق الطبيعي للأحداث ، وأيضا التسلسل الطبيعي ، فهناك فجوات في حاجة أن تسد أو تملأ ، وهناك أحداث وحوادث في حاجة أن تدمغ بالصدق والحقيقة ، فما أيسر أن تشكك في حدوث أي حدث ، وتشكك كذلك في مقاصده ومراميه ، فأحداث التاريخ كغابة ضخمة أشجارها متشابكة الأغصان وملتفة ومتداخلة ومختلطة ، ومن الصعب أن تتبع هذا الغصن المتدلي ينتمي إلى أي شجرة ، أو ما أغصان تلك الشجرة ، وتلك الثمار الدانية تنتسب إلى أي من تلك الأشجار،

كذلك أنت لا تدري هل الأحداث لها قدر من الحقيقة والواقع ،أم هي من صنع واختلاق بشر أم شياطين ، أنت في حيرة شديدة من أمرك لو أردت من التاريخ أن يقدم لك ما تريده ، فأنت مع التاريخ كأنك تتعامل مع رجل بلا قلب ولا عاطفة .

وكذلك التاريخ يعد من أكبر المنصفين ، لأنه حتى في أسوأ الظروف ، استبقى لنا ظلا للحقيقة أو أثرا أو حتى بصمة من بصمات الشخصية فهذا - على الأقل - يعيننا ويساعدنا في رحلة بحثنا عن الحقيقة ، بدون التاريخ كأنك تسير في صحراء شاسعة ليس بها علامات أو صوى سوى أثار باهتة وضئيلة ، وأتت عاصفة هوجاء وطمست تلك الأثار طمسا ، بل غيرت معالم وملامح المكان تغييرا تاما . فأنت حائر ، تتجه يمينا أم يسارا، تتقدم للأمام أو تتقهقر للخلف.

نعم ، الإنسانية بدون تاريخ كشخص فقد ذاكرته ، فلا اسم له ولا هوية ولا كينونة ، هو في أحسن الفروض ظل زائل لا بقاء له ، فالتاريخ - في معنى من معانيه- مخزن هائل لتلك التجارب التي مرت بها الإنسانية ، المؤلم منها والممتع ، السار منها والمحزن ، أو هو سجل ضخم لا يطوى أبدا ، تظل الإنسانية تطالعه بكل فهم وتدبر واهتمام ، لتستخلص العبر والعظات ، ولتتجنب المزالق والعثرات والمأسي التي سبق ومرت بها وكابدتها وعانت منها طويلا . إذن التاريخ - بهذا المعنى يعتبر من أشد المنصفين "1

عجز تاريخي :

كثيرا ما يعجز التاريخ الإنساني أن يمدنا بما نحتاجه من أخبار ومعلومات.

أو نحن نجهل قدرة التاريخ في القيام بتلك المهمة ، ونعتمد عليه بل ونسرف عليه في قدرته على أن يخرجنا من الحيرة والبلبة ونحن نكتب عن فترة من الفترات ، أو عن حادث من الأحداث ، أو نؤرخ لشخصية من الشخصيات ، فليس التاريخ أرشيفا منسقا ومنظما ومرتبا ، ذا حجرات أو قاعات كل حجرة أو قاعة مختصة بزمن من الأزمنة أو بمكان من الأمكنة ،

1شخصية المسيح – محمود القليني – صفحة 140ومايليها .

وما عليك إلا أن تقرأ ما على الباب من إرشادات ثم تلج إلى الداخل لتنهل ما تشاء من أخبار ومعلومات ،

ثم تخرج وأنت مطمئن القلب ، هادئ الفكر ، مستقر البال ، واثق بما غنمت ، لا ، ليس التاريخ هكذا ، ولكنه عبارة عن ركام هائل وأكوام ضخمة مما خلفه الأولون ، وما خلفه الأولون حينما يضاف إليه عوامل الزمن ، والتبدلات والتغيرات والمحو والإزالة والتزوير والتزييف والإضافة ، وتتداخل الأهواء والأغراض البشرية ،فأنت أمام طلاسم وألغاز وعقد لا حل لها ، ومعضلات ومشكلات لا انفراج لها ، لكل تلك الأوضاع .

رؤيتان :

فهل يا ترى نصدق التاريخ أو التوراة أو أي وسيلة تمدنا بعلم أو معلومات أم نكذبها؟

"نحن لن نصدق كل ما كتبه المؤرخون ، أو كل ما ورد إلينا من أخبار الماضي القريب أو البعيد ، لأن هناك أحداث وحوادث تخالف العقل والمنطق ، وأخرى تخالف منطق الأحداث نفسها ، وهناك أحداث ذكرت لا دليل ولا برهان عليها ، وهي في أمس الحاجة إلى الدليل لتدمغ بالصدق .

وأيضا لن نكذب كل ما كتبه المؤرخون أو ورد إلينا من وقائع التاريخ، فمحال أن كل من كتب وسجل مفتر أو كذاب ، وإلا تساوت الكتابة والتسجيل مع عدم الكتابة والتسجيل ، فالمفتر والكذاب ليس في حاجة إلى تقديم وثيقة لإفترائه وكذبه للإنسانية لتشهد عليه بذلك ،ولكن نحن لا نستبعد فيما كتب أن يكون تلبس بالمبالغة أو التجميل أو الإفراط والتفريط ، أو التهويل أو التهوين ، ولكل شيء أسبابه ومبرراته .

وكتابة الأعداء الكارهين المذرين عن شخصية ، ليست ككتابة المحبين المقدرين المنصفين،وبين كتابة هؤلاء وهؤلاء قد تحدث بلبلة وحيرة بين الحق والباطل، وبين الإثبات والنفي ، فهذا أثبت صفة ما ، وجاء آخر ونفى تلك الصفة ، أو أثبت ما يناقضها ، إذن لن يبقى شيء من سمات وصفات الشخصية ، وإن بقى فهي سمات وصفات باهتة ضعيفة لا قوام ولا كيان لها. ولكن هذا يحدث إذا أتينا بما كتب تاريخيا ووضعناه جنبا إلى جنب ولم نمحص أو نبحث أو ندرس أو نحلل ما ورد إلينا .

فنحن نهتم بما كتبه الأعداء والكارهون ، ولكن نبعد عنه ونخلصه من التهوين والتفريط ، وكذلك نهتم بما كتبه المحبون المنصفون ، ولكن سنجنب عنه المبالغة والإفراط ، ولابد أن نتجشم هذا العناء ، لأننا في حاجة
إلى ما كتبه المهونون والمفرطون ، لأنهم يكتبون عن شخصية وجدت بالفعل ، وأتخذ منها موقفا ، أيما كان هذا الموقف ، ولكنهم بخسوا حقه لشيء ما في صدورهم ، بغض النظر عن موقفهم ، هم أسدوا خدمة إلى الإنسانية ، أنهم كتبوا عن هذا الشخص ، ولم يتعاملوا معه بمبدأ الإهمال والتجاهل والنسيان .

ونحن في حاجة إلى ما كتبه المحبون والمقدرون ، لأنهم كشفوا أو أظهروا جوانب تبرر مدى حبهم وأدركوا أن تلك الجوانب فيها إفادة وإثراء لضمير الإنسانية ، ومع ذلك فلو خلصنا تلك الجوانب من المبالغة ، لبقيت ثابتة ولم ينلها شيء .

وإذا كان عملنا هذا محاطا بالعسر والعنت ، مع الشخصيات التاريخية ، فإنه - على العكس - أشد ما يكون يسرا وسهولة مع شخصيات الأنبياء ؛ لأن هؤلاء صنف مصفى ومختار من الناس قد اكتملوا خلقا وخلقا ، فليس ثمة نبي دميم أو قبيح الشكل والمنظر ، فمن ضمن مواصفات وصفات النبي أن ترتاح وتستقر وتسعد العين بالنظر إليه ، ناهيك عن الائتناس والسرور والبهجة بسماعه والانصات إليه ."[1]

الوثيقة التاريخية والحفريات :

فمهمة الباحث في الآثار والحفريات داخل باطن الأرض أيسر وأهون وأسهل من الباحث عن التاريخ أو في التاريخ ، لأن باطن الأرض حفظ وصان وحمى الأثر أن تعبث به يد إنسان ، أو تتدخل الأهواء في تغيرهأو تبديله ، لذا حين المقارنة بين وثيقة تاريخية وحفرية من الحفريات ،

1شخصية المسيح – محمود القليني – صفحة 84وما يليها

فإن الباحثين والدراسين يرجحون ما تدل عليه الحفرية أكثر مما توحي به الوثيقة، إذا تعارضتا ، لأن الوثيقة كتبها شخص ، والذي تولى حفظها وصيانتها شخص وتداولتها الأيدي ، ومرت عليها أزمان مختلفة ومتخالفة ومتعارضة ، بينما بعدت وعزلت لأمر ما الحفرية عن كل هذه الأعراض ، فالحفرية تتحدث بلسان واحد ، بينما أي وثيقة تاريخية قد تتحدث بأكثر من لسان ،وبأكثر من لغة ،وتوحي إلينا بأكثر من مقصد ودلالة .

والإنسان هو الكائن الوحيد المولع بدراسة التاريخ وما حدث وجرى في العصور الموغلة في القدم ، ويستعين بكل الوسائل المتاحة لكي تأتي تلك الدراسة والبحث موافقة للحقيقة ، أو تكون لسان الحقيقة ، أو تشير وتؤمئ إليها ، وهو يفعل ذلك لإرضاء ظمأ فطري في كيانه للعلم والمعرفة ، والبحث والدراسة ، وهناك من الحضارات من كانت سعيدة الحظ ، وأخرى كانت لا نقول سيئة الحظ ، ولكن مرهقة ومتعبة وعسيرة للدارسين والباحثين في تاريخ الحضارات ، فمثلا الحضارة المصرية القديمة أثارها ودلائلها فوق الأرض واضحة جلية بل تعلو فوق الأرض مسافات ،

وأتخذت من الحجارة والصخر الصلد موادها الخام ، نحتت في الجبال معابدها وشواهدها ومعالمها ، حتى مفردات لغتها لم تختر سوى الحجارة سجلا لها ، ومقابر ومدافن ملوكها – المفروض ان تكون في باطن الأرض ، كانت دلائل وشواهد عبقرية فوق الأرض بارزة واضحة جلية . وأختار المصري أن تكون أغلب أثار حضارته في الصحراء تحت الشمس ، المكان هنا أتون مشتعل لا يبقى ولا يذر إلا ما يستحق البقاء والصمود والخلود ، هنا لا يجد الباحث أي صعوبة أو عسر في البحث والدراسة والمعرفة .

بينما حضارة وادي الرافدين اتخذت من (الرقم) أوعية لحفظ أثارها ، والرقم – كماهو معروف – مصنوع من الطين الذي تعرض للنار ليعطيه شيئا من التماسك والصلابة إلى حد ما ، أي نستطيع أن نقول أن حضارةأو أثار حضارة ما بين الرافدين أثار فخارية ، وهذا الوضع قيد – إلى حد ما – الكاتب ، لأن خامة الطين - رغم ليونتها ومطاوعتها – تحد من حرية وانطلاق الكاتب " واستغل السومريون وجود مورد هائل من الطينفي بلاد ما بين النهرين السفلي ، فاخترعوا استعمال ألواح الطين للكتابة ، إذ وجدوا أنه من الممكن أن ينقشوا علامات نقشا سريعا على الطين اللبن الطري ، بقلم من القصب ،وأن هذه العلامات تثبت بجفاف هذا الطين ،

وأنها تبقى ظاهرة واضحة زمنا طويلا غير محدود وهذا فضلا عن أنه من الممكن تحسين هذه الطريقة بتجفيف هذه الألواح في أفران . ولكن مع ذلك لم يكن للكاتب وهو يكتب على الطين نفس الحرية التي يتمتع بها زميله ، وهو يكتب على البردي الصقيل . ولذا كان الكاتب المصري مصورا أو رساما . على حين لم يكن باستطاعة الكاتب السومري أن ينقش سوى نوعين أو ثلاثة أنواع من العلامات أو الأسافين ، أي أن الخط المسامري كان نتيجة لابد منها بسبب اختيار الطين مادة للكتابة ."1

نفس الضرورة التي ألجأت أبناء حضارة الرافدين إلى استعمال الطين كمادة خام يكتبون عليها وكأوعية لحفظ مفردات حضارتهم أو أثار حضارتهم ، هي التي منعتهم من اختراع أو استعمال ((الكتاب)) أو ما يسمى ((الدرج)) وهو عبارة عن لفيفة بردية واحدة يضم مواد كثيرة من الأخبار والمعلومات "

1تاريخ العلم – جورج سارتون – (154- 155)

والخلاصة أن المصريين والسومريين اخترعوا الكتابة ، وارتقوا في اختراعهم ، وانتفعوا به وتوسعوا في استعماله . واستطاع المصريون - بفضل ما لديهم من مادة للكتابة أصلح مما لدى السومريين – أن يحققوا اختراعا آخرهو ((الدرج))أي الكتاب المكون من لفيفة بردية واحدة ، وبذلك أمكن المحافظة على نص مهما بلغ طوله ، أما السومريين فلم يكونوا محظوظين في ذلك ، فدونوا نصوصا قليلة مطولة على أشكال مجسمة كبيرة على قطع كبيرة من الصخر ، (مثل نص قانون حمورابي) لكنه من الواضح أنه حتى في هذه الحالات لم يستطع السومريون أن يخرجوا ما يسمى كتابا " 1

لكل تلك الأسباب وغيرها فإن استخلاص أو استنتاج معلومات في حاجة إلى جهد جبار ، حتى بعد ذلك فإن الحصيلة لا تعلو إلى درجة اليقين العلمي ، فكلها اجتهادات ، لا أحد يجرؤ أن يصفها أنها مجردة عن الخطأ أو الزلل ،

1المصدر السابق (158- 159)

وكذلك لا أحد يصل بها إلى درجة اليقين العلمي " من ذلك نرى أن محاولة معرفة الوضع الصحيح لتاريخ سهل ((شنعار)) ليس من الأمور السهلة ، ولن يتيسر لنا أن نصل إلى الحقيقة أو نرتب معلوماتنا المشوشة إلا بعد أن تمكننا الحفائر من العثور على المدن السومرية التي نجهل أماكنها حتى الآن " 1

ولكن مع ذلك هناك علامات على الطريق تشير إلى الإتجاه الذي يجب أن نسلكه ،وهناك دلائل تدلنا على أي السبل نسير ونقتحم وأي السبل نتوقف أمامها ونتريث ، ولو ظللنا نتشكك في تلك العلامات ، ولا نستهدى الأدلة، لبقينا ندور في حلقة مفرغة لا نتقدم يكبلنا الشك ويقيدنا الخوف من الوقوع في الخطأ ، ونحن إذا أردنا معلومات أو أحداث تاريخية لا يتطرق إليها الشك أو يبلغ اليقين منها مبلغا كبيرا ، فإننا بذلك نكلف التاريخ ما لا يطيق ، بل أننا نطالب الأشياء بما في غير طبعها ، فنحن لا نعتمد على التاريخ اعتمادا كليا ، ولكننا نسترشد به نتخذه مصباحا ينير لنا تعاريج المكان كي لا نصطدم بما ليس في مكانه ، ويوضح لنا ملامح الزمان كي لا نضل في متاهاته ،وإن لم يتوفرهذا المصباح لن نتوقف عن السير والحركة ،

1انتصار الحضارة –((تاريخ الشرق القديم)) – جيمس هنري برستد (175) .

ولكن ستكون الحركة أبطأ ، والتوجس والحذر أكثر، وسيكون جل اعتمادنا بعد ذلك أو قبل ذلك ، على منطق الأحداث ، أو العقل الخفي الذي يحرك الأحداث ، أو ينظم كل ما يحدث وفق نظام مترابط ومتسلسل ، يضمن استمرارية الحركة نحو الأمام ، أو تلك الروح التي تخلق من الكثرة والتعدد كيانا واحدا ، ومن الفوضى والاختلاف نسقا واحدا ، ومن الأراء والأفكار والأهواء المتصارعة المتطاحنة اتجاها واحدا . لو لم يكن هذا العقل وتلك الروح ، ما جلسنا اليوم نتأمل ما حدث منذ الآف السنين ، فإذا كان هناك من يضبط حركة الكون من أكبر أجرامه إلى إلى أصغر جسيمياته ، ويسوق حركة هذا الكون العظيم إلى غاية محددة وهدف مقصود لا يتبدل ولا يتغير، ولا أحد يشك أو يرتاب في وجود هذا الضابط وبالتالي هذا النظام الذي يسير عليه الكون ، فإن ما يضبط حركة الكون - أيضا - يضبط حركة الافراد والجماعات في كل الأزمنة وكلاالأمكنة،ويسيرها وفقغاية محددة وهدف مقصود ، ولسنا بذلك نقول بمبدأ الحتمية أو الميكانيكية في التاريخ ، ولكن الأمر سنن خلقها الله في الكون ، وطبائع أودعها في جبلة البشر،فالأمر هنا توفيق واتفاق،مثل قوله تعالى :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ

الزمر: ٢١

فالماء نزل من السماء في أماكن متعددة وبكميات مختلفة ، وسال في طرق وسبل إلى ينابيع كثيرة ، فمن طبيعة الماء أن يسيل ، ومن طبيعة الينابيع أوهي مهيئة ومعدة على أن تحتوي هذا الماء،وفي مكان محدد وزمان مخصص ينتج عن هذا الماء الذي يستخرج من تلك الينابيع زروع مختلفة الألوان والأشكال،وينطبق على هذا الزرع ما ينطبق على جميع الخلائق من مراحل الطفولة فالشباب فالهرم فالموت ، وماينطبق على الأفراد ينطبق على الجماعات والأمم ، وبالتالي على الحضارات ، فهي سنن ليست مفروضة على الخلق والكائنات ضربة لاذب،ولكنها معروضة لذي عقل ، إن شاء سار وفقها واتفق معها ، وإن شاء خالفها وعارضها وكذبها :

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ آل عمران: ١٣٧

وتلك السنن والطرق واضحة جلية للعقول والعيان ، لأنها هي الثابتة وما دونها متغير، وهي الباقية وما سواها زائل وهي المستمرة ، وما غيرها منقطع ومتوقف .

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ النساء: ٢٦

إذن لا علينا إذا لم تتجمع الشواهد والأدلة المادية والوثائق والحفريات لتثبت وتبرهن أن في هذا المكان والزمان وجد نبي اسمه إبراهيم ، لأنه لو جعلنا هذا الأمر قاعدة ومنهجا لخسرنا خسرانا مبينا ، ويبقى العقل والروح والسنن هي الهادية لنا في هذا الأمر .

إذن لا يجب ان نقف إزاء التاريخ لنستقي منه أخبارا وأنباء وأرقاما وأسماء مدن وشخصيات فحسب ، لأن هذا سيضلل أكثر مما يهدي ، وسيضيع أكثر مما يرشد ، ولكن يجب أن نستلهم –

كما قلنا – الروح والسنن الطبيعية ، وأيضا مسار النفس الإنسانية في تعاطيها مع الأحداث حولها ،لأن التاريخ – إلى جانب أنه سجل للأحداث والوقائع – سجل لتجليات النفس الإنسانية في الزمان والمكان ، وإن لم يحتفظ ويحتفي التاريخ أو يضع نصب عينيه تلك التجليات ، فهويحتفظ بالتراب دون التبر ، ويدفن رأسه وذاكرته في الرغام ، دون أن يرفع نظره في الفضاء الواسع، ويستشرف حركة الأفلاك التي ينتظمها نظام في غاية الدقة والإبداع " أكثر غوامض التاريخ يخلقها المؤرخون لأنهم ينظرون إلى التاريخ كأنه حسبة أرقام لاحصاء السنين والأيام أو كأنه أطلس مواقع ومعالم ، أو كأنه سجل حوادث وأنباء ...ولو أنهم واجهوه على قاعدة واحدة هي أنه وصف نفوس إنسانية وأن حوادثه وأنباءه ومعالمه ومواقعه وكل ما يحسب فيه من السنين والأيام إنما هوتبع لوصف النفوس الإنسانية لما بقى فيه غموض أو بقى فيه الغموض الذي يغمض علينا) 1

1إبراهيم أبو الأنبياء – عباس محمود العقاد – (138)

نعم ، هناك أشياء وحوادثووقائع كثيرة في التاريخ تجافي العقل والمنطق، وقد يظن البعض أن ليس أمامنا إلا القبول أو الرفض،وأننا – هنا – إذا قبلنا فقد أصابنا الغرم ، لأننا نقبل بشيء نعلم أنه بائر وعاطب ، وإذا رفضناه فقد أصابتنا الخسارة ، لأننا نضحي بشيء إن لم يكن الحقيقة فهو مظنة الحق، هوالتربة التي سننخل ترابها أونحفر طبقاتها وندرس ونبحث في حفائرها لنتلمس ماتطمئن إليه قلوبنا وتركن إليه عقولنا ، ونحن هنا لن نقبل، ولن نرفض ، لن نقبل إلا ما يتسق مع المنطق وينتظم مع العقل ، لأن هذين هما الضفتان اللتان تحيطان بحوادث ووقائع العالم ، ولن نرفض لأن الرفض نوع من كسل العقل وفتور الهمة ، وقربان الحقيقة الذي يجب أن يقدمه الباحث – وهو راض – إعمال وإجهاد العقل،ومضاء العزيمة وعلو الهمة "ولعلنا نصل إلى النتيجة من درب قريب إذا اعتمدنا على قياس التاريخ بمقياسه الذي لا يقبل الخطأ : وهو تصور الحوادث كما يرسمها الواقع والعقل فإن هذا المقياس شبيه بمقياس العمليات الحسابية في التمييز بين الخطأ والصواب ، وما علينا إذا أردنا أن نمتحن حادثة تاريخية أو سلسلة من الحوادث التاريخية

إلا ان نسأل أنفسنا : كيف ينبغي أن تحدث ؟ فإذا ارتسمت لنا على الترتيب الذي يقبله العقل ويطابق الواقع فذلك هو الامتحان الصادق وما نستخلصه منه هو الصواب كأصدق ما يمكن أن تصوره تاريخ الحوادث لمن لم يشهدها شهادة العيان " 1

فهذا المكان – ما بين الرافدين – مرشح – دون غيره – لظهور نبي ، فهذا المكان – كما قلنا من قبل- بمثابة خزان بشري ، كان أيضا ،مجمع لكل ما في العالم من أديان وعقائد وملل ونحل ، وإذا أردت أن تختار بقعة تلخص وتختزل كل ما في العالم من اختلافات وتناقضات وتعارضات جنسيةوبشرية وكذلك عقائدية وفكرية وثقافية ، فلن تجد غير هذا المكان ،وإن بحثت عن مكان أشد احتياجا لرسالة سماوية ؛ ليفض هذا التشابك ويزيل تلك التناقضات وينظم تلك الفوضى ، ويحدد مسارا لتلك الاتجاهات المتفرقة والمتشتتة والمتشعبة فلن تجد غير هذا المكان ، " من الألف الثالثة إلى الألف الثانية قبل الميلاد ، أقام في البلاد العربية أناس من أتباع كل عقيدة عرفت في تلك العصور

1المصدر السابق (150)

وكان مركزها الأكبر في بلاد النهرين ، حيث تتابعت معها الديانات والشعائر ومراسم العبادة . عبدت فيها الكواكب ، وعبدت فيها الملوك ،وعبدت فيها قوى الطبيعة وعبدت فيها الأرباب العليا، التي تعم عبادتها رجال الدولة ، وعبدت فيها الأرباب المحلية التي يدين بها أبناء كل أقليم على حدة ، ولا تشترك الأقاليم جميعا في عبادتها ..

وقامت الشعائر على اختلافها مع كل من هذه الأديان ، فعرفوا الضحايا البشرية كما عرفوا القرابين منغلات الزراعة في مواسمها وعرفوا الصلوات في الهياكل بقيادة الكهان ، كما عرفوا الصلوات في البيوت أو في المدافن الملحقة بها ، وعرفواالديانات التي تؤمن بالروح والجسد ، كما الديانات التي تؤمن بالجسد ولا تذكر شيئا عن الروح ، أوالتي تؤمن بأن الروح يلصق بالأعضاء فلا ينتقل إلى العالم الآخر ما دام للجسد باقية .

وشوهد من الآثار والأحافير أن هذه الديانات تتغير كلما تغيرت الدولة القائمة في مكانها ، فيقضي الدين الجديد على بعض ويستبقى بعضا منها أو يحوله إلى صورة أخرى " 1

1إبراهيم أبو الأنبياء – عباس محمود العقاد – (164)

وقد صور القرآن حيرة إبراهيم – ؛– وهو إزاء تلك المعبودات والعبادات ، وإبراهيم له ما له من قمة الرشد ورجاحة العقل وتمام البصيرة

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79) الأنعام: ٧٦ – ٧٩

وما كانت السماء لتذر البشر حائرين يتخبطون في الأوهام والخرافات والأباطيل ، ويضلون في دياجير الظلام ، ويتيهون في دروب الشرك والوثنية.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ يونس: ٤٧

وهي سنة من سنن الخلق ، أن الأرض – دائما - على موعد مع السماء، فكم من رسل أرسلتهم السماء تترى لأهل الأرض لا سيما الأولون .

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ الزخرف: ٦

وقد كان إبراهيم واعيا ومستوعبا لكل ما في عصره من عقائد وديانات وثقافات ، بكل ما تشتمل عليه من خلافات وتناقضات ، وأدرك موطن فساد وبطلان كل ما يخوض فيه قومه ، بل العالم أجمع ، لأن ((أور))بمثابة قطرة تحمل كل خصائص وسمات المحيط ، فلم تكن أور مدينة منعزلة عن العالم ولم يكن العالم بمنأى عنها ،فهو موصول بالعالم من خلالها ، والعالم متصل به من خلالها ، وهو في موقعه هذا أدرك مدى الفارق الشاسع والهوة الواسعة بين واقع العالم العقائدى وبين مضمون أو جوهر رسالته ، إن هذا الجوهر أو الأساس هو الذي تقام عليهالعقيدة الحقة ، وبدونه تعتبر العقائد مجرد تراهات وأوهام وأباطيل ، وهذا الأساس هو التوحيد .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ الأنبياء: ٢٥

وليس عليه أن يهدم ويقوض ما عليه قومه من عقيده ، ولكن عليه أن يقيم هذا الأساس ، فينهدم وينهار كل ما سواه ، ولكن إذا كان العالم حوله قد بلغ مرحلة لا بأس بها من التقدم والتطور العقلي -بمقاييس هذا العصر - كماتدل الوثائق والأحافير، ألم يكن العالم مهيأ ومعد لقبول فكرة أو مبدأ وأساس التوحيد ؟

لا ، لم يكن العالم مهيأ ومعد لقبول فكرة التوحيد، إذن ما جدوى رسالة إبراهيم - ؛؟

رسالة إبراهيم - ؛- كانت بمثابة هذه التهيئة وكان لابد وأن يكون هناك رسول ، تلك الضرورة يحتمها زمن الرسول والأزمنة التي بعده .

بالنسبة لزمنه فهو محاولة لإيقاف هذا التدني والتدهور للقيم والأخلاق بين البشر وبعضهم ، ومن ناحية أخرى تقويم تلك العلاقة بين الإنسان وخالقه .

أما للأزمنة التي بعدها فهو تمهيد وإعداد البشرية لبداية استقبال أنوار النبوة التي ستتوالى تترى على أهل الأرض .

الفصل الثاني
العشيرة الإبراهيمية

بعد حدوث ما حدث من إبراهيم – ؛– بشأن موقفه من عقيدة قومه، والصدام الذي تصاعد ووصل إلى الذروة ، ولحسم هذا الصراع قرر إبراهيم الرحيل ، ولا أظن أن هذا القرار كان سهلا عليه ، ولكن هناك أمورا كثيرة دفعت إلى ذلك ، وأظن أن كل قرارات الأنبياء تحركها مصلحة ودواعي الدعوة في المقام الأول ، فمن ناحية مصلحة الدعوة تحتم وتقتضي الرحيل ، ومن ناحية أخرى ، لم يعد الموطن يسمح ببقاء إبراهيم ، فالقوم قد اتخذوا موقف العداء والصدام منه ، ولم يكن الموقف من إبراهيم فحسب بل من عشيرته أيضا ، إما لأن العشيرة في تلك المجتمعات تحمل جريرة الفرد ، ومن الصعب فصل الفرد عن العشيرة أو العشيرة عن الفرد - إلا إذا هي قررت أن تتخذ هذا القرار وتعتبر الفرد لا يمت لها بصلة وتخلعه من زمامها وتبعده عن نطاقها - لذلك فموقف القوم من لم يكن من إبراهيم خاصة ولكن من عشيرته أيضا، وإما عشيرة إبراهيم قد آمنوا به واتخذوا نفس الموقف من عقيدة القوم، فكان من المنطقي والطبيعي والعقائدي أن يرحل إبراهيم وتتبعه عشيرته ،

حتى من لم يؤمنوا به ، فالبقاء بعد رحيله لن يبرأهم من أنهم يرتبطون بصورة ما بمن أهان آلهتهم ،وسفه أحلامهم ، بل أن رحيل زعيم العشيرة سيؤكد ويؤصل موقف القوم من أفراد العشيرة ، بل قد يعرض من بقى للخطر بعدما رحل الزعيم ، والتي قد تكون هناك اعتبارات مراعاة وعلاقات مصانة بينه وبين بقية زعماء عشائر القوم .

ولم يكن هناك سبب واحد يدفع إبراهيم إلى الهجرة ، وإنما هي أسباب متعددة ، بعضها يتعلق بالعقيدة - وهي أقوى الأسباب - وأخرى تتعلق بالطبيعة ، وثالثة بالسياسة .

" وتقترن زلازل الطبيعة وزلازل السياسة فلا يستقر لأحد من المقيمين في ديارهم قرار ، فضلا عن القبائل الرحل في طلب المرعى وطلب الأمان ، سقطت دولة بابل وغلبتها عليها قبائل عيلان من الشرق وقبائل عمور من الغرب ، وعاش العموريون والعيلاميون تارة في قتال وتارة في حلف مزعزع خوفا من دولة الأشوريين في الشمال"[1]

1إبراهيم أبو الأنبياء – عباس محمود العقاد – صفحة (183)

" وأقلق ما تكون حياة العشيرة البادية حين تطغى عليها عشيرة أقوى منها ويبلغ قوتها أن تسيطر على الدولة في عواصمها وهكذا كانت حياة العشيرة التي تولاها إبراهيم وأبوه أيام طغت على مدينة (أور) أفواج من العيلاميين وأفواج من العموريين، ولم ينفتح أمامها سبل الهجرة غير سبيل الشمال"1.

وحينما ترتحل العشيرة تتعرض لما لم تتعرض له وهي مستقرة في موطنها ، فهي مهددة بالتفكك والتحلل، وبالأخص لو علمنا أن عشيرة إبراهيم كانت صغيرة، أو من وافق واختار الرحيل عدد ليس بالكبير، "وكانت عشيرة الخليل صغيرة ولا شك بالقياس إلى العموريين والرعاة وسائر القبائل التي تحتل بقاع الهلال الخصيب ولو لم تكن صغيرة لما أمكن أن تهاجر من جنوب العراق إلى شماله إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط إلى مصر إلى فلسطين مرة أخرى في حياة زعيم واحد " 2

1المصدر السابق صفحة (188)

2إبراهيم أبو الأنبياء – عباس محمود العقاد (183)

ولمقاومة الأخطار التي تتعرض لها ، تتمسك العشيرة بتقاليدها وعاداتها، بل هي تتشدد تشددا عظيما كلما أحست بالخطر ، وأهم تقليد تتمسك به وتحافظ عليه ، هو تقليد نقاء الدم ، فهذا هو الأمر الوحيد الذي يحفظ على العشيرة كيانها ويصونها ويحفظها من عوامل التفكك وأسباب التحلل .فهي غير راغبة وزاهدة بل كارهة أن ينضم أو تضم أحدا غريبا عنها ، لذلك فهي تحافظ على علاقات المصاهرة حفاظا عظيما ، وهي لا تقبل بهذا الأمر - المصاهرة من خارج العشيرة - الخطير - في نظرها - إلا لتدفع به خطرا أكبر ، وهي تفعل ذلك مضطرة وفي أضيق نطاق،وهي إذا استطاعت أن ترجع عما فعلته ، أو تسلب عنه صفة الشرعية والواقعية ، أو تحتال بأي أمر من الأمور ، لما توانت عن ذلك ، وأهم أفراد العشيرة حفاظا على هذا الأمر هي :

(سارة): زوجة زعيم العشيرة الإبراهيمية ، وهذا في حد ذاته منحها مكانة ومنزلة بين أفراد العشيرة ، وتلك المكانة والمنزلة من الطبيعي والمنطقي أن تحافظ عليها وتصونها وتقويها وتجعل لها صفة الدوام ،ومن شأن زعماء العشائر والمقربين لهم والمتصلين بهم أن يكونوا أشد الأفراد حفاظا على عادات

وتقاليد العشيرة والعرف السائد بين أفرادها ، وأهم العادات والتقاليد والعرف – كما ذكرنا آنفا - هو الحفاظ على نقاء دم العشيرة ، بمعنى ألا يتزوج أفرادها – نساء ورجال – من خارج العشيرة ، وهذا – في ذاته – ما يعطي العشيرة قوامها أو تميزها بين بقية العشائر ، وهذا يفسر عدم زواج إبراهيم – ؛- طوال سني عمره منذ أن خرج من موطنه حتى ذهابه إلى مصر ، رغم تنقله بين القبائل والعشائر الكثيرة في رحلاته المتعددة، ولكن بتقدم إبراهيم في السن وكر ومر السنين ، وعدم إنجاب (سارة) ابنا لإبراهيم يرث الزعامة أو يجعل الزعامة مستمرة في البيت الإبراهيمي ، وتظل المميزات والمنزلة في يد سارة ، فكل هذا مهدد بالضياع إذا مات إبراهيم ولم تنجب منه (سارة) ، فموقف سارة هنا يدفعها ألا تمانع في التفريط أو التسامح في تلك التقاليد والعادات التي سارت عليها العشيرة – مؤقتا أو لمرة واحدة – في أن يكون هناك وريث تنتقل من خلاله المميزات والمنزلة للبيت الإبراهيمي ، فوافقت أو لم تمانع أن يكون هناك ابن ليس منها ولكن ينسب إلى إبراهيم ، أو يكون استمرارا وامتدادا للزعامة، هل هي التي فكرت في ذلك ؟ هل من حولها هم الذين فكروا في ذلك ودفعوها لتنفيذ ذلك ؟ هل إبراهيم نفسه هل هو الذي فكر في ذلك وأقنع سارة وبقية أفراد العشيرة ؟

هل الجميع كانوا على اتفاق ضمني بذلك ؟ كلها احتمالات مقبولة ، وليس زواج زعيم القبيلة بالأمر الهين أو السهل ، وكذلك ليس زواج زعيم القبيلة شأنا يخصه بصفة منفردة ، ولكنه شأن يخص العشيرة كلها،وإن كان يخص بنوع خاص (سارة) زوجة إبراهيم .

إذن الطبيعي والمنطقي ومصلحة العشيرة ومصلحة البيت الإبراهيمي تحتم أو تستوجب هذا الزواج الذي سيحدد مصير العشيرة ، ومصير الزعامة .ونزلت (سارة)- زوجة الزعيم - مجبرة أو مختارة على قبول هذا الأمر ، أما موقف (سارة) المرأة أو الأنثى ،وما يتحكم فيها من نوازع ومشاعر من هذا الزواج فطبيعي أن يكون في نفسها شيء من هذا الزواج ، فهناك حكم العقل أو ما تمليه المصلحة ويحتمه الواجب وتفرضه المسئولية ، وهناك ما تمليه الطبيعة البشرية ، وما يمور داخل تلك النفس من مشاعر وأحاسيس .

وأظن أن اختيار تلك الزوجة لإبراهيم لم يكن سهلا أو ميسورا بمكان ، فالمتزوج هو زعيم العشيرة ، والزواج له غرض وغاية يمس مصير العشيرة، ولا استبعد أن تكون الزوجة التي وقع عليها الاختيار من إحدى البيوتات أو القبائل والعشائر العريقة في مصر ،ومسالة أنها جارية أو أمة ليست مستساغة أو منطقية للأسباب التالية :

أن العشيرة لن توافق على التفريط أو التسامح في مسألة نقاء دم العشيرة - وتلك مسألة على وزنها ولها أهميتها - ويكون مقابل تلك التضحية الغالية أن يضم إلى العشيرة فردا لا حيثية له ولا مكانة أو منزلة ، فلابد المرأة تكون على نفس مستوى من تتزوجه كأن تكون ابنة زعيم أو لها صلة أوعلاقة ببيت رئيس أو زعيم القبيلة أوابنة أحد رجال الدين أو الكهنة، وأظن بشخصية إبراهيم واهتماماته كانت هناك علاقات من نوع ما بهذا الصنف من المصريين .

أن مسألة الزواج بالنسبة لإبراهيم لم يكن يتحراها طوال سني عمره ، ولم تكن ضمن اهتماماته وراثة الزعامة أو استمرارها ودوامها في بيته ، وإن كانت فهي في هامش الشعور ، ومن كانت تلك شخصيته أو تفكيره لن يوافق من الزواج في أول امرأة تعرض عليه ، لا سيما وإذا كانت جارية ، لأن قضية الجارية قد تجد اعتراضا واحتجاجا من الطامعين في وراثة الزعامة والمتطلعين أن يخلفوا إبراهيم ، فإن كان إبراهيم ومن حوله جادين في إحضار من يخلفه أو يرث الزعامة فعلى الأقل يكون مبرأ من أي شبهة تثير الاعتراض ، فلماذا يكون وارث الزعامة ابن جارية ،

وهناك شباب ورجال كثيرون في العشيرة خلص الدماء، والتاريخ يحدثنا كم من زعيم أو خليفة طعنت في خلافته أو زعامته بسبب هذا الأمر،ولم يكن – في الأغلب – مسألة الحرية والعبودية هي المحك ، ولكن لمجرد أنها من عنصر مغاير أو غريب أوأجنبية .

شخصية (هاجر) :مع العلم أن حديث التوراة عنها فيه الكثير من التحيز والتجني – وهذا مفهوم ومنطقي إلى حد ما لخضوع أجزاء أو مسائل وقضايا في التوراة لأهواء الكاتبين والمدونين ، وتعرض التوراة على مدى التاريخ الطويل لها للتغير والتحوير كما ذكرنا ذلك آنفا – إلا أننا نستطيع أن نستخلص بعض سمات تلك الشخصية التي ظلمت من بعض أفراد العشيرة الإبراهيمية ومن كاتبي التوراة ، ومع الأسف من أناس كثيرين غيرهم ، فنحن شايعناهم أو لم نعترض ، أو لم ننظر إلى هذه القضية نظرة فيها القليل – وليس الكثير – من التفكير أو التأمل ، فسرنا على نهجهم ، وقلنا قولهم .

فحديث التوراة عن أفعال وتصرفات (هاجر) لا يستقيم أن تصدر من جارية ، فالجارية وطنت نفسها ، أو قل العبودية قتلت فيها أي منزع من منازع التمرد أو حتى الاعتراض أو الاحتجاج ، وأن تتزوج جارية من زعيم عشيرة كإبراهيم ، أو يقع عليها الاختيار لتكون زوجة زعيم - دونا عن غيرها من الإماء - هذا في حد ذاته رفعة وتكريم لها ليس بعده تكريم ، وهذا - في حد ذاته - يجعلها تتحمل ما لا يمكن أن يتحمل من صنوف الهوان والمذلة ، ولم تتحمل فالمذلة والهوان من أول لوازم العبودية ، فليس غريبا على الجارية أن تتلقى أسوأ أنواع المعاملة ممن حولها لا سيما من مولاتها أو مولاها أومن يتصل بهم ، ولكن أن تهرب (هاجر) من وجه مولاتها ، وأظن أن قرار الهروب فكر فيه ونفذ بعد أن يئست (هاجر) واستنفدت كل سبل الصبر والتحمل من معاملة (سارة) ، وأنها قد انتوت الذهاب بلا رجعة بدليل أن ملاك الرب - كما تقول التوراة - هدأ من روعها وطلب منها الرجوع ، وأن الله سمع لشكوتها وتضرعها وكان تبشيره لها بإسماعيل فيه الكثير من تضميد الجراح ومحو أثر الإهانة والمذلة التي لحقتها من معاملة من حولها،وأظن أن ما كان يحدث بين المرأتين أو الزوجتين لم يكن يتناهى إلى سمع إبراهيم ، وإن كان يصل شيء من هذا إلى مسامعه فلم يكن يعيره أدنى اهتمام، من ناحية أن هناك أمور أعظم وأجل تشغل باله وتستحوذ على اهتمامه ،

ومن ناحية أخرى أن ما يحدث بين المرأتين شيء طبيعي تحتمه الطبائع ولا يمكن تغيره ، وكان إبراهيم يفهم ذلك ، ومن ناحية أخرى لا يعدم الأمر أن تقف (هاجر) صامتةأو مكتوفة الأيدي أمام إهانات أو سوء معاملة (سارة) لها،فلابد أنها ردت الصاع صاعين ، وكان قرار هروبها أبلغ رد وأفضل موقف اتخذته (هاجر)، لأنه جرد العشيرة ، وبالأخص (سارة) ،من كل شعور بالامتياز والتفضل والاعتزاز بمسألة نقاء الدم ، ورد لهاجر الشعور بالكرامة والاعتزاز بذاتها ، وأنها غير شاعرة بأنها كسبت كثيرا بالانضمام إلى العشيرة ، بل هي زاهدة بل كارهة انضمامها إلى العشيرة ، وما فعلته(هاجر) إعلان وإعلام صريح وواضح لكل فرد من أفراد العشيرة ، وأظن ما بين غياب هاجر - الذي ربما قد طال بعض الوقت - وبين رجوعها تغيرت أمور كثيرة بين أفراد العشيرة ، لاسيما بين (إبراهيم) و (سارة) ،فما حدث - هروب أو محاولة هروب زوجة زعيم العشيرة - حدث جلل لابد تعقبه حسابات ومراجعات يترتب عليها تغير مواقف ووضع حدود وفواصل.

الشيء الآخر الذي يخص (هاجر) في التوراة ، قضية انفصالها عن العشيرة ، فالتوراة تقول أن غيرة (سارة) من ابن (هاجر) إسماعيل ، وأنه قد يحجب ويستقل بالزعامة دونا عن إسحاق ابنها دفعها أن تطلب من إبراهيم أن يتخلص من (هاجر) وابنها ، أو أن يبتعد - بما فيه الكفاية- بهاجر وابنها كي يخلو الأمر ويخلص لإسحاق كما تريد (سارة) ، والذي نراه أو الذي يتسق مع طبائع الأمور ، أن إبراهيملم يفعل ذلك نزولا على رغبة (سارة) ،وإذا كان إبراهيم قد قبل واستجاب لطلب ورغبة ، فهو طلب ورغبة (هاجر) ، فأمر ترك العشيرة يخص ويمس (هاجر) أكثر مما يخص ويمس (سارة) ، أو أن ترك العشيرة أمر قد تداول وتناقش وتحاور فيه إبراهيم وهاجر - قبل تنفيذه - كثيرا ، وأن الاثنين - في النهاية - قد اتفقا ورضيا بذلك ، والذي يرجح ذلك عدة أمور :

أن (هاجر) بحكم أنها غريبة وطارئة على العشيرة لم تكن راغبة أن يتولى ابنها (إسماعيل) وراثة الزعامة عن إبراهيم ، فلم يكن لها إرب في ذلك ، بل نظن أنها قد ضاقت وبرمت بكل ما يتعلق بأمر تلك العشيرة ،

وهو أمر مفهوم بين أبناء حضارتين مختلفتين في كل شيء، زد على ذلك الأثر غير الطيب الذي تركه معاملة أفراد العشيرة لشخص غريب وطارئ عنهم ، أضف إلى ذلك غيرة (سا رة) من تلك التي شاركتها في قلب وعقل زوجها ،

بل غيرة بعض نساء العشيرة اللائي كن يطمعن أو يحلمن أن يحتللن مكانة (هاجر) من قلب إبراهيم،طالما هناك رغبة في الزواج ، وطالما هناك سعي في إيجاد من يرث الزعامة، فلم لا يتزوج إبراهيم من إحدى نساء العشيرة، وأظن أن العشيرة لن تخلو ممن تتناسب وتلك المهمة ، بل ترجحها وتؤيدها ، وأنها نقية الدم وتنتسب للعشيرة ، ولا أحدثك ماذا تفعل غيرة النساء في قطع وتمزيق جسور التفاهم والتواصل التي كان من الممكن أن تنشأ بين الناس وتزيل أثر الغربة والنفور . والذي يرجح موقف (هاجر) من العشيرة أنها تركت كل هذا وهربت غير نادمة ولا آسفة .

أما وقد وجد منافس على وراثة الزعامة ، فكل شيء وارد ومحتمل، والمنافسة كانت بين (إسماعيل) و (إسحاق) ولم تكن متوازنة ، نعم هما متوازنان من جهة الأب ، بل يزيد إسماعيل لأنه الأكبر والبكري، وهذا له شأن وله حقوق مصانة لا تمس بين العشائر والقبائل

حتى اليوم الحاضر، ولكنهما ليسا في منزلة واحدة من ناحية الأم ، فإسماعيل ابن (هاجر) الغريبة والطارئة على العشيرة ، وإسحاق ابن (سارة) التي تحمل كل عادات وتقاليد العشيرة ، وتحمل صفة خلوص الدم العشيري الذي أورثته إسحاق ، وأغلب أفراد العشيرة - بحكم الانتماء والتحيز - يميلون أو يرجحون كفة إسحاق في مسألة وراثة الزعامة . أما والأمر هكذا ، فشيء منطقي أن تتوقع (هاجر) الخطر على ابنها ، بل أنها شعرت وتوجست أن هناك نذر مؤامرة تحاك ضد ابنها ، وإن كانت ما تزال تجيش في السرائر والضمائر ، ولكنها حتما سيأتي يوم ستخرج إلى حيز التنفيذ والفعل .

إذن ينبغي إبعاد (إسماعيل) لا عن العشيرة أو إخراجه من مجال المنافسة بينه وبين إسحاق ،ولكن إبعاده عن مصدر الخطر وما قد يتعرض له مستقبلا ،ولم يكن كل هذا بعيدا عن بال إبراهيم ،ولا هو بالغافل عنه ، لقد دب الشقاق والخلاف وقد يتفاقم الأمر بين أبناء العشيرة الواحدة ، وقد حدث ذلك بين الرعاة الذين يتبعون إبراهيم وبين الذين يتبعون (لوط)

وكان الحل لحسم هذا الخلاف أو ما قد يترتب عنه أن افترق وانفصل (لوط) ومن معه بعيدا عن إبراهيم ومن معه ، وقد ذكرت التوراة هذا بالتفصيل " ولوط السائر مع أبرام كان له أيضا غنم وبقر وخيام ولم تحتملهما الأرض أن يسكنا معا .

إذ كانت أملاكهما كثيرة فلم يقدرا أن يسكنا معا . فحدثت مخاصمة بين رعاة مواشي أبرام ورعاة مواشي لوط وكان الكنعانيون والفرزيون حينئذ ساكنين في الأرض . فقال أبرام للوط لا تكن مخاصمة بيني وبينك وبين رعاتي ورعاتك لأننا نحن أخوان . أليست كل الأرض أمامك . اعتزل عني . إن ذهبت شمالا فأنا يمينا وإن يمينا فأنا شمالا .

فرفع لوط عينيه ورأى كل دائرة الأردن أن جميعها سقي قبلما أخرب الرب سدوم وعمورة كجنة الرب كأرض مصر حينما تجئ إلى صوغر . فاختار لوط لنفسه كل دائرة الأردن وارتحل لوط شرقا فاعتزل الواحد عن الآخر . أبرام سكن في أرض كنعان ولوط سكن في مدن الدائرة ونقل خيامه إلى سدوم "[1]

1 الإصحاح الثالث عشر

إذن الخلاف ليس بمستبعد ، والشقاق ليس بمستغرب ، وقد لا يستطيع - مستقبلا - إبراهيم أن يحسمه ، لا سيما وقد تقدم به السن ، ولم يعد سلطانه وقوته على العشيرة كما كان في الماضي ، وهو يرى الأمور سائرة في مصلحة (إسحاق) أكثر مما هي في مصلحة إسماعيل ، ليس هذا فحسب بل قد تضر بإسماعيل .

منذ أن أصبح لإبراهيم ابنان ، وهو يعلم أن ميراث زعامته أو نبوته سيتقاسمه هذان الابنان ، ولكن لن يجتمعا ، ولن تجمعهما أرض واحدة ، إذا كان الأصل مختلف ومتخالف،وهما الأمان (هاجر) و(سارة)، فطبيعي أن يأتي الابنان ليؤصلا ويزيدا هذا الخلاف ،أو قل ليس هناك ما يساعد ويشجع على إزالة هذا الخلاف وأن يحل محله اتفاق ، ويعلم إبراهيم كذلك أنه سيأخذ (هاجر) وابنها بعيدا عن العشيرة ، وليس العكس ، وهو بفعله هذا سيحافظ - ولا شك - على الابنين ، وكذلك سيحافظ على تماسك وبقاء العشيرة من أن ينالها تصدع أو تشقق . ولكن إلى أين ؟ ليس لإبراهيم في تقرير الأمور المصيرية الكلمة الأخيرة ، فلينظر ما يوحيه الله - عز وجل - له .

أفعال النبي :

نخطئ حينما نقيس أفعال وتصرفات الأنبياء والرسل بمقاييسنا ،أو نحكم على تلك الأفعال والتصرفات بما يحكمنا من عقل أو منطق ،لأن لو فعلنا ذلك فما الفرق بيننا وبينهم ؟

فتلك المقاييس وما يقول به العقل وما يشير به المنطق مستنبط من اطراد الوقائع في الحياة الإنسانية ، وعدم خروجها عن المألوف ، وعدم اندراجها في الشاذ من الطبائع والعادات ، وتلك المقاييس والعقل الذي يرفض ألا تتسق الخاتمة مع البداية ،وأن ترتبط العلة بالمعلول، وهذا ما يحكم الحياة الإنسانية ، أو يحدها بحدود ، الجميع متفق عليها ونازل وراض بحكمها .

ولكن الأنبياء والرسل لم يأتوا ليسيروا في نفس الطريق التي تسير فيه الإنسانية ، أو يحكموا نفس المقاييس والقوانين ،بل إنهم جاءوا ليشقوا للإنسانية طرقا وضروبا لم تخطر قط على بال البشرية ، وإن خطرت على بال أحد فسوف يقابل بالإنكار والجحود

ودائما تقف البشرية موقف المعارضة والمعاندة بل والمهاجمة والمقاتلة في وجه الأنبياء والرسل في بداية الرسالة أو النبوة ، فليس من المنطق والعقل البشري – حينئذ – أن يعبد إله واحد ، كيف يعبد إله واحد وأين تذهب أو ماذا يفعل ببقية الآلهة ؟ ولماذا نعبد إله واحدا طالما في الإمكان أن تعبد آلهة متعددة، فهنا مبدأ الاستكثار في كل شيء الذي يحكم حياة الإنسان ،ولماذا يعبد إله خفي لا تدركه الحواس طالما يمكن أن يعبد إله ظاهر وجلي للعيان ، ليس هذا فحسب بل في الإمكان صنع هذا الإله ، ويصنع على هوى ورغبة الإنسان ؟

هذا هو المنطق الذي كانت تسير عليه البشرية وتعتبره شيئا في غاية العقل ، وإلا لما سارت عليه وتمسكت به ألاف السنين . وحينما جاء الأنبياء ليبينوا اعوجاج هذا الأمر وفساده وبطلانه ، اتهموا بالجنون .

فنحن ننظر إلى فعل إبراهيم من ترك زوجته وابنه بجوار البيت منفردين ، وارتحاله ،أنه فعل وتصرف في غاية الغرابة ، وذلك للأسباب التالية :

المكان عبارة عن صحراء جرداء ، ليس به شيء من مقومات الحياة، فهو مكان لا يصلح للسكنى بأي صورة من الصور .

إن ما مع الزوجة والابن من ماء وطعام - وهو قليل - سوف يأتي وقت - قصير - وينفد ، ومعنى نفاد الزاد الموت .

هناك الأخطار المحدقة بالمرأة وابنها سواء كانت أخطار طبيعية أو بشرية .

لماذا لم يبق إبراهيم بجوار زوجته وابنه ؟ هل هناك مكان أهم من بيت الله المحرم لتتركه وتذهب إليه ؟ وهل يوجد من هم أولى بحمايتك ورعايتك من زوجتك وابنك ؟يقول إبراهيم ؛لله - عز وجل:

رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ إبراهيم: ٣٧

اختار إبراهيم من أسماء الله (رب) ، ومن ضمن معانيها : القيم والمدبر والمتعهد والرازق ، لأنه هذا ما هو في مسيس الحاجة إليه في هذا الحال والظرف ، وفي الآيتين السابقتين ذكر(رب)، بدون إضافة .

وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (36) إبراهيم: ٣٥ - ٣٦

أما في الآية التالية فقد ذكر : (ربنا) ، لأنه يريد أن تشمل القيومية والتدبير ذريته ولا تقتصر عليه فقط ، وذكر : (ربنا) في الآية الواحدة مرتين لمزيد من التضرع ، ويقول : (إني) هنا يقين وما يبسطه على النفس من اطمئنان وانقياد وتسليم .

أسكنت :قرار ونفذ ولا تردد فيه ،بقاء إلى الأبد،وليس موقوت بزمن ، فهم أصحاب هذا المكان، وهذا المكان هو مكانهم .

(من ذريتي):هولا ينظر إلى زوجته وابنه الآن ، وإنما ما يترتب وما ينتج عن ذلك ، فزوجته وابنه بداية أو رمز أو البذرة التي ستخرج الشجرة الطيبة المباركة من الأنبياء والرسل ،أو النواة التي سيدور ويطوف العالم كله حولها بعد ذلك ، تلك النواة أو المركز الذي سيصدر عنه شعاع النور والهداية ،

وتفيض عنه فيوض الطهر والقداسة ،فإن كان العقل لا يرى في هذا المكان عوامل أو أسباب لحفظ وصيانة الحياة ، فإن إبراهيم يرى – في هذا المكان دون غيره – عوامل وأسباب واستيفاء ليس لحفظ الحياة ، ولكن لحفظ الوجود البشري منزها عن الفساد .

(بواد غير ذي زرع):نوع من التضرع ، نوع تقديم تقرير حقيقي وواقعي ،وبحث حالة وشرح ظرف ، وهو في النهاية استرحام من نوع فريد يليق بإبراهيم ، ويتناسب ومقام الحديث مع الله .

وإن كان يثق – تمام الثقة – في رحمة ورعاية وحفظ الله .

(عند بيتك): تسليم وانقياد وتجرد من كل الأسباب البشرية التي من شأنها حفظ وصيانة الحياة ،فهما – زوجته وابنه – في ضيافة الرحمن ، فالطاعم والحافظ والكافل والراعي والحامي ، وكل تلك الأمور -التي يقوم بها المضيف لضيفه – هو الله .

وتتويجا لكل هذه الأمور ، وكأن إبراهيم يفيض على نفسه فيوضا من الاطمئنان والأمن والسلام ، أو كأنه يلقي بكل ظنونه وهواجسه ، فيصف البيت أنه (المحرم) فالمكان الوحيد في العالم الذي يتصف بها الوصف -دون غيره- هو هذا البيت ،فكل ما لا يجوز أن يفعل أو يحدث ممنوع منعا قاطعا بأمر من الله ، فهو مصان من كل الآفات والعيوب والفساد والنقص والباطل وكل صور الاعتداء سواء كانت على الإنسان أو الحيوان أو الطير وحتى على الجماد ، محرمة تحريما قاطعا ، ولا يوجد مكان آخر في العالم كله يتصف بهذا الوصف الفريد والعظيم سوى هذا المكان . وكأن لقدسية المكان وحرمته ، أشاع ونشر وفاض تلك القدسية على كل من يتواجد بهأو يتصل به من قريب أو بعيد ، مع أن البيت لم يبن بعد ، فكل تلك القداسة التي حلت بالمكان لمجرد أن الله قد حدد وبين لإبراهيم أن هذا هو مكان البيت ، فقد قال (عند) وهي : (أقصى نهايات القرب ولذلك لم تصغر) ،(يكون موضعا لغيره ولفظه نصب لأنه ظرف لغيره ، وهو في التقريب شبه اللزق)1

11 لسان العرب – ابن منظور – صفحة (3125)

وأظن أن حينما ترك إبراهيم زوجته وابنه أصبح في غاية وقمة الاطمئنان والراحة ، لأنها حتى وهما أمام بصره وتحت حمايته ، فهولا يستطيع أن يمنع المهالك والأخطار لا عن نفسه ولا عنهما ، أما وهما عند بيت الله فأصبحا في حفظه ورعاية وصيانة الله . وكأن لدى إنسان في جيبه وبجوار قلبه جوهرة غالية ، ومع ذلك لا يأمن عليها أن تضيع منه أو يغفل عنها أو تمتد يد سارق إليها ، ولكي يحفظها ويصونها يضعها في مكان آخر آمن ، ومصدر الاطمئنان له بعد ذلك أن الجوهرة الغالية النفيسة ليست معه ، ولأنها ليست معه فهي في أمان .

نفس المنطق الذي حدى بأم موسى أن تلقيه باليم حينما خافت عليه من بطش زبانية فرعون.

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ القصص: ٧

فاليم هنا- بإرادة الله ومشيئته - مصدر للحفظ والصيانة والحماية ،بعد أن كان يمثل الموت والهلاك والخطر .

إذن قام إبراهيم - ؛- بنقل زوجته وابنه من مكان احتمالات الخطر والهلاك واردة ومحتملة ، بل ومؤكدة ، وهل نستبعد أن يكون إبراهيم قد أوجس خيفة أن هناك من عشيرته المتعصبين والمتشددين من يضمر شرا بهاجر وابنها ، وإن لم يكن في حياته فبعد مماته ؟

والمشاعر التي كانت تضمرها (سارة) لهاجر وابنها لم تكن الوحيدة التي تضمرها وأحيانا تعلنها ، فلا شك أن هناك الكثيرات والكثيرين يتفقون معها في ذلك ، حتى ولو مجاملة ومسايرة لها .

لماذا عاد إبراهيم ولم يبق بجوار البيت ؟

أولا لا مبرر لوجود إبراهيم بجوار البيت بعد أن ترك زوجته وابنه ، فماذا سيوفر لهما ، فالحماية والحفظ والرعاية تولاها الله ، ووجوده أو مجرد تردده هو شك في حماية الله لهما ، وكما عهدنا في إبراهيم ، أن في كل أموره يسلمها إلى الله تسليما مطلقا ، بدون تفكير أو إعمال عقله .

إذا بقى بجوار البيت فهناك احتمال أن تتبعه عشيرته ، وهذا هو الشيء الطبيعي والمنطقي أن العشيرة تكون حيث يكون زعيمها ، وهو بهذا ينقل الخطر إلى (هاجر) وابنها، وليس هذا بغريب ولا عجيب على تلك العشيرة ، ألم يأتمر أبناء تلك العشيرة بواحد منهم ، وهم أخوة يوسف على أمر أيسر مما كان يمثله (إسماعيل) ، لمجرد أن (يعقوب)الأب يحب (يوسف) الابن؟

اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ يوسف: ٩

وإبراهيم مشغول الفكر بزوجته وابنه، وعلاقةعشيرته بهما حاضرا ومستقبلا ، وأن حسم كل المشاكل هو في إبعادهما عن عين ويد العشيرة ، ربما يكون أتاه الوحي من الله محددا ومعينا مكان البيت ، ولكن لم يؤمر ببنائه ، وهناك زمن بين تحديد مكان البيت وبين بنائه ، وهنا ظهر لإبراهيم حل وانفراج لهذا الأمر ، فماذا سيفعل إبراهيم بعد تحديد المكان ؟ فأخذ زوجته وابنه ووضعهما عند مكان البيت ،من ناحية أن هذا المكان أصبح خالص الملكية لإبراهيم فلا أحد ينازعه في ذلك إن أتى مستقبلا لبناء البيت أو يشاركه شرف البناء، ومن ناحية أخرى أن هذا حق لابنه إسماعيل منفردا عوضا عن انفصاله أو فصله عن العشيرة ،

وعن تلك الامتيازات التي كان سيتمتع بها إن بقى في العشيرة ، وتركه مكان البيت ورحيله عنه وإبقاء زوجته وإسماعيل هو قطع وحسم لأن تدعي العشيرة أن هذا المكان هو امتداد لنفوذها ، فأي مكان يوجد فيه إبراهيم ويستقر فيه هو بالتبعية من حق العشيرة ، لذلك تعمد إبراهيم أن يترك مكان البيت ويعود إليه في فترات متقطعة، ولم يبن البيت إلا بعد أن شب إسماعيل عن الطوق وأمكن أن يساعده في ذلك ، وكان من الممكن أن يبني إبراهيم البيت قبل ذلك ، أو يشرك معه أحد من عشيرته ، وبناء البيت في حاجة إلى عدد من المساعدين والمعاونين ، وكان في إمكان إبراهيم أن يطلب المعاونة ، وكان الكثيرون سيلبون هذا الطلب ،وأظن أن المكان بدأ يتوافد عليه النذر اليسير من الناس ، ولأمر ما لم يطلب إبراهيم مساعدة أحد في بناء البيت ، بل إن سياق الآية الكريمة ، يصرح أن إبراهيم يرفع القواعد من البيت ، ويعطف بعد ذلك (وإسماعيل) وكأن شرف البناء منصرف أصلا وأساسا لإبراهيم ، وبعد ذلك ينتقل الشرف لإسماعيل من خلال مساعدته لأبيه

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ البقرة: ١٢٧

الغريب والعجيب أن إبراهيم - ؛- لم يقم بأي جهد أو محاولة من أي نوع للتقريب بين إسماعيل والعشيرة ، فلم يسع - مثلا- أن يزوج إسماعيل من إحدى بنات العشيرة ولم يختر له زوجه ، كما فعل ذلك مع إسحاق ، فلم يكن حريصا أن يزوج إسحاق من بنات العشيرة فحسب بل حرص أن تكون تلك الزوجة من المقربين والمتصلين اتصالا مباشرا من البيت الإبراهيمي وأوصى بذلك وأكد عليه " وشاخ إبراهيم وتقدم في الأيام. وبارك الرب إبراهيم في كل شيء . وقال إبراهيم لعبده كبير بيته المستولى على كل ما كان له . ضع يدك تحت فخذي . فأستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض أن لا تأخذ زوجة لأبني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم .بل إلى أرضي وإلى عشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني إسحاق .فقال له العبد . ربما لا تشاء المرأة أن تتبعني إلى هذه الأرض . هل أرجع بابنك إلى الأرض التي خرجت منها . فقال له إبراهيم احترز من أن ترجع بابني إلى هناك . الرب إله السماء الذي أخذني من بيت أبي ومن أرض ميلادي والذي كلمني والذي أقسم لي قائلا لنسلك أعطي هذه الأرض هو يرسل ملاكه أمامك فتأخذ زوجة لابني من هناك وإن لم تشأ المرأة أن تتبعك تبرأت من حلفي هذا ، أما ابني فلا ترجع به إلى هناك . فوضع العبد يده تحت فخذ إبراهيم مولاه وحلف له على هذا الأمر.

ثم أخذ العبد عشرة جمال من جمال مولاه ومضى وجميع خيرات مولاه في يده فقام وذهب إلى أرام النهرين إلة مدينة ناحور . "1

ويقع الاختيار على "رفقة التيولدت لبتوئيل ابن ملكة امرأة ناحور أخي إبراهيم " 2

ويحضرها العبد بعد موافقة أهلها وموافقتها إلى إسحاق ليتخذها زوجة "إذ كان ساكنا في أرض الجنوب "3

على هذا فقد تزوج إسحاق من ابنة عمه والتي كانت تعيش في موطن إبراهيم لم تفارقه .وتلك كانت وصية إبراهيم والتي أخذ عهدا على عبده ، وحذر عبده - إن رفضت الفتاة القدوم معه - ألا يرجع أو يعود إسحاق إلى موطن إبراهيم .

---

1 الإصحاح الرابع والعشرون
2 نفس المصدر
3 نفس المصدر

فلماذا لم يفعل إبراهيم مع إسماعيل ما فعله مع إسحاق ؟

نفس المنطق الذي حكم تصرفات إبراهيم - ؛- من إسحاق هو نفسه المنطق الذي حكم تصرفاته من إسماعيل .فقد كان يحاول أن يدمج إسحاق في العشيرة وأن يربط الفرع بالأصل ، أو لا يباعد بين الفروع والجذور ، فلا ينبغي لإسحاق أن يتزوج بغير امرأة لا تنتمي إلى العشيرة ليس هذا فحسب ، بل تربت ونمت في حضانة العشيرة ،فبالرغم أن المسافات تباعدت بينه وبين جذور العشيرة ، ومرت سنون طوالا بدون أن يحدث لقاء بينه وبين من بقى من عشيرته ، إلا أن موطنه لم يهن عليه ولم تهن عليه من بقى من عشيرته ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ، أنه لا يريد أن يذهب ما فعله في موطنه أدراج الرياح ، من مقدمات وإرهاصات الدعوة ، ونظن أن الأثر الذي تركه إبراهيم في موطنه ليس من السهل محوه وإزالته ، فإن عز على إبراهيم أن يرعى هذا الأثر ، فيقم بذلك إسحاق ، وإن عز على إسحاق فليكن أولاده ، فإخوالهم ، إما أن يتولوا رعاية ما تركه إبراهيم ، أو أن الصلة والعلاقة ما زالت مربوطة بينهم وبين موطنهم الأصلي ، فربما يعودون مرة أخرى ، وما يدريك ربما القوم يقبلون اليوم ما رفضوه الأمس وأول أمس ، وتلك أقدار أو موافقات واتفاقات تصاحب الدعوات السماوية ، مثلما حدث مع دعوة محمد - خ -

فمع العلم أن أهل المدينة ، قد آمنوا بمحمد وبايعوه للمنافحة والمدافعة عنه وعن الدعوة ، إلا أنه كان هناك علاقة نسب بينه وبين أهل المدينة ، ففيها أخواله ، وربما أهل المدينة لم ينسوا هذا الأمر .

أما مع إسماعيل فالأمر مختلف ، وخير للعشيرة وخير لإسماعيل أن يظل بعيدا عنها ، وأن تظل بعيدة عنه ، ومنذ أن أنجب إبراهيم إسماعيل وبعده إسحاق ، وهو يعلم أن ميراث النبوة سيتفرق بين فرعين مختلفين ، وإن فرقتهما الأرومة والأصل ، إلا أن المصدر الواحد سيجمعهما ، بل الخير كل الخير للدعوة أن يكونا متباعدين مكانا ، لأن هذا يحقق أكبر وأوسع انتشارا للدعوة ، ويتسق مع وعد الله- عز وجل – لإبراهيم أن يكون أبا لجمهور من الأمم ، وهذا لا يتحقق ونسل إبراهيم محصور في عشيرة أو قبيلة واحدة .

" أما أنا فهو ذا عهدي بيني وبينك وتكون أبا لجمهور من الأمم ، فلا يدعى اسمك بعد أبرام بل يكون اسمك إبراهيم . لأني أجعلك أبا لجمهور من الأمم . وأثمرك كثيرا جدا وأجعلك أمما . وملوك منك يخرجون وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدا أبديا لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك ، وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا . وأكون إلاههم . "1

وملمح هام من ملامح شخصية إبراهيم - ؛- أنه أممي ، فهو لا يهتم بهداية قوم بعينهم ، ودعوته في جوهرها لا تحدها زمان أو مكان ، وإنما هي منطلقة في سماء الإنسانية كالشعاع الحر الذي لا يقيده قيد أو يحده حد .

1الإصحاح السابع عش

الفصل الثالث

إبراهيم في مصر .

لا التاريخ ولا التوراة يحدثاننا عن حقيقة ما حدث لإبراهيم في مصر ، وحديث التوراة حديث في غاية السذاجة والتهافت ، ولا يستقيم لا مع حقيقة شخصية إبراهيم ، ولا يساير منطق الأحداث في مصر ولا يتفق مع الواقع ، فهي تصور المصريين وبالأخص الحاكم وكأنه شيخ منسر ، ينشر ويبث عيونه على أبواب ومداخل مصر ، لا ليعرفوا حقيقة الداخل والخارج ، ولكن ليقفوا على درجة جمال النساء ، فإذا صادف ودخلت امرأة جميلة ، فعلى الفور يتم التبليغ عنها واقتيادها إلى الحاكم لتكون تحت أمره ، وكأن مصر خلت من النساء ، أو كأن الحاكم أعرض وزهد في جميع نساء البلد ، فهو ينتظر على أحرمن الجمر أن تسوق الأقدار له أمراة جميلة ، أو كأن حاكم بلد له هذا القدر من الخطورة والأهمية ليس له من شغل أو هم إلا أن يقارن بين النساء الجميلات ليختار ما يشاء ، المهم أن هذا الأمر ذاع وأنتشر، وأصبح معروفا للقاصي والداني ، ومع ذلك فالنساء – الجميلات – لم يمتنعن عن الذهاب إلى مصر !

ولن أذكر حديث التوراة عن إبراهيم - ؛- وهو في مصر ، فهذا الحديث لا يليق بنبي عظيم له قدره وجلاله ، ولا يتسق مع شخصيته التي تحدت الحاكم الطاغي في موطنه ، ولم يعبأ بموقف وتهديد أبيه له ، ولا استنكار قومه ، ولم تجعله يهادن أو يتسامح أويستسلم ، ولم يتراجع عن موقفه والثبات على مبدأه إلى أن ألقي في النار ، تصور التوراة تلك الشخصية بتصرفات وسلوك يغاير ما عرف عنها من قوة وصلابة وجرأة ومواجهة وشجاعة ، وكأنك أمام شخصيتين مختلفتين تمام الاختلاف ليس بينهما من تشابه إلا الاسم فقط ، فهل إبراهيم الذي وصل مصر غير إبراهيم الذي نعرفه ؟ لدرجة أن تصرفاته وأفعاله تحولت إلى النقيض ؟

أم أن شخصية إبراهيم - التي عهدناها - قد أصابها الكثير من التبديل والتغيير ؟

" حدث جدب في الأرض فانتقل إبراهيم إلى مصر وذلك في عهد ملوك الرعاة وهم العماليق ويسميهم الرومان ((هكسوس))

فأظهر أن التي معه أخته ، وأراد الملك أخذها زوجة له فأرى في نومه أنها ذات بعل فعاتب إبراهيم وأعطاه أموالا وجواري وعبيد ، وعاد إبراهيم كما بدأ وأنا استبعد ما نصته التوراة في ذلك وأحذر كل مؤمن أن يصدق ما جاء بها من ذلك فإنها توهم أن إبراهيم كان يستغل وضاءة وجه زوجته وجمالها ((إن كانت في ذلك الوقت على حال جمال)) استغلالا شائنا معيبا . فهي تذكر انه اتفق معها على ان تقول أنه أخي وهو يقول أختى ، ليكون له خير من ذلك . وأنا أعيذ إبراهيم من هذا النقص الشائن"1

لذلك لن نعتمد كثيرا على حديث التوراة عن إبراهيم في مصر ، ولا كل ما يتعلق بالسيدة (هاجر) وابنها (إسماعيل) ، فهناك أغراض ومقاصد وجهت الكاتبين والمسجلين للتوراة ليس من بين تلك المقاصد الحقأو تحري الإنصاف ، وقد بينا في أحد فصول الكتاب بعضا من تلك المقاصد

ولكن هل عند خروج إبراهيم من (أور) موطنه الأصلي ، كان هدف الوصول إلى مصر واضحا جليا في ذهنه ، أم هي مجرد الصدفة ، وأن الأحوال والظروف التي تعرض لها هي التي دفعته وساقته أن يدخل مصر ؟

1قصص الأنبياء – د .عبد الوهاب النجار – (84- 87)

وهل كانت مصر مجرد مرحلة أو محطة - كغيرها - من المحطات المتعددة والمراحل الكثيرة التي تعرضت لها رحلته ؟

وهل كان في الإمكان أو في الاحتمال أن تخلو رحلة إبراهيم من الذهاب إلى مصر ؟ وأن يتجاوزها إبراهيم إلى غيرها من بلدان ؟

لا نبالغ إذا قلنا أن أول وجهة فكر فيها إبراهيم - ؛- بعد خروجه من موطنه هي مصر للأسباب الأتية :

أن الزعامة الحضارية في ذلك الوقت كان يتقاسمها حضارة بلاد الرافدين وحضارة مصر ، والشيء المنطقي إذا انتقل شخص من مركز حضاري سيتجه على الفور إلى المركز الحضاري المقابل له .

لا شك أن إبراهيم قد عرف الكثير عن الحضارة المصرية إما من خلال الإطلاع والقراءة أو من خلال السماع ممن ذهبوا إلى مصر وعادوا مرة أخرى ، ونهم وشغف إبراهيم بالعلم والمعرفة قد يدفعه لمعرفة المزيد عن تلك الحضارة .

الحضارة المصرية ليست غريبة ولا منفصلة انفصالا تاما عن حضارة بلاد الرافدين ، فهناك أوجه تشابه وأوجة تلاقي وتأثير وتأثر بين الاثنتين ، فلست هناك جفوة ولا انفصال بين العالمين .

جوهر الحضارة المصرية لا يجعلها تقف من أي دعوة دينية موقف الرفض أو المجابهة أو العداء ، أو أي دعوة أو رسالة ترفع نظرها إلى السماء باحثة ومتأملة في مصير وحقيقة الوجود والحياة ، بل هناك ترحيب واحتضان لمثل تلك الرسالات أو الدعوات ، فالتوحيد سمة بارزة في تلك الحضارة " فإذا بحثنا عن جذور رسالة التوحيد ونزولها على البشرية نجد أول رسالة للتوحيد نزلت في أرض مصر كنانة الله في أرضه ، يقول المؤرخ بتري في كتابه ((ضمير الحضارة)) : "فشعب مصر كان أول شعب آمن بالله ، أول من آمن بأن هناك إلها واحدا للجميع .آمن بهذه الحقيقة قبل مولد الزمان وقبل إرسال الرسل والأنبياء فكان أول من نادى بالتوحيد ، فذلك التوحيد والإيمان بالخالق هو الذي بنى حضارة مصر التي خلدت بخلود العقيدة .

عبروا عن الإله الواحد ((بأتوم)) القوة الخفية الكامنة التي تهب الحياة وتسير الكون عرفوا سر الوجود فأمنوا بالحياة والروح والبعث والحساب والعالم الآخر "[1]

---

[1] د . سيد إبراهيم – مجلة الهلال المصرية – فبراير 1982 (31) – مقال بعنوان : (المصريون القدماء وبناء الكعبة)

وأصبح مبدأ التوحيد سمة أصيلة لدى المصريين وملمح رئيسي إلى الدرجة أن الكثيرين أرجعوا ما عليه المصريين من توحيد إلى رسالة سماوية ، لأن هذا المبدأ أو تلك العقيدة سبق فيه المصريون جميع شعوب الأرض والأمم ، ولم يوجد في أي أمة من أمم هذا الزمان ، وهو – التوحيد – نوع من أرقى وأجل وأقدس ما وصلت إليه الإنسانية في مجال تأملها أوتفكرها " لقد أجمع كثير من كبار علماء اللاهوت على أن تلك الرسالة بما حوته من تعاليم وتشاريع وتفاصيل لبناء المجتمع الإنساني لابد وأن تكون رسالة سماوية سبقت العقل البشري " 1

الدين أو العقيدة لدى المصريين ليس مجرد عنصر من عناصر وجودهم ولكنه العنصر الرئيسي والأساسي التي تدور حياتهم عليه ، فهو النواة التي تكونت حضارتهم عليه ، وطبع الدين بطابعه الأصيل هذا المجتمع في كل مناحيه " لقد حمل رسالة التوحيد خلال عصور مصر القديمة والفرعونية أكثر من رسول بعد طغيان كل فترة من فترات انحلال العقيدة

1المصدر السابق (31)

وتعدد الألهة فبعد رسالة التوحيد الأولى التي خرجت من ((أون)) واستمرت ما يقربمن الفي سنة كما ورد في وثائق المؤرخ شنسللو (تاريخ العالم من آدم إلى دقليديانوس) ثم خضعت بعد ذلك لمختلف المذاهب الدينية فتعددت آلهة العبادة ومعبوداتها حتى قامت ثورة التوحيد التي جمعت بين توحيد العقيدة وتوحيد الواديفي عهد ما قبل الأسرات " 1

لكل تلك الأسباب تعتبر مصر لإبراهيم - ؛- هدف الأهداف وغاية الغايات ، فلم يكن البحث عن المرعى أو الأمان هو الهاجس الأول لإبراهيم، فقد توافر هذان العنصران في أكثر من مكان بعد خروج إبراهيم من موطنه، ومع ذلك لم يمكث ولم يستقر ، وواصل الترحال ، إنه لا يبحث عن مكان يحتضن دعوته أو عن إناس يرعوا ويعضدوا رسالته ، لقد وصل إلى قناعة واقتناع أن دعوته متجاوزة زمنه ، وأن العالم حوله غير مهيئ أو مستعد لاستقبال أنوار الرسالة أو التعاطي مع الدعوة ، وأدرك أن مهمته هي مهمة تأسيس للعالم العقائدى للبشرية ، لذلك كان جل اهتمام إبراهيم لذريته ومن سيأتي بعده ،لا يوجد في العالم حوله من هو على الدين الحق سواه هو ، فهو عالم متكامل للعقيدة الحق والدين الصحيح ، وربما يكون تفسير (أمة):

1المصدر السابق (31- 32)

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ النحل: ١٢٠

أنه قد تجمع لإبراهيممن الإيمان الصحيح والدين الحق والعلم والطاعة ما لا يتجمع إلا في أمة من الناس ، فلم يكن إبراهيم مجرد نبي فقط أو فرد وإنما كان عالما ، بكل ما يحوي العالم من تنوع وثراء وكثرة واستقلالية عمن حوله ، فهو ليس في حاجة إلى من حوله ، كيف يكون في حاجة ، وهو مصدر ومنبع تلك الحاجات " والمراد بقوله - سبحانه:-

(إن إبراهيم كان أمة ..) أي : كان عنده من الخير ماكان عند أمة ، أي جماعة كثيرة من الناس ، وهذا التفسير مروي عن ابن عباس .

وقال مجاهد:سمي - ؛- أمة لانفراده بالإيمان في وقته مدة ما .

وفي صحيح البخاري أنه قال لزوجته سارة : ليس على الأرض اليوم مؤمن غيري وغيرك " 1

1التفسير الوسيط – د .محمد سيد طنطاوي – المجلد الثامن – صفحة (257)

وهو إذ سمع عن المصريين وعن تطورهم العقائدي ، وأن عقيدتهم تلك لا نظير ولا مثيل لها في بقية أمم وشعوب العالم يريد أن يراهم رؤية العين يتعايش معهم .

يرى حقيقة تلك العقيدة ، وهل هي متلبسة بحياة هؤلاء البشر أم هي مجرد طقوس وشعائر فحسب ، هل هي متغلغلة إلى العمق والجوهر ، أم هي مجرد طبقة رقيقة على السطح لا أثر ولا تأثير لها ؟ ثم ما طبيعة هؤلاء البشر الذين وصلوا إلى التوحيد ، وأن هناك حياة أخرى ، وأن الأمر ليس أمر فناء ولكنه بقاء وخلود ، وبذلك تلمسوا عالم الروح ، فكل تلك الأمور حينما كاشف بها إبراهيم قومه ، انكروا وجحدوا بها ، ليس هذا فحسب بل أرادوا أن يتخلصوا منه ليخرصوا أي صوت للحقيقة .

" كان المصريون الأقدمون يؤمنون بالآله الواحد ، وكان من معتقداتهم أن للروح في العالم الآخر ميزانا يقدر لها الحسنات والسيئات وكانت كلمة الله هي القوة التي تفعل ما تريد .

ولكنها لم تكن دعوة نبوة ورسالة ، ولعلها جاءت في زمن لم تتهيأ فيه النفوس للعلم بالوحدانية ونبذ الشرك وتعدد الأرباب وكانت في جملتها دعوة كهان يسترون ما يعلمون ولا يبوحون للناس بأسرار الديانة "1

وإبراهيم لم يدخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فأظن أن الكثير كان في انتظار قدومه ، وأن أنباء قرب وصوله كانت تتواتر بها الأخبار ، فأولا هناك العلاقات الوثيقة بين بلاد الرافددين ومصر ،سواء كانت تجارية أو ثقافية وفكرية ، فثم مهاجرون من وإلى القطرين ، فلم تكن العشيرة الإبراهيمة هي أول عشيرة تهاجر ، فقد سبقتها عشائر إن لم تكن من موطن إبراهيم فمن أماكن متفرقة من العراق ، وأظن أن هؤلاء حملوا معهم فيما حملوا أخبارا وأنباء عن إبراهيم والديانة الجديدة التي يدعو إليها ،وزعماء تلك العشائر لن يتخلفوا عن استقبال إبراهيم والترحيب به وإكرام وفادته ، ولا ننسى أن تلك العشائر المهاجرة من العراق قد عقدت صداقات وعلاقات مع أهل مصر ، والمحطات التجارية التي تتوقف عندها القوافل للتزود بالطعام والماء تعتبر ناقلات أخبار ، وقد تواترت الأخبار أن إبراهيم في طريقه إلى مصر .

1إبراهيم أبو الأنبياء – عباس محمود العقاد – صفحة (8)

ولا نعرف بالدقة المدة التي قضاها إبراهيم في مصر ، فلا التوراة ولا التاريخ يحدثنا عن ملامح تلك الإقامة ، بل ان التاريخ يصمت صمتًا مطلقا على وجود إبراهيم في مصر ، " فإنه لم يعثر حتى الآن على أي دليل سواء كان كتابة أو تقشا أو حتى نقش يقبل التفسير أو في نصوص تقبل - حتى -التأويل يمكن أن يشير إلى النبي وقصته سواء في آثار وادي النيل أو آثار وادي الرافدين على كثرة ما اكتشف فيهما من تفاصيل 1 "

ولكن نستطيع أن نحكم المنطق والعقل وطبائع الأحوال والظروف ، وأن فترة إقامة إبراهيم لم تطل ، ولكن بالرغم من ذلك فقد كانت حافلة وثرية ، وأطلع إبراهيم على الكثير من العقيدة المصرية ، وتقابل مع رجال دين وكهنة وتحدث وتحاور وتناقش معهم وحدث تقارب فكري وعقائدي بينهم ، لا سيما وأن هناك أرضا مشتركة بينهما ، وأن هناك تلاق فكري وعقائدي على أي مستوى من المستويات ، ولذلك توثقت العلاقات بينه وبينهم ، واحتل إبراهيم - من خلال صفاته وشخصيته - بين المصريين الذين تقابل وتحاور وتناقش معهم مكانة جليلة تتناسب وشخصيته ،

1إبراهيم ذلك التاريخ المجهول – د . محمود سيد القمني – صفحة (16)

ووالذي يرجح ذلك زواجة بمصرية ، والزواج في مثل تلك الأحوال هو نوع من التحالفأو نوع من توثيق العلاقات ، أو تعبير عن المكانة والمنزلة التي شغلها إبراهيم في قلوب من قابلهم من المصريين ،وزواج إبراهيم - ؛- من السيدة هاجر لا يمكن إلا أن يتم في هذا السياق ، فهي ليست جارية ، وإنما هي سليلة بيوت كريمة كأن تكون ابنة رجل من رجال الدين أو كاهن من الكهنة ، أو وجيه من وجهاء المصريين ، وتلك الأصناف من الناس التي يتوقع أن يقيم إبراهيم معهم آصرة صداقة ، أو علاقة تفاهم من أي نوع ما ، وأن إبراهيم لم يتزوجها لمجرد الزواج وإلا فلماذا لم يتزوج على مدار رحلته الطويلة منذ أن خرج من موطنه ،إن كان إرب الزواج يشغل فكره ، أو يستحوذ على اهتمامه ؟ وإن تزوج زعيم العشيرة فلماذا يتزوج من جارية ، ولماذا تكون تلك الجارية جارية زوجته ، وهل من طبائع النساء أن تدفع زوجة جارية من جواريها إلى زوجها ولا تتوقع أن تحمل تلك الجارية وتلد وتنتقل الزعامة إلى ابنها أو حتى تشاركها المنزلة والمكانة بين نساء العشيرة ،أو تقاسمها حب وحدب زوجها ، هدف التوراة وغرضها واضح من السيدة (هاجر) وابنها (إسماعيل) .

ولكن ماذا يفيد زواج إبراهيم من مصرية الدعوة الإبراهيمة ؟

زواج إبراهيم من مصرية لن يفيد الدعوة الإبراهيمة ،ولكن سيفيد مستقبل الدعوة الإبراهيمة .

فقد وثق علاقته بهؤلاء القوم الذين يتجهون وجهة صحيحة نحوالتوحيد، فمثل هؤلاء القوم قد يكونون خير معين وأفضل مساعد للدعوة الإبراهيمية ، فإن لم تجذبهم ما في الدعوة من قيم ومبادئ ،قد تعطفهم عليها علاقة ووشيجة المصاهرة ، وتلك من الأقدار التي تقدر والأسباب التي تسبب لعوامل نجاح الدعوات الدينية ، وقد حدث ذلك مع الدعوة المحمدية ، فقد أصهر جد النبي (عبد المطلب) لقوم من المدينة المنورة ، وكانت تلك الآصرة من ضمن الأسباب التي عطفت ومالت بأهل المدينة إلى نصرة محمد – خ – في وقت تخلى الجميع القريب والقاصي عن النبي ،وكان وقوف أخوال النبي إلى جواره ومؤازرة الدعوة أثرا كبيرا في نجاح الدعوة ، وحينما انتقل محمد إلى المدينة لم يشعر بجفوة ولا غربة ، وإنما كان بين أهله وذوويه .

العشيرة الإبراهيمة لا جذور ولا أساس لها ،فقد انفصلت عن جذورها منذ أن ترك إبراهيم العراق ،إذن ليكن هناك أساس ،وليستنبت جذر آخر يكون أساسا لفروع كثيرة ومتعددة ليكتب للدعوة الإبراهيمة البقاء والدوام والاستمرار ،وخير الأراضي التي تجود بالجذر الطيب هي تلك الأرض التي انبثقت منها أول دعوة للتوحيد في العالم ، وكأن إبراهيم – ؛– قد أدرك – منذ البداية – أن هناك سيكون فرعان لدعوته ، هذا الفرع الذي يمت للمصرين ، وشاء أن يكون هناك فرع يمت للعشيرة الإبراهيمة ، يرجع إلى موطنه القديم ، فهذا المكان قد شهد مولد الدعوة الإبراهيمة ، لذلك يجب أن يتعهد بالرعاية والاهتمام، نعم لقد جحدوا دعوة إبراهيم وناصروه العداء واللدد والخصومة ،ولكن هؤلاء الأباء ،وما أدراك على ما سيكون عليه الأبناء ؟

لذلك أصر إبراهيم أن يذهب خادمه إلى العراق ، إلى موطن إبراهيم ، ومعه الهدايا والمهر ، ويخطب لابنه (إسحاق) فتاة لعم من أعمامه أو لخال من أخواله ،إذن ربط إبراهيم دعوته بأهم مركزين حضارين في الشرق- العراق ومصر - كله برباطين وثيقين ،

وكلا المركزين شهدا أوعاصرا عقيدة التوحيد ،الأولى بدأها هو ،والثانية بدئت قبله ، فهناك مركزان للدعوة ، إن أنطفأت - لظروف ما - دعوة التوحيد في مركز فلن تنطفأ في المركز الثاني ، ولعل المركزين يشعان معا أنوار التوحيد ، وتعم العالم كلمة التوحيد .

لقد تزوج إبراهيم السيدة هاجر على كبر ، وإذا انجب منها لن يطول به العمر كي يتم تربية وتعليم ابنه من (هاجر) والذي سيقوم بذلك هي (هاجر) وما ظنك بتربية امرأة يشهد قومها بالتوحيد ، أو يقوم الدين في حياتهم بدور أساسي ، بل أن الدين هو الأساس الوحيد - ولا أساس غيره - لحياتهم ، ولا شك أن ابنه من (هاجر) ستنطبع شخصيته بهذا الطابع ، وأنه سيأخذ من أمه الكثير مما ورثته هي عن قومها ، حتى لو أمد الله في عمر إبراهيم فأنه لا يستطيع أن ينقطع لابنه من (هاجر) فهناك أمور كثيرة تشغله وتصرفه عن ذلك ، إذن على إبراهيم أن يشعر أن ابنه في يد أمينه من ناحية العقيدة ، وهو لا يريد لابنه أن يكون محافظا على دينه وعقيدته فحسب ،

بل يريد أن يكون امتدادا له ، وحاملا لمشعل التوحيد بعده ، والمدة التي قضاها إبراهيم بين المصريين جعلته على قناعة ، أن هؤلاء القوم أو من هؤلاء القوم من سيرعى الدعوة الإبراهيمية ، لذلك فإن زواج إبراهيم من (هاجر) من موافقات واتفاقات قدرية ، وإن لم يتفق ويوافق القدر من دعوة عقائدية هي الأساس لكل الدعوات الدينية بعد ذلك ، أو هي العقيدة والركيزة للعالم العقائدى للبشر ، فلأي شيء آخر يوافق ويتفق القدر ؟!

ولم تطل مدة إقامة إبراهيم بمصر ،إما لأن الغرض من وجوده بمصر قد قضي وعرف وأطلع وفهم وخبر إبراهيم كل ما كان يريده ، فلا مبرر من وجوده بمصر ،أو لأنه شعر أن الدعوة في حاجة إلى استكشاف آفاق أخرى ، أو أن خاتمة الدعوة لن تكون هنا ، أو أن البذرة أو النواة التي سيضعها لتكون الشجرة العقائدية للعالم لن تكون في تلك الأرض ،يشعر أنها ستزاحم وتقاسم ،وقد تحارب ويقضى عليها ، هنا في مصر سلطان الكهان ورجال الدين يعلو ولا يعلى عليه ، وهنا – أيضا – المركز الحاكم يتحكم في كل شيء ، حتى عقائد الناس ،نعم هناك أرض مشتركة وأوجه تشابه بين الدعوة الإبراهيمة وما يعتقده المصريون ،

وهذا ما يخشاه إبراهيم ، فمع هذا التشابة ، ليست الدعوة الإبراهيمية هي ما يعتقده المصريون ، وليس ما يعتقده المصريون هي الدعوة الإبراهيمة ،فالخير كل الخير أن يظل ما يعتقده المصريون بعيدا عن الدعوة الإبراهيمة ، وأن تظل الدعوة الإبراهيمة بعيدة عما يعتقده المصريون ، بل قد يخشى على الدعوة الإبراهيمة من وجودها في مصر ، لا سيما إذا طال وامتد هذا الوجود ، فالمكان وأهل المكان وما يعتقدونه كل هذا له سلطان وأثر كبير على الغريب أو على الطارئ على هذا المكان .

أو لأن الوضع غير مستقر في مصر ، فبعض الباحثين والمؤرخين يرجحون أن الفترة التي ذهب إبراهيم فيها إلى مصر كانت واقعة تحت حكم ((الهكسوس)) وهناك أراء ترجح أنهم قبائل أو عشائر قادمة من وسط آسيا أو سيناء أو فلسطين ، وأرء ترجح أنهم في الأصل من العراق ، وربما هذا هو سبب الحفاوة التي قوبل بها إبراهيم في مصر "وكانت مصر عند هجرة إبراهيم ثم هجرة يعقوب وآله خاضعة للرعاة المكروهين الذين تسلطوا على مصر أكثر من خمسمائة سنة ،ومن ثم كان الترحيب بإبراهيم ثم الترحيب بيعقوب واقطاع قومهم أرضا في البلاد " 1

1إبراهيم أبو الأنبياء – عباس محمود العقاد – صفحة (8)

ولكن أليس الترحيب والحفاوة من قبل الهكسوس بإبراهيم من شأنه أن يباعد بين إبراهيم وأهل البلاد الأصليين ؟

وجود الهكسوس في مصر لم يحدث تغييرا كبيرا في حياتهم ، لاسيما الناحية العقائدية للمصريين ، فالهكسوس حاولوا أن يندمجوا في المصريين ، وأنيتعبدوا آلهتهم ويتخذوا محاريب ومعابد المصريين أماكن لعبادتهم "من ذرية إبراهيم يوسف وقد كان له صهر في كهان المحاريب المصرية ومنهم موسى وله علم بمدارس مصر وأسرارها ، وغير معقول أن يكون إبراهيم قد خرج من أرض الكلدان إلى مصر ولم يخطر له أن يسائل حكماءها في أمر العقيدة ، وقدكانت في الوجه البحري - حيث تنزل القبائل الوافدة – محاريب كثيرة يتقرب فيها ملوك الرعاة ويشتركون في شعائرها مع رؤساء الدين "[1]

فربما أن زعماء عشائرأو قبائل الهكسوس لم تحتف بإبراهيم إلا بسبب إحتفاء المصريين به ، فهذا كان دأبهم ، أنهم يقدرون ويحترمون كل من يحترمه المصريون بدءابالأشخاص صعودا بالآلهة ، فهم بدو أو رعاة ، ليس أبناء حضارة مستقرة وراسخة ، وتمثل الحياة المصرية بكل سماتها وملامحها غاية الرقي والسمو لهم ،

1المصدر السابق (201)

ولولا الضعف والتفكك الذي طال الدولة المصرية في ذلك الوقت ما استطاعوا أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه من السيطرة على أجزاء من الدولة المصرية ، فقد كان غاية ما تطمح إليه تلك القبائل أن يسمح لهم أن يرعوا في تلك المناطق الخصبة في الوجه البحري أو قريبا من حدود مصر الشرقية . وربما الحالة العامة من عدم الإستقرار ، والتنازع بين القبائل والعشائر المغيرة من ناحية ، وبينها وبين أصحاب البلاد الأصليين من ناحية أخرى ، من ضمن الأسباب التي جعلت مدة بقاء إبراهيم في مصر موقوتة ، فليس لدى إبراهيم مطمح أومطمع ، تجعله ينخرطفي مثل هذا النزاع

" وسقطت دولة مصر وغلبتها قبائل الرعاة ثم بقيت على خوف وحذر من الشرق ومن فراعنة الجنوب الذين احتفظوا بعروشهم في الصعيد ، وليس أشقى من حياة العشائر الصغيرة بين هذه القلاقل وهذه المنازعات التي يشترك فيها المغامرون من أبناء العشائر الكبرى ، وهم يزحفون للسيطرة على الدول كلما سنحت لهم الفرصة العاجلة ، ولا يقنعون بالتحول من بقعة إلى بقعة طلبا للمرعى والأمان " 1

1المصدر السابق (183)

وربما قصر المدة التي قضاها إبراهيم – ؛- في مصر ، والحالة من عدم الإستقرار العام فالمؤخون يعتبرون أن تلك المدة التي سيطر فيها الهكسوس على أجزاء من الدولة المصرية وكانت مصر قبلها وخلالها في غاية الضعف والتفكك ، يعتبرون تلك الفترة فترة منقطعة من سياق التاريخ المصري لأنها فترة في غاية الغموض والاضطراب لذلك لم يعثر على أي دليل من أي نوع يشير إلى وجود إبراهيم – ؛- في مصر ،سواء كان مدونا ومكتوبا على أوراق البردى أو أو منقوشا ومرسوما على الحجر ، ولكن تظل الحقيقة قائمة ، سواء عثرنا على شواهد وأدلة ، تومئ إلى الحقيقة ، أو لم نعثر ، فالحقائق قائمة بنفسها ، دالة بذاتها ، لا سيما إذا كان الأمر متعلق بعقيدة ، بل عقيدة العقائد ، ليس هذا فحسب ، ومتعلقة – أيضا- بنبي ، بل بأبي الأنبياء ، وجذور عقيدته وديانته ضاربة في عمق كل الكتب السماوية ، ومذكور بكل تقدير وإجلال وتعظيم في تلك الكتب ، وها هو صرح العالم العقائدي ، راسخ في الضمائر والأفئدة والعقول ، فيما مضى من أزمنه ، وفي الحاضر ، وما سيأتي من أيام ، وشهادة الضمائر والأفئدة والعقول أقوى وأنصع وأدل من شواهد الحواس ؛

لأن تلك تستمد خبراتها من الواقع ، وتلك الحواس قد تضل ، والواقع قد يزيف ، بينما الضمائر لا يمكن أن يجوز عليها ما يجوز على الحواس ؛ لأنها تستمد مددها من عالم الحقيقة ، وهذا لا يمكن أن يزيف أو يبدل أو يغير .

الأثر المصري في الدعوة الإبراهيمية :

لا توجد دعوة دينية جديدة تبدأ من فراغ ،فلابد أن تتأمل ما قبلها وتحاور ما بجوارها . تتأمل ما قبلها:لتستفيد من تلك المواقف التي سبقت وحدثت ، لتوفر الكثير من الوقت والجهد ،وتصل إلى هدفها وغايتها من أقرب طريق وفي أقصر مدة ، فالدعوة الدينية تبدأ من حيث انتهت الدعوة السابقة عليها ، لأن الدعوات كلها عبارة عن حلقات في سلسلة واحدة ، وتلك الحلقات متصلة ومتوالية ،ولا ينسخ ولا يلغي اللاحق منها السابق :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا النساء: ١٣٦

فجميع الدعوات لم يتغير هدفها ولا مقصدها ، وجميعها تؤكد وترسخ هذا الهدف وهذا المقصد ، وجميع الأنبياء والرسل ، لهم دور محدد - لا يتغير - يؤدونه ، وطريقة وسيلة التلقي واحدة ، وهي الوحي من الله :

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (163) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (164) رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (165) النساء: ١٦٣ - ١٦٥

ومن خلال تأمل الدعوة اللاحقة للدعوة السابقة ، تقوم بعملية نقد وكشف وفضح لما حدث من انحراف وتنكب عن الطريق السوي لأصحاب الدعوة ، كيلا تتكرر نفس تلك المواقف ، فهذ ا الأسلوب - النقد والكشف - يخلص بالعظة والعبرة:

أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ البقرة: ١٠٨

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (77) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (79) تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (80) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (81)المائدة: ٧٧ - ٨١

ولكن الدعوة الإبراهيمية لم يكن لها دعوة سابقة عليها ، فهي البداية ، وهي الأساس الأول لما جاء بعدها ، وهي لم تقصر في البحث عن بداية خارجها ، ولكن نظرا لتميز تلك الدعوة ، وأنها أرادت أن تختط طريقا وسبيلا جديدا ، تحولت لتكون هي البداية وهي الفاتحة ، وهي السابقة وكل الدعوات بعد ذلك هي اللاحقة لها ، فهي لا تنسب لأي دعوة ولكن الدعوات تنسب إليها ، وهي لم تقتبس ولم تتناظر مع أي دعوة ،

ولكن الدعوات هي التي اقتبست وتناظرت معها ، فهي الأولى زمانا ، وهي الأولى دعوة وعقيدة ، وقد وضح القرآن هذا الأمر ، حينما أراد أهل الكتاب - نصارى ويهود- أن يقتلعوا هذا الأساس من مكانه، ويدعوا انتساب إبراهيم- ؛- إليهم ، ويقصروا الفضل والتميز على أنفسهم وينفونه عن غيرهم ، فبدلا من أن ينتسبوا إلى إبراهيم ، ينسبونه إليهم ،وفرق شاسع بين الاثنين ، فإذا أعلنوا أنهم ينتسبون إلى إبراهيم ، فيترتب على ذلك أن يتبعوا ملة إبراهيم بكل ما فيها من توحيد الله وتنزيه واستسلام مطلق لله ، وهذا يتطابق تمام المطابقة مع الدين الإسلامي الذي جاء به محمد خ ، وهذا ما لا يريدونه ،وإذا أعلنوا أن إبراهيم ينتسب إليهم ، فهذا يعني - في زعمهم - أنهم على الحق ، ويترتب على ذلك أن ما دونهم على الباطل ، ويجب على الآخرين أن يتبعوهم ، بما فيهم محمد خ ومن تبعه من المسلمين ، إلا أن القرآن فضح أغراضهم وأبطل مسعاهم هذا .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (66) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (68) آل عمران: ٦٥ – ٦٨

"والمعنى :لا يسوغ لكم يا معشر اليهود والنصارى أن تجادلوا في دين إبراهيم وشريعته فيدعى بعضكم أنه كان على الديانة اليهودية ، ويدعى البعض الآخر أنه كان على الديانة النصرانية ، فإن التوراة والإنجيل ما نزلا إلا من بعده بأزمان فكيف يكون يهوديا يدين بالتوراة مع أنها مانزلت إلا من بعده ، أو كيف يكون نصرانيا يدين بالإنجيل مع أنه ما نزل إلا من بعده بآلاف السنين ؟ إن هذه المحاجة منكم في شأن إبراهيم ظاهرة البطلان واضحة الفساد " 1

1التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د .محمد سيد طنطاوي – المجلد الثاني – صفحة (135)

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (66) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (68) آل عمران: ٦٥ – 68

بل أنبياء الدعوة الإبراهيمية لا ينسبون لا إلى اليهود ولا إلى النصاري، فاليهود والنصارى تابعون وأولئك متبعون:

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ البقرة: ١٤٠

وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ البقرة:١٢٤

فقد جعله الله متقدما وفاتحا عهد عقيدة التوحيد ، وكل الأنبياء والرسل أتوا بعده مقتدين به ومهتدين على طريقه وسبيله " جاعلك من جعل بمعنى صير . والإمام : القدوة الذي يؤتم به في أقواله وأفعاله .والمراد بالإمامة هنا : الرسالة والنبوة ، فإنهما أكمل أنواع الإمامة ، والرسول أكمل أفراد هذا النوع ، وقد كان إبراهيم - ؛- رسولا يقتدي به الناس في أصول الدين ومكارم الأخلاق .

وقال : (إني جاعلك للناس إماما) ولم يقل : إني جاعلك للناس رسولا، ليكون ذلك دالا على أن رسالته تنفع الأمة المرسل إليها بطريق التبليغ ، وتنفع غيرهم من الأمم بطريق الاقتداء ، فإن إبراهيم - ؛- قد رحل إلى آفاق كثيرة ، فانتقل من بلاد الكلدان إلى العراق ، وإلى الشام، وإلى الحجاز وإلى مصر وكان في جميع منازله أسوة حسنة لغيره " 1

1تفسير الوسيط – د . محمد سيد طنطاوي – المجلد الأول (266)

والدور والمهمة التي قام بها إبراهيم لا يستطيع فرد واحد أن يقوم بها ، فهي – المهمة – تتجاوز قدرة وطاقة فرد ،وفي حاجة إلى أمة تتعاون فيما بينها لتقوم وتنهض بهذا الدور والشيء الأكمل أنه أدى تلك المهمة بدون أن تكون له سابقة أو أن يكون الطريق قد مهده أحدمن قبل ليسير عليه:

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ النحل: ١٢٠

" والمراد بقوله – سبحانه – (إن إبراهيم كان أمة واحدة) أي :كان عنده من الخير ما كان عند أمة ، أي جماعة كثيرة من الناس ، وهذا التفسير مروي عن ابن عباس

ويصح أن يكون المراد بقوله : (إن إبراهيم كان أمة) أي : كان إماما يقتدى به في وجوه الطاعات .وفي ألوان الخيرات ،وفي الأعمال الصالحات ، وفي إرشاد الناس إلى أنواع الخير "1

1**المصدر السابق (257)**

وتحاور ما بجوارها : ينفرد إبراهيم - ؛- بصفة عن بقية الأنبياء والرسل ، وهو طوافه بين أرجاء العالم في وقته ،وتنقله وترحله بين الكثير من العقائد والمذاهب والملل ، وهو لم يكن يفعل ذلك إلا ليرضى نهمه وشغفه للمعرفة والبحث والدراسة ،معرفة وبحث ودراسة تلك العقائد والمذاهب والملل ،

وأحوال الناس والأمم التي مكث بين أبنائها حينا من الزمن ، إنه باحث عن الحقيقة ، بل قل حقيقة الحقائق ، حقيقة هذا الكون والحكمة الكامنة فيه ،ومصير البشرية ، ليس هذا فحسب وما صلاح البشرية وماالسبيل وما الطريق الذي يجب أن تسلكله وتسير فيه لتهدى إلى الحق ؟أسئلة كثيرة كانت تثور بذهنه ، وربما يجد إجاباتها عند جماعة من الجماعات أو عند أمة من الأمم فيتبعها أو يسير عليها ، أو يجد ما يؤكد ويرسخ ما وصل إليه ، أو يعرض ما لديه على الآخرين ليهتدوا معه إذا كان على الهدى ،فالدعوة الدينية لا تحبس ولا تعزل نفسها عما يوجد بجوارها من عقائد ومذهب ،ولا تقفل باب الحوار والنقاش مع الآخر.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ

آل عمران: ٦٤

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ النساء: ٦١

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ المائدة: 104

فنرجح أن مصر كانت محطة ومرحلة مهمة من مراحل رحلة إبراهيم - ؛ - بل نخال أنها أهم مرحلة من المراحل التي مرت بها الدعوة ، من الناحية الإجتماعية ،ومن الناحية العقائدية ، وأنه أطلع وعرف ما لدى القوم من عقائد وأنه تحاور وتناقش ، وعرض عليهم ما لديه ، وعرضوا عليه ما لديهم ، وكان ما لديه جدير بالتبجيل والتوقير ، وكان ما لديهم جدير بالتأمل والتمحيص ، وأهم ما كان لديهم هذا التصور الكامل والمتكامل للحياة الإنسانية قبل الموت وبعد الموت ، وهذا الأسلوب السامي والراقي في حياتهم والذي كان يرجع في المقام الأول إلى أن العقيدة احتلت مكانها ومقامها لديهم ، وأن حياتهم ارتقت وسمت برقي وسمو تلك العقيدة

ومسألة أن تنفتح الدعوة الإبراهيمة على عقيدة هؤلاء القوم كانت مقدمة على تزواج العشيرة من المصريين ، وإن مبدأ أن تظل العشيرة محتفظة بدمائها نقية خالصة من أن تختلط بقوم آخرين ، هذا المبدأ في حاجة إلى نظر ، فكل الشواهد التي تم مشاهدتها في مصر خلال فترة إقامة العشيرة الإبراهيمة ، تدل على أن مبررات انغلاق العشيرة على نفسها ورفضها أن يمتزج بها أحد أو أن تمتزج بأحد قد زالت ، فليس ثم خطر يهدد تماسك العشيرة ، ولن ينالها ضعة أو خسارة ، بل قد يجعها ذلك أكثر تماسكا - وأيضا - قوة ، وإن لم تذدد العشيرة رقيا وسموا ، فلن سبب لها هذاالأمر شعورا بالضعة أو المهانة ، وإن لم تكسب فلن يصيبها - على الأقل - غبن من أى نوع ،

ودعنا نركب مركب الشطط ، ونفترض أن إبراهيم - ؛- نشأت علاقات وثيقة بينه وبين عدد من العائلات في مصر ، وأنه دعاهم إلى دينه، وأنهم أمنوا به وبما جاء به ، وسواء تلك العائلات هم الذين عرضوا عليه أن يتزوج من إحدى فتياتهم أو هو الذي طلب ، فإن الزواج قد حدث ، وخرج إبراهيم من مصر وقد أقام وأنشأ علاقة من أقدس العلاقات بين البشر.

الوجود المصري في الجنوب :

كان لزواج إبراهيم – من هاجر – خير وبركة على الدعوة الإبراهيمية، أو كان خيرا وبركة على هاجر وابنها ، أو كان على الاثنين معا ، فقد ارتبط تأسيس البيت الحرام – وهو أكبر إنجاز للدعوة الإبراهيمة وفي تاريخ العقائد قاطبة – بهاجر وابنها ،ووجود الاثنين بدأ ببداية البيت الحرام ، فالاثنان متلازمان ومرتبطان ببعضهما ،ولكن تلك كانت البداية ، وكان لابد وأن يكون لها ديمومة واستمرار ، وأغلب البدايات تكون ضعيفة وواهنة ، أو غريبة وغير مألوفة ، وهي – البداية - في حاجة إلي حضانة ترعاها وتحافظ عليها ،نعم إن جميع من تصادف وجوده عند البيت قد استظل بظل وبركة البيت ، ولكن كان ولابد من وجود من يحافظ على رمزية البيت ، أو على الأقل يمنع أن يصطبغ البيت بأي صبغة أخرى ، أو تحول وتبدل رسالته ، كان لابد من وجود قوم يشعرون في قرارة نفوسهم لا أنهم أصحاب البيت أو المهيمنون عليه ، ولكن الواجب يحتم عليهم ويدعوهم إلى رعايته والحفاظ عليه ،وهذا الواجب المقدس ، قد توارثه الأبناء عن الأباء والأجداد ، ليس هذا فحسب ولكن الآخرين يعترفون ويقرون لهم بهذا الحق، ولا ينكرونه عليهم بل يسلمون لهم به ،

ولا ينازعونهم في أمر البيت ، هؤلاء القوم لابد أن يكون لهم صفة ، علاقة تربطهم بالبيت ،ليست علاقة واحدة بل أواصر ووشائج متعددة ، منها ما هو عقائدي ومنها ما يرتبط بالأصل والنسب ومنها ما هو تاريخي .بحيث إذا انقطعت علاقة أو امحت أوضعفت لسبب من الأسباب تبقي بقية العلائق والوشائج ، وإذا ما قدر لأحد أن ينكر عليهم علاقة أو رابطة ، فلن يستطيع أن ينكر أو يقطع بقية العلائق.

ومن الموافقات والاتفاقات القدرية التي صاحبت الدعوة الإبراهيمية أنه كان هناك وجود مصري قبل مجيء إبراهيم إلى الجنوب ، هل كان إبراهيم - ؛- يعلم بهذا التواجد ؟

وإذا كان يعلم بوجوده هل كان يتوقع أن هذا التواجد هوالذي سيكون بمثابة الحاضنة للدعوة في مراحلها الأولى ؟

وأن وجود البيت ووجود هاجر المصرية وابنها إسماعيل هو الذي سيستدعي هذا التواجد ؟

الإجابة بالنفي أو الاثبات في حاجة إلى أدلة وبراهين ، وإن كان المسار الذي سارت فيه الدعوة بعد ذلك يدل على أنه لم يكن هناك مكان أصلح من هذا المكان الذي اختاره إبراهيم ، وإن وجود البيت استدعى كل العوامل والعناصر لتكون معضدة ومقوية لمكان ومكانة البيت ، وأولها وأهمها التواجد المصري " بالنسبة لجزيرة العرب فقد وجدنا من القرائن ما يشير إلى وجود مصري واضح فيها ، أيا كان سببه سواء كان نوعا من الهجرة أو نوعا من الجاليات الكبيرة أو الحاميات المتقدمة أو وجود بدأ عسكريا وانتهى باستقرار دائم "1

وهذا ليس بغريب ، ففي فترات قوة الإمبراطورية المصرية كان هناك مد حضاري وعسكري وصل إلى العراق ، فليس بمستبعد أن هذا المد العسكري قد وصل إلى الجنوب أو هجرات لمجوعات وجماعات اختلفت أسبابها وكذلك دوافعها . وتشتهر قبيلتان بتواجدهم في الجنوب وقريبا من البيت " وعرفنا من الإخباريين المسلمين أنه في الجوار كانت هناك قبيلتان من العرب العاربة أومن بقايا العاربة البائدة هما (جرهم) أو (عماليق)"2

1إبراهيم ذلك التاريخ المجهول – د . محمود سيدالقمني – (89)
2المصدر السابق (85)

وأن قبيلة من تلك القبيلتين نزحت من اليمن تحت ضغط مجاعة أو قحط واتجهت نحو الشمال واستقرت بجوار الوادي الذي بني به البيت وتزوج إسماعيل بإحدى فتياتها " ما جاء عند المسعودي في قوله (تفرق العماليق بعد ان أقحط الشجر واليمن ، ويمم بعضهم نحو تهامة وأشرفوا على الوادي الذي تقيم فيه هاجر وولدها قرب الماء ، وتزوج إسماعيل منهم ثم تركها وتزوج جرهمية " 1

وكما رفع إبراهيم قواعد البيت من الحجارة ، كانت هناك قواعد - بمرور الوقوت - من نوع آخر ترسى وترسخ حول البيت ، علاقات نسب ومصاهرة وتحالفات ترشدها وتصفيها وتنقيها الدعوة الإبراهيمة ، يقوي ويؤازر بعضها بعضا ، وتزيدها الأيام والأحداث متانة وقوة ،علاقة من نوع نادر توافرت في نسج لحمتها وسداها عناصر فريدة في نوعها فإسماعيل يحمل ميراث النبوة ، وهو مؤسس البيت مع أبيه إبراهيم - ؛- والسيدة هاجر مصرية زوجة نبي من ناحية ، وأم نبي من ناحية أخرى ، ومحملة بخلاصة حضارة قوم تسري العقيدة الدينية في عروقهم مسرى الدم ، لا تدرك مدى أهمية وضرورة وخطورة العقيدة الدينية في حياة الإنسان فحسب ،

1المصدر السابق (90)

بل تدرك وتعي أن العقيدة الدينية هي الحياة والحياة هي العقيدة الدينية ، وزواجها من إبراهيم - ؛-زاد هذا الإدراك والوعي عمقا وشمولا ، وجعلها - في الوقت نفسه - قيمة على رعاية وتربيةإسماعيل - ؛- أسرة منذ البداية حملت برسالة مقدسة منذ أن أؤسس البيت ، وارتبطت برباط وثيق بالبيت ،لابد أن تكون في وئام وتناغم مع من حولها، لاتحكمها علاقة الجوار فحسب ، أو علاقة تبادل منافع ، ولكن تحكمها علاقة الأصل والنسب والمصاهرة والدم ، والتاريخ يحدثنا على أن القبائل التي كانت بجوار البيت أو استظلت واشتملت بالبيت كانت في الأصل مصرية ، وأن إسماعيل تزوج مصرية ، حتى الزوجة الثانية لإسماعيل - كما يحدثنا التاريخ - كانت مصرية ، وهنا التاريخ يتوافق مع المنطق ومع الطبيعة ، فلم يحدث تنازع أو اختلاف - منذ البداية - بين أهل البيت وأصحاب الماء - الذي تفجر تحت خد إسماعيل - وبين القبائل الطارئةأو الغريبة عن المكان ، في بيئة كثيرا ما يحدث فيها التنازع أوالأختلاف على مورد ماء ، أو مكان يتوافر فيه العشب والكلأ ، وإنما كان هناك نوع من التسامح والأريحية والاتفاق والوفاق بين أصحاب المكان - هاجر وابنها - والقبائل الطارئة ،وهذ لا يكون إلا إذا كان هناك إلتقاء في الأصل وتطابق في الأرومة ، وتطابق واتفاق على تقديس البيت الحرام .

"وإذا كان (أورسيوس) يقول دون أن يخشى اعتراضا : أن هاجر كانت عملاقة ، وأن ولدها إسماعيل قد تزوج عملاقة ، وقام المسعودي يجمع من الموروث القديم ما يؤكد أن إسماعيل قد تزوج عملاقة وجرهمية ، إضافة إلى ما وجدناه عن ابن هشام وهو يجمع من المأثورات العربية السالفة ما يوطئ به للسيرة النبوية فيقول:(إن إسماعيل نبي مرسل أرسله الله إلى إخواله من جرهم وإلى العماليق)، ثم إصراره بعد ذلك على أن أخوال إسماعيل من الجراهمة في قوله : (وبنو إسماعيل إخوالهم من جرهم) وقوله في موضع آخر : (ثم نشر الله ولد إسماعيل بمكة وأخوالهم من جرهم ولاة البيت والحكام لا ينازعهم ولد إسماعيل في ذلك لخئولتهم وقرابتهم) ، فإن الأمر كله يفضى إلى أن أم إسماعيل (هاجر) المعروف أنها مصرية الأصل هي أيضا (جرهمية) وهي عند (أورسيوس) عملاقة ويصادق جميعه على صدق فرضنا أن كلمة(جرهم) مأخوذة من الأصل (مجر) الذي يعني (مصر) ، ولا يكون هناك مندوحة من التسليم – في ضوء ماجمعناه من شواهد- بأن الجراهم هم العمالقة هم المصريون ، وأن العملقة كانت من صفة المصريين أو الجراهمة لتفسر عظمتهم في الإنشاء والإعمار ، ويمكن لكون هاجر أم إسماعيل

وكذلك زوجته من العمالقة الجراهمة المصريين ، ولعل اسم (هاجر) يشير إلى معنى المصرية فالهاء أداة التعريف في العربية الشمالية وفي العبرية و(جر) أو (مجر) هي مصر ، وربما أسقط حرف الميم بالتخفيف مع مرور الزمن ومن هنا يفهم أيضا لماذا لم يعترض أحد على (أورسيوس) من أهل زمانه وأولهم أستاذه (أوغسطس) ، فلا ريب أن الأمر حينذاك لم يكن مثيرا للاعتراض وهو بالطبع لن يكون كذلك إلا إذا كان لدى أهل زمانه مأثور هو من المسلمات والمعروف ومن نوافل المعلوم الذي اكتسب قدسية التقادم ، يشير إلى ما وصلنا إليه وهو أن العمالقة مصريون . ومن هنا أيضا نفهم لماذا ظل العبريون طوال حوالي ألف عام من تاريخهم يعبدون ربهم في خيمة أوجعلوا من هذه الخيمة بيتا ومسكنا أسموها (خيمة الاجتماع) ولم يكن ذلك إلا لأنهم أهل بداوة وتنقل ، بينما تمكن فرعهم الإسماعيلي المتصل بالجراهمة العمالقة أن يقيم للرب بناء معماريا بدلا من الخيمة البدوية في زمن مبكر ((ومن يعرف البناء في زمن خيموي))[1]

ولتوافرعنصرا الأمن بجوار البيت والماء في هذا المكان البعيد المنزوي عن العالم أصبح قبلة العالمين استجابة لدعوة إبراهيم – ؛.

1المصدر السابق (91)

الفصل الرابع
الاتجاه جنوبا

لماذا اتجه إبراهيم -؛- جنوبا بعد خروجه من مصر ؟

وهل وجوده في مصر هو الذي حدد هذا الاتجاه ؟

وهل كان هناك بديل آخر عن الاتجاه إلى الجنوب ؟

حينما يقوم الشخص برحلة لابد وأن يكون معه دليل ، يقوده في دروب ومسالك تلك الرحلة ،لأن محال أن يضرب الإنسان في فجاج الأرض بدون معرفة سابقة ، لأن الضلال هنا وارد ومحتمل ، بل هو لازم ، وما يترتب عليه من موت وهلاك .

والدليل إما أن يكون شخصا قد سبق له السير في تلك الطرق والدروب، وعرفها وخبرها وعرف مهالكها وأخطارها ليتجنبها ، وعرف - كذلك - مأمنها ليسلكها ويلتزمها وإما أن يكون الدليل هو الطريق نفسه ، حينما يكون الطريق مطروقا ، معروفا للجميع ومن كثرة الذاهبين والراجعين ودوام هذا واستمراره أصبح الطريق آمنا ومذللا ، ويختار ويفضل بدون إعمال فكر أو البحث عن بدائل له ،

ويكون الطريق بتلك المواصفات إذا كان يؤدي إلى غاية يحمدها الناس ويحبونها ، لأن تلك الغاية تقضي حاجة من حوائجهم سواء كانت مادية أومعنوية .

الجنوب تاريخيا:(منفى اختياري)

لا شيء مؤكد تاريخيا ، لا سيما إذا كانت أحداث الفترة المؤرخة تمتد إلى عمق التاريخ ، فكل ما أمامنا صروح من الاحتمالات والافتراضات ، ليست من الحقائق والمسلمات في شيء ، وطموح الإنساني العلمي - دائما - يدفعه أن يبحث عن الحقائق ، ولا يهتم أو يعتد بما دون ذلك ، فإذا وضعنا أمامه فرضا أو احتمالا ، لا يقتنع بذلك ، وهو على حق ، فلماذا يرضى بالاحتمال والفرض ، والبديل عن ذلك الحقيقة ؟!

هنا في مجال البحث الحقيقة عزيزة ، ليس هذا فحسب بل تعدت ذلك بمراحل ، ولنا أن نقول الحقيقة - هنا - مستحيلة ، فإذا كان في الوقت الحاضر الذي نعيشه - الآن - ونكاد نرى الأحداث بأم أعيننا ونسمعها مسجلة بوسائل شتى ، أو تروى لنا من مصادر موثوق بها ، مع كل ذلك ، قد تعز معرفة الحقيقة ، حقيقة ما يحدث أو ما حدث ، فما بالك بحقيقة أحداث حدثت منذ الآف السنين ،وفي أماكن متعددة وكثيرة ، وأماكن لم يعد لها ذكر أورسم لا على الخريطة ولا على الأرض .

وحينما نقول احتمالات وافتراضات ، فليس هناك قرائن ولا دلائل ، حتى إن وجدت القرائن والدلائل فهي جد واهية وهشة ، قد لا تصمد كثيرا أمام النقد والتمحيص ، وفي النهاية نحن مخيرون أن نرفض تلك الاحتمالات والافتراضات ، والبديل -هنا - الجهل المطبق والظلام الدامس ، ونضرب صفحا عن البحث والدراسة ،أو نتبنى الناحية الأخرى لنخرج بثمرة المعرفة، نعم ، هي معرفة تحوم حول الحقيقة ولا تقع عليها ، تومئ إليها ولا تمسكها، ولكن مع ذلك توجد إفادة ، العظة والعبرة التي سنخرج بها ، ومن قال إن الحقيقة وحدها هي التي تفيد الإنسان ، فأكثر ما تعلمت الإنسانية تعلمت من الخيالات والتصورات والاحتمالات والافتراضات ، بل هي لم تصل إلى الحقيقة إلابعد أن عاشت ردحا مع الخيال والتصورات ، بل إن الجزء الأكبر والمقدار الأعظم من تاريخ الإنسانية لم تكن الحقيقة قد عرفت طريقها إلى العقول ، ولا تلمست سبلها إلى القلوب ،وتلك طبيعة مرحلة لها أسبابها ومبرراتها ، بل إن الإنسانية ، وبعد أن وصلت إلى عصر العلم والمعرفة والثقة المطلقة بالعقل ، مازال جزء كبير من العقل الإنساني يسيطر عليه الخيال والتصورات وهو قبول أشياء لا سند لها من الحقيقة او المنطق ، وأظن أن هذا جزء متخلف أومتبقى من العصور الماضية .

البداية من مصر ، لماذا ؟

من أوليات الحضارات التي عرفتها الإنسانية ، وهي حضارة قويمة تسير على قدمين ، أشبعت طموحات الإنسانية من الجسد والروح ، وجمعت إلى عبقريتها ، عبقرية البقاء والدوام ، متحدية الزوال والفناء ، فتوسلت إلى التسجيل ،كتابة على الورق ، ونحتا على الحجر ، ولم يكتب لها أن تخلد شواهدها ، إلا لأنها شغلت طويلا بحقيقة هذا الوجود ،وهُديت إلى السبيل الذي يصل بها إلى الحقيقة الكبرى ، لذلك كانت تلك الحضارة على موعد واتفاق ووفاق مع أعظم الديانات التي عرفتها البشرية ، ويشاء القدر الا تظل أنوار الحقيقة حبيسة داخل حدودها وإنما تسطع وتنتقل إلى أماكن أخرى لأسباب كثيرة " أما خروج رسالات العقيدة من مصر فقد بدأت لأول مرة عند قيام ثورة عام 2280 ق0م في أعقاب الأسرة السادسة ،وقد أطلق عليها المؤرخون اسم ثورة الرعاع وعصر الاضمحلال ،وقد بدأت الثورة كما وصفتها برديات ((الحكيم أيبور)) كأي ثورة شيوعية بالثورة على الدين وإغلاق المعابد ومنع الشعائر الدينية

وحرق المقدسات وتشريد الكهنة والعلماء ومطاردة رجال الدين وأتباعهم ، ويصفأيبور كيف هرب أهل منف إلى الصحراء الشرقية وجنوب الوادي وعبروا البحر إلى الجزيرة العربية

حيث أطلق عليهم اسم بني مناف أو أهل منف كما أطلق عليهم الفراعنة اسمجرهم وهوالاسم الذي عرفوا به فيما بعدومعناه باللغة المصرية القديمة مهاجرو مصر وهم القبائل الذين نسب إليهم بناء الكعبة"1

وهناك رأي آخر يقول بالصراع بين كهنة مصر " وكثيرا ما حدثت في وادي النيل حدثان كبرى ، تليق بكبر المجتمع وتتفق مع حجمه وأشكاله الاجتماعية ، لعل أهمها الصراع الذي نشا بين كهان مدينة (منف) المقدسة وكهانمدينة (عين شمس) وانتهت بانتصار كهنة عين شمس واستيلاء كهنتها على عرش البلاد ،مع نهاية الأسرة الرابعة الحاكمة في الدولة القديمة ، والذي تبعه بالضرورة قرار كهنة منف وأتباع الدين المنفي في هجرة كبرى ،

---

1 مقال بعنوان (المصــريون القدماء وبناء الكعبة) د .ســيد كريم – مجلة الهلال – العدد : فبراير ســنة (1982)

ربما اتجهت إلى جزيرة العرب ، إضافة إلى ما يعلمه التاريخ عن هجرات مثيلة اتجهت إلى شرقي المتوسط ،وعبر بعضها البحر إلى ميسينا وكريت ، وربما لم تكن هجرات بالمعنى الدقيق للكلمة وإنما نوع من الهروب الكبير ، وبالنسبة لجزيرة العرب فقد وجدنا من القرائن ما يشير إلى وجود مصري واضح فيها ، أيا كان سببه سواء كان نوعا من الهجرة أونوعا من الجاليات الكبيرة أو الحاميات المتقدمة ، أووجود بدأ عسكريا وانتهى باستقرار دائم "1

نلاحظ في الحدثين ، حدث الثورة ،وحدث الصراع بين الكهنة ، أن الملجأ والملاذ للفارين أو الهاربين هو الجنوب ، لم يتجهوا للشمال حيث البحر ، ولا الغرب ولا الشرق حيث الصحراء ، وإنما إلى الجنوب ، فأغلب حركات الصراع كان مركزا في الوجه البحري أو قريبا منه ، ويعتبر الجنوب امتداد طبيعي لمصر ، وهناك خيارات : البر أو البحر الأحمر ، وشيء طبيعي أن يتم عبور البحر ويتحول إلى شبه الجزيرة العربية ، وهناك يجذب الجنوب تلك المجموعات الطارئة لتوافر أسباب الإقامة والاستقرار .

---

1 إبراهيم ذلك المجهول – د . سيد القمني –صفحة – (89)

ولكن ماذا في الجنوب ليمثل قوة جذب لتلك المجموعات المهاجرة ، والتي قطعت تلك المسافة الطويلة غير مكترثة بما يقابلها من أخطار وصعوبات ؟

القرآن الكريم يحدثنا عن حضارة عظيمة نشأت باليمن جنوب شبه الجزيرة العربية ، وإن هذا المكان من العالم توافرت له الكثير من أسباب الترف والرفاهية على كافة المستويات .

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ سبأ: ١٥ - ١٧

(سبأ) المراد الحي أو القبيلة وكانوا يسكنون بمأرب باليمن ، على مسيرة ثلاثة أيام من صنعاء ، وكانت أرضهم مخصبة ذات بساتين وأشجار متنوعة ، وزاد خيرهم ونعميهم بعد أن أقاموا سدا ليأخذوا من من مياه الأمطار على قدر حاجتهم ، وكان هذا السد يعرف بسد مأرب ، ولكنهم لم يشكروا الله – تعالى – على هذه النعم فسلبها – سبحانه – منهم .

قال ابن كثير : كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها ، وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس منهم وكانوا في نعمة وغبطة ، وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ، ويشكروه بتوحيده فكانوا كذلك ما شاء الله ، ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد .

أخرج الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال : إن رجلا سأل رسول الله – خ – عن سبأ : ما هو ؟ رجل أم امرأة أم أرض ؟ فقال رسول الله : بل هورجل ، كان له عشرة أولاد ، سكن اليمن منهم ستة ،وهم: مذحج ، وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير .وسكن الشام منهم أربعة وهم : لخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان .."[1]

ومن شأن الحضارات الإنسانية إنها حينما تبلغ الذروة تفيض على ما حولها ويحدث حالة من الامتداد متخطية حدودها ويزحف نطاقها الحضاري إلى أماكن بعيدة ،وتعتبر هي المركز أو النواة لها ، فالطريق الممتدة منها وإليها آمنة ومستقرة ، فكل شيء ممهد ومذلل وهذا ما يزيد من تأصل وترسخ المد الحضاري .

1التفسير الوسيط- د .محمد سيد طنطاوي – المجلد الحادي عشر – صفحة (279)

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ سبأ: ١٨

" معناه : سيروا فيها إن شئتم بالليل وإن شئتم بالنهار فإن الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات أو سيروا فيها آمنين لا تخافون وإن تطاولت مدة سفركم فيها وامتدت أياما وليالي .أو سيروا فيها لياليكم وأيامكم مدة أعماركم فإنكم في كل حين وزمان لا تلقون فيها إلا الأمن "1

وشأن الحضارات الإنسانية أنها بعد أن تكتمل من جميع النواحي ، يحدث لها انتكاسة وتتحلل وتتفكك ويذهب ريحها ، لأسباب كثيرة ومتعددة .

فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ سبأ: ١٩

1تفسير الكشاف – المجلد الثالث – (286)

وهذا ما حدث لقبيلة سبأ ، فقد تفرق بعضهم إلى المدينة المنورة كالأوس والخزرج ، وذهب بعضهم إلى عمان كالأزد ،وذهب بعضهم إلى الشام كقبيلة غسان "1

"ومزقناهم كل ممزق في البلاد المتعددة فمنهم من ذهب إلى الشام ومنهم من ذهب إلى العراق ..بعد أن كانوا أمة متحدة يظلها الأمان والاطمئنان والغنى والجاه " 2

ويأتي ذكر الجنوب مرة أخرى في سورة النمل ، وبالتحديد نفس المكان (سبأ) 24

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ 24 سبأ

فالهدهد هنا يخاطب سليمان - ؛-أنه جاءه من سبأ بنبأ وهوعلى يقين من هذا النبأ ، وكأن كان هناك أخبار وأنباء عن (سبأ) بحكم شهرتها وذيوع اسمها ، ولكنها لا تعتمد على مصدر موثوق ، وهذا يرجع للهالة التي تحيط بهذا المكان ، وهذا النبأ : أن الذي يحكم هؤلاءالقوم امرأة وليست رجلا ، وتلك المرأة لها مكانة عظيمة بين قومها ومظاهرالحضارة والتقدم والرفاهية لا تخفى على عين ، وهى وقومها يعبدون الشمس .وما حدث بعد ذلك بين سليمان والملكة معرف .

1تفسير الوسيط ــد محمد سيد طنطاوي – المجلد الحادي عشر – (281)
2المصدر السابق – (283)

ولكن ما الذي دفع الهدهد أن يتجه للجنوب ؟

لا شك أنه تواترت إليه أخبار وأنباء عن الجنوب ، وتلك الأخبار هي التي أثارت فضوله ، وجعلته يقطع هذا الطريق الطويل من الشمال إلى الجنوب ، هولم يعثر على المكان صدفة ، فنية القصد والعزم متوافرة عند الهدهد ، والتي جعلته يتجشم عناء الطيران من الشمال إلى الجنوب ، وأيضا توقع انتقام سليمان - ؛- له ؛ لأنه ارتحل بدون إذن من سليمان.

إذن هناك هناك قوة جذب في الجنوب ، تجذب المرتحلين في شبه الجزيرة العربية أو من خارجها إلى الجنوب ،لأنهم سيجدون فيه ما يوفر لهم الحياة الرغدة التي يبحثون عليها ، والجنوب في الخواطر و الأفئدة ، لمن يضيق به وطنه ، أو يضيق بوطنه لاختلاف رأي أو ديانة أو لأي سبب آخر، لأنه سيجد في الجنوب الحرية والأمن والسلامة التي ينشدها ولم تتوافر في وطنه ، واحتضن الجنوب - منذ البداية - تلك العقائد أو المذاهب أو الأراء والأفكار ومع مرور السنين أصبح الملجأ والملاذ ،

ولأن الجميع أو الأكثرية طارئة على المكان ، ولأن الجميع أو الأكثرية اصطلى بنار الإكراه أو الاضطهاد العقائدي أو الفكري ،فقد اصطبغ المكان بالسماحة او الحرية العقائدية ، وكان المكان بمثابة مصفاة لكل المذاهب والأراء في العالم يومئذ .

حتى القبائل والعشائر التي ارتحلت عن اليمن وعن الجنوب ، سواء كان السبب كوارث طبيعية أو قلاقل اجتماعية أو عقائدية ، يظل هناك رابط يربط تلك القبائل والعشائر بموطنها الأصلي وتهفو دائما إلى الرجوع مرة أخرى ، وإن تحققت تلك الأمنية العزيزة والرغبة الدفينة على يد الأبناءأو الأحفاد ، حينما عز أن تتحقق على يد الأباء .وهناك من يفترض أن عشيرة إبراهيم انتقلت في بداية أمرها من اليمن إلى جنوب العراق وهذا الرأي الذي يرجح أصل إبراهيم العربي " فإذا فتشنا عن نسبة لإبراهيم لم نجد أصدق من النسبة العربية كما كانت العربية يومئذ بين جزيرة العرب وبقاع الهلال الخصيب .

وأصح التقديرات أنه نشأ في أسرة حديثة عهد بالهجرة من شمال اليمن إلى جنوب العراق ، وكانت هذه الأسرة مع الذين جاءوا من ((أرض البحر)) كما كان البابليون يسمون العرب المقيمون على مقربة من خليج فارس ،

وقد وردت أسماء العرب التي لا شك فيها بين الأسر المالكة في جنوب بابل ، خلال عهد طويل يحيط بعصر إبراهيم على أقدم تقديراته ، فلم يمض على أسرته بمدينة ((أور)) زمن يفصله من عشيرته البادية ، وينسيها معيشة البداوة التي تستجيب للهجرة من أقصى الجنوب في العراق إلى أقصى الشمال "1

الجنوب المرحلة الأخيرة من رحلة إبراهيم .

هل خطر(الجنوب)بذهن إبراهيم - ؛- قبل أن يقوم برحلته أو إثناء رحلته ؟

وإذا خطر بذهنه فلماذا لم يقصده فور الخروج من العراق ؟ ولماذا تم تأجيل الذهاب إلى الجنوب إلى نهاية الرحلة ؟

افتئات على الحقيقة إذا قلنا أن الجنوب لم يخطر ولم يشغل بال إبراهيم قبل الخروج من العراق وأثناء ترحاله الطويل .

---

1 إبراهيم أبو الأنبياء – عباس محمود العقاد –(187)

"فإذا كان هذا الخاطر لم يخطر قط في نفس إبراهيم فذلك هوالعجيب الذي يستوقف النظر من سيرة رسول وزعيم ولكن الرسالة والزعامة معا توحيان إليه ولو مرة من المرات وهو على أهبة الرحلة والاستطلاع .

ومثل ذلك الخاطر خليق أن يتجه به إلى الجنوب ثم إلى الجنوب إذا لم يبق له مكان لهذه التجربة غير الجنوب بعد أن هجر العراق وعاد من مصر ولم يجد عند بيت المقدس حوزة يقام فيها هيكل مقصود "1

إن كل خطوة يخطوها وكل رحلة يقوم بها تؤكد وتجزم بحتمية الذهاب وقصد الجنوب ، فكل رحلاته تنفي وتؤكد ، تبعد وترشح .

تنفي كل الأماكن وتؤكد مكان أوحد ، وهو الجنوب ، تبعد كل الأماكن مهما كثرت وتعددت وترشح مكانا لا بديل له وهوالجنوب ،فكونه زعيما للعشيرة مسئولا عن أمنها وسلامتها وحياتها تدفعه أن يقصد الجنوب

1إبراهيم أبو الأنبياء – عباس محمود العقاد – (92)

" أما الواقع الغريب حقا فهو طواف إبراهيم بين أنحاء العالم المعمور ووقوفه دون الجنوب لغير سبب ، بل مع تجدد الأسباب التي تدعوه إلى الجنوب ولو من قبيل التجربة والاستطلاع .

ولم يكن لإبراهيم وطن عند بيت المقدس ، سواء نظرنا إلى وطن السكن أو وطن الدعوة أو وطن المرعى . فالمتواتر من روايات التوراة أنه لم يجد عند بيت المقدس مدفنا لزوجته فاشتراه من بعض الحيثيين .

أما الدعوةالدينية فقد كانت الرياسة فيها لأحبار إيل عليون وكان إبراهيم يقدم العشر إحيانا إلى أولئك الأحبار .

ومن كان معه أتباع يخرجون في طلب المرعى فلابد لهم من مكان يسيمون فيه إبلهم وماشيتهم بعيدا عن المزاحمة والمنازعة ،وهكذا كان إبراهيم يعمل في أكثر أيامه كما تواترت أنباؤه في سفر التكوين فلا يزال متجها إلى الجنوب "1

1لمصدر السابق (191)

وكونه نبيا صاحب رسالة ، ليس هذا فحسب ، بل صاحب فكرة تأسيس العالم العقائدي للبشرية يدفعه أن يقصد الجنوب دون غيره من الأماكن ،

" هناك أسباب دينية غير هذه الأسباب الدنيوية توحي إليه أن يجرب المسير إلى الجنوب حيث يستطيع أن يبتني لعبادة الله هيكلا غير الهياكل التي يتولاها الكهان والأحبار من سادة بيت المقدس في ذلك الحين فقد بدا له أن إقامة المذابح المتعددة فتنت أتباعه وجعلتهم يتقربون في كل مذبح إلى الرب المعبود بجواره ،ومثل هذه الفتنة بعد عصر إبراهيم قد أقنعت حكماء الشعب بحصر القربان في مكان واحد فاتخذوا له خيمة وانتظروا الفرصة السانحة لبناء الهيكل حيث يقدرون على البناء ." 1

ونرجح أن الذي دفع إبراهيم - ؛- إلى الجنوب ليس سببا دنيويا متعلقا بسلامة وأمن ورعاية العشيرة ، ولكنه سبب ديني خالص ؛ لأن هناك أسباب كثيرة - غير الجنوب - تصلح أن تكون مرعى ومكانا تجد فيه العشيرة الأمن والسلامة ، فهنا البدائل كثيرة ومتعددة ، ولكن لا يوجد إلا مكان واحد - وليس غيره -يصلح لأن يكون قاعدة وأساس للعالم العقائدي الذي يريد إبراهيم إقامته .

1إبراهيم ابو الأنبياء – عباس محمود العقا د – (192)

وصلاحية المكان- بصفة عامة - لا يستمدها إلا من أمور منها :

إن هذا المكان مهيئ ومعد ومجهز للغرض المقصود لأسباب كثيرة .

إن غيره من الأماكن ليست مهيئة ولا معدة ولا مجهزة للغرض المقصود ، نعم ، قد يكون هذا المكان صالحا ، ولكن في نفس الوقت يوجد غيره صالحا مثله أوقريبا منه ، والمثلية هنا أو القرب لا تصلح للعبادة ، أو بناء بيت لله يكون أساسا للعالم العقائدي ؛ لأن إذا كان هناك مكان مثله فقد يتحول إليه ، ولوكان هناك مكان قريبا منه في الميزات والصفات قد يشرك معه .

لابد وأن يكون هذا المكان لا مثيل ولا قرين له ، وهذا لا يتحقق إلا إذا حدث شيءفي المكان أو طرأ عليه طارئ ، تجعله يعلو ويسمو فوق كل الأمكنة ، كأن يحتضن هذا المكان نبيا أو رسولا من رسل الله ، وما يتبع هذا من وحي من الله أو أي شيء مما يفيضه الله - عزوجل - على من أنعم عليهم بالنبوة أو الرسالة .وبهذا يعتبر المكان مقدسا ، يشع ويفيض على حوله من أنوار الطهر والنقاء مايشعه ويفيضه .

" أما الجنوب المسكوت عنه فقد كان له شأنه من القداسة أيام أرميا وما بعدها وكانت كلمة ((تيمان)) مرادفا لكلمة الحكمة والمشورة الصادقة، وهي تقابل كلمة ((يمن)) في اللغة العربية بجميع معانيها ، ومنها الإشارة إلى الجنوب ،ففي سفر التثنية يقال على لسان موسى : ((جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من جبل السعير))

وفي سفر حبوق : ((الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران))

وأوضح من ذلك قول أرميا متسائلا في مراثيه : ((ألا حكمة بعد في تيمان ؟ هل بادت المشورة من الفهماء !)) 1

إذن من مجافاة المنطق وطبائع الأمور ألا يتجه إبراهيم – ؛– إلى الجنوب .والعجب والغرابة أن يتخذ إبراهيم وجهة غير الجنوب .ولاشك أن إبراهيم عرف تاريخ الجنوب ، أواطلع على طرف منه ، وأن بعض – إن لم يكن كل - أصحاب المذاهب والعقائد التي اضطهدت وحوربت في وطنها – كما اضطهد هو وحورب في وطنه - قد اتخذوا الجنوب غاية ومقصدا .

1المصدر السابق (193)

ولكن السؤال الذي يجب أن يطرح هو:لماذا اتجه إبراهيم – عليه السلام- إلى الجنوب ؟

نحن نعلم – بعد ذلك – أن ثمرة هذه الرحلة أو أهم نتيجة كانت بناء البيت .

فهل بناء البيت هو الذي حدد وجهة إبراهيم إلى الجنوب ؟

أم أن وجوده في الجنوب هو الذي أوحى إليه بفكرة بناء البيت ؟

السؤال الأول يقول:أن فكرة بناء البيت كانت هاجس إبراهيم الأول ، وهذا يتسق مع شخصية نبي يبحث عن مستقبل ومصير دعوته ورسالته . يريد أن يقيم شاهدا ثابتا ومستقرا وراسخا يبقى بعده لأبنائه ولأفراد ذريته ، وهذا الشاهد لا يتبدل ولا يتغير ولا يتحول ، بقعة طاهرة نقية خالصة لعبادة الله الواحد الأحد ، ليست لقوم محددين ولا معينيين ، وإنما لكل البشر ، وهو يخشى إن رحل – وسط هذا العالم الهائج المائج بالضلالات – ولم يترك أو يبن شيئا ، إن لم يكن لأهل عصره فلذريته من بعده ، كمرجع لهم ، وعاصم لهم وملاذ لهم ، ومصدق لما جاء به ولما دعا إليه ، يخشى أن تتبدد دعوته مع مرور السنين .

السؤال الثاني يقول:إن الجنوب – وليس غيره – في مسيس الحاجة إلى وجود بيت لله ، أن تولي البشرية كلها وجهها نحو الجنوب ، وتقصد وتهوى بأفئدتها نحو البيت المحرم ، لقد طوف إبراهيم الآفاق – ولا شك – أنه وجد أن الجنوب هو مبوأ البيت ، لأسباب قد نعلم بعضها وقد نجهل البعض الآخر ، وما كنا نجهله كشف الزمن عن بعضه ، وقد أظهر – الزمن – أن إبراهيم لم يكن موفقا – وكل قراراته وأعماله موفقة – قدر توفيقه في اختيار مكان البيت .

نرجح السؤال الأول ونستبعد الثاني ، أونرجح الثاني ونستبعد الأول . ولم لا يكون الأمران واردان معا ، أن فكرة البيت كانت حاضرة – دائما – في ذهن وضمير إبراهيم ، وإن المكان كان تجسيما لما كان في ذهن وضمير إبراهيم ،فهولم يبن البيت بداية ، البيت كان مبنيا وقائما وماثلا في ذهن وضمير إبراهيم ، وكل ما فعله أن جسده من حيز العقل والضمير إلى حيز الحقيقة والواقع ، ما في عقل الأنبياء ليست أفكارا قد تتحقق أو لا تتحقق ، أو أفكار حينما تتحقق تتغير صورتها ويتغير وضعها ، هذا ينطبق علينا نحن البشر ، لأن هناك مسافة هناك فجوة

بينما نفكر فيه وبين إمكانية تطبيق تلك الأفكار ، مع الأنبياء لا توجد تلك الفجوة ولا توجد تلك المسافة ، فما فكر فيه واقع وحقيقة ، والواقع والحقيقة هو ما فكر فيه ،ولا فرق بين الاثنين ، بل هما شيء واحد ، كذلك أحلام الأنبياء ، ليست محض خيالات وأوهام ، وليست تصورات أو أمنيات عزيزة لنفس وجدت الخيال أو الأحلام عوالم تتحقق فيه ما عز تحقيقه في الواقع ،فالرؤيا لدى الأنبياء حق وواقع ،التأرجح والتذبذب بين الخيال والواقع أو بين الوهم والحقيقة سمة من سمات عالمنا البشري وليس من سمات عالم النبوة .

فبناء البيت كان استجابة لداعي الزمان – كذلك – كان استجابة لداعي المكان .

استجابة لداعي الزمان :

لماذا لم يتقدم بناء البيت زمانا ؟

ولماذا لم يتأخر بناء البيت زمانا ؟

أما لماذا لم يتقدم ، فلأن البشرية لم تكن في حاجة إلى البيت ، وعيها وإدراكها لم يكن قد نضج بعد ،فلم تكن قد وصلت بعد أن ترتقى وتسمو إلى معنى الوحدانية ، أن تبدد وتمحو من ضميرها وفكرها كل الأخلاط والأوشاب التي تكدر وتعكر صفو عبادتها لله الأحد .

ولم يتأخر بناء البيت رحمة من الله لعباده .

فكل هدى وإرشاد هو إنعام ورحمة من الخالق لعباده .

لم تشأ إرادة الله - الرحمن الرحيم – أن يظل عباده ضالين تائهين حائرين متخبطين في دياجير الظلام .

ففي هذا الوقت بالذات – لا قبله ولا بعده – لابد أن يدق صوى وأن توضع إشارة وأن ترفع قاعدة تكون فاصلا لما قبلها وما بعدها ، وإن تعلن عن بداية عهد وفاتحة عصر وانبلاج فجر .

بداية عهد التوحيد ، وفاتحة عصر العبادة الصادقة الحقة ، وانبلاج فجر الإسلام .

بناء البيت فاصل بين عصرين ، حاجز بين عالمين ، تميز بين عقيدتين

فاصل بين عصر الضلال وعصر الهداية .

حاجز بين عالم الظلم والظلام وبين عالم العدل والنور .

تميز بين عقيدة الشرك وعقيدة التوحيد .

استجابة لداعي المكان :

فلم يكن للبيت أن يبنى في العراق .

ولم يكن للبيت أن يبنى في فلسطين .

ولم يكن للبيت أن يبنى في مصر .

ولم يكن للبيت أن يبنى في أي مكان في العالم سوى في المكان الذي بني فيه .

مكان خال من كل مقومات الحياة ، مكان قفر موحش بواد غير ذي زرع ،لا زرع ولا حيوان ولا إنسان ، جبال صم محدقة بالمكان ،لم تطأه قدم - إن وطأته - إلا مرورا عابرا بدون توقف أو تريث ، مكان لم يتربعه أحد من قبل ، ولم تمارس فيه أي عبادة من أي نوع ، مكان لم ينسب إلى أحد ، ولم يدعي أي قوم الانتماء إليه أو ينتمي لهم .

مكان كما هو في ظمأ شديد إلى الماء في ظمأ شديد إلى عقيدة تؤنس وحشته ، وتزيل وحدته وانفراده وتفرده عن العالم حوله ،وهو وإن كان يطل على العالم حوله ،والعالم يطل عليه ، إلا أنه ليس لديه ما يضيفه ويقدمه ، مكان معد جغرافيا ، ومجهز طبيعيا ، ومهييء قدريا ، أن تنطلق منه أول أنوار التوحيد في العالم الإنساني ،وكأني بإبراهيم – ؛- حينما وصل إلى هذا المكان ،اطمأنت نفسه وسكنت إلى حنايا المكان ، لقد تنقل وجاس بين أماكن كثيرة في العالم ، ولكن أبدا ، لم تمتلئ نفسه بتلك المشاعر والأحاسيس ، لقد رأي الكثير من الجبال وصخورها ، وداس الكثير من الصحراوات ورمالها ،

ولكن لا جبال المكان تشبه مئات الجبال التي رآها ولا صخورها ، والرمال ليست كرمال الصحروات التى داسها ، حتى النسيم له عبق وأريج ، هناك روح للمكان هي التي تضفي عليه هذا الألق والسنى، لقد احتواه سلام وسكينة لا قبل له بها ،

نعم ، هذا المكان مقطوع عن العالم، ولكنه موصول بعوالم أخرى ، هذا المكان منفصل عن العمران ، ولكنه معمور بحيوات من نوع آخر لم يألفه ولم يصادفه من قبل ، يشعر بالألفة والأنس للمكان ، ما كذب عليه فؤاده من قبل ، إن كان ثم بيت لله في الأرض ، فلن يكون إلا في هذا المكان ، وهنا سدرة المنتهى لركب رحلاته الذي لم ينقطع ، لقد آن للذي قطع الآفاق للبحث والتنقيب أن يحط رحاله ، لقد وصل إلى مبتغاه وحقق مقصده .

ولكن السؤال : هل اصطحب إبراهيم – ؛– زوجته السيدة هاجر وابنه إسماعيل باحثا لهم عن مكان فهداه الله وأرشده إلى مكان البيت ، فلم يجد آمن مكان إلا هذا المكان فتركهما هناك بجوار البيت ورحل ؟

أم أنه أرشد إلى البيت وهدي أولا ثم بعد ذلك ترك زوجه وابنه بجوار البيت ورحل ؟

أي هل كان هاجس إسكان زوجه وابنه هو المسيطر على إبراهيم في المقام الأول ، أم هاجس العثور على مكان لبناء البيت ؟

وإذا كان يبحث عن مكان البيت فلماذا يأخذ زوجته وابنه معه ؟

وإذا كان يبحث عن مكان مناسب لترك زوجته وابنه فإن هذا المكان لا يصلح بأي صورة من الصورة ليكون سكنا لهما .

لا شك أن كل تلك الأسئلة لم تخطر ولم تجل بذهن إبراهيم – ؛– فتلك الأسئلة لمن يفوض أمره لنفسه ، ويأخذ بما يشير إليه العقل ويمليه عليه المنطق ،ووضع إبراهيم في تلك الظروف كان خارج كل ما يشير إليه العقل وفوق كل ما يمليه أي منطق ، وحينما يكون الأنبياء على مشارف اتخاذ قرارات مصيرية لا تحدد مصيرهم فحسب بل تسهم بقدركبير في تحديد مصير الإنسانية ، أو تحديد وجهتها نحو خالقها ، فإنهم يفوضون أمرهم إلى الله تفويضا حقيقيا

بعدما ضاقت بهم السبل ، وادلهمت أمامهم الطرق ، وهذا ما فعله موسى - ؛- وفرعون وجيشه يطارده ،إلى أن وصل موسي وقومه إلى موقف في غاية الحرج والخطورة ، فأمامهم البحر وخلفهم جيش فرعون ، وليس هناك خيار ثالث ، بل هما موتان محققان ، فإما الموت غرقا في البحر ،وإما الموت سحقا تحت سنابك خيول فرعون ، وأطبق اليأس بظلماته الثقيلة المرعبة على قوم موسى من كل جانب وأحيط بهم ، وقالوا قولتهم(إنا لمدركون) فالمنطق والعقل والواقع يدفعهم أن يقولوا ذلك ،

بعدما ترأى الجمعان ، فقوم موسي رأوا جيش فرعون ،وجيش فرعون رأي القوم ، وما هي إلا مدة وجيزة للغاية ليصل الجيش ويلحق بالقوم الذي يمنعهم البحر من التقدم أوالابتعاد عن مرمى الجيش ، وكأن اليأس والخوف بدأ يزحف إلى نفس موسي ، إلا أن الجانب النبوي في تلك النفس الذكية ينتفض ويبدد ويطرد كل هواجس الياس ووسواس الخوف (كلا) قالها لنفسه أولا ، ولقومه ثانيا ، وبكل الثقة التي تملأ نفسه ، وبكل الإيمان الذي يعمر قلبه (إن معي ربي سيهدين) كيف ؟ ومتى ؟ وأين ؟ هذا لا شأن له به ،الشأن هنا والأمر ، هو شأن وأمرالله ، وما على موسى إلا أن يفوض ويترك أمره إلى الله .

قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ الشعراء: ٦٢

وقالها إبراهيم – ؛– من قبل موسى .

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ الصافات: ٩٩

وكأن كل خطوة يخطوها إبراهيم ،يعلم ويدرك ويعي أن هداية الله تصحب وتوفق وترشد تلك الخطوات ، وأنه إذا اطمأنت نفسه وسكنت إلى مكان فهذا الاطمئنان والسكون هدى وإرشاد من الله ، هنا ليس ثمة فاصلأو فرق بين إرادة النبي ومقصود الله ، نحن البشر نعمل ونجاهد ونصارع جوارحنا لكي نصل إلى ما نظنه مقصد الله ، وبعد ذلك قد نصيب وقد نخطئ ، حتى ولو أصبنا ووفقنا في ذلك ، فهو التوفيق والإصابة التي تتناسب مع مقدرتنا ومحدودية وسعنا ، لأن نفوسنا ليست خالصة كخلوص النبي توجها إلى الله ، وثقتنا ليست مطلقة كثقة النبي ،وإيماننا ليس كاملا كإيمان النبي ، تلك نفس كلها تيقظ وإنتظار وتربص وترصد وتوقع ، كل جوارحها وحواسها في حالة استنفار وفي أعلى درجات وحالات استقبال ما قد يرسله الله لها ، فقبل أن يكون هناك إلهام أو وحي ، هنا نفس مُلهمَة ، وليس المقصود بتلك النفس أنها سبقت وتلقت الإلهام ،

وإنما المقصود أنها نفس ملهمة قبل ان تتلقى الإلهام والوحي ، أي مستعدة ومهيئة ومجهزة ومعدة ،فقد يكون هناك إلهام وليس ثمة استقبال لهذا الإلهام ، وقد يكون هناك استقبال ولكنه استقبال ناقص ومشوش لأن هناك نقص في الإعداد والتجهيز ، وقدلا يكون هناك إلهام ، ولكن لأن النفس صافية ونقية ونورانية وخالية من كل الشوائب ومن كل ما يبعدها عن فطرتها السليمة ، تسير على وحي وإلهام من تلك الفطرة ، وفي هذا السياق نقرأ ونفهم قوله – تعالى :

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ الأنبياء: ٥١

" والمعنى : ولقد آتينا – بفضلنا وإحساننا – إبراهيم – ؛- الرشد إلى الحق والهداية إلى الطريق المستقيم ، ((من قبل)) أي : من قبل النبوة

بأن جنبناه ما كان عليه قومه من كفر وضلال "1

1تفسير الوسيط د . محمد سيد طنطاوي – المجلد التاسع صفحة (220)

فهنا يستمد إبراهيم الإلهام من فطرته النقية السليمة ، ليس هناك ما يحول بينه وبين أن يستمد مدده من الفطرة حوائل ، ويصل من خلال إلهام فطرته إلى ضلال وخطأ قومه ، ويدفعه هذا الإلهام إلى أن يجاهر قومه بما هم عليه من ضلال ، ويحطم تلك الأصنام رمز الشرك والكفر ، وكل الأنبياء – بلا استثناء – كانوا على صلة وثيقة بفطرهم النقية الطاهرة لا يحيدون ولا يضلون عنها ، وهذا ما يجعلهم مهيئين ومعدين ومجهزين لتلقي الوحي أحسن تلقي واستقباله أفضل استقبال .

وفي نفس هذا السياق نقرأ قوله – تعالى:

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ الحج: ٢٦

" وبوأنا من التبوؤ بمعنى النزول في المكان . يقال : بوأته منزلا أي : أنزلته فيه ، وهيأته له ،والمعنى : واذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ وقت أن هيأنا لنبينا إبراهيم مكان بيتنا الحرام ، وأرشدناه إليه ، لكي يبنيه بأمرنا ، ليكون مثابة للناس وأمنا .

قال بعض العلماء : والمفسرون يقولون بوأه له ، وأراه إياه ، بسبب ريح تسمى الخجوج كنست ما فوق الأساس : حتى ظهر الأساس الأول الذي كان مندرسا ، فبناه إبراهيم وإسماعيل عليه ...وأن محل البيت كان مربض غنم لرجل من جرهم.

وغاية ما دل عليه القرآن : أن الله بوأ مكانه لإبراهيم ، فهيأه له ، وعرفه إياه ليبنيه في محله ، وذهبت جماعة من اهل العلم إلى أن أول من بناه إبراهيم ولم يبن قبله "[1]

إذن عرف إبراهيم مكان البيت ، وإن هذا المكان من أكثر الأماكن أمنا وسلاما وطهرا ونقاءا ،وأن يترك أهله في هذا المكان فهما في رعاية وكلأ الله ،فقد يخشى إبراهيم على أهله وهم معه تحت يديه وتحت بصره ،لأن توفير الأمن والسلامة لهما على قدر إمكاناته ، ولكن الأمر مختلف وهما على مقربة من بيت الله .

رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ إبراهيم: ٣٧

1التفسير الوسيط للقرآن الكريم ــد . محمد سيد طنطاوي – المجلد التاسع (301)

ولم يخف على إبراهيم - ؛- إن المكان وإن كان آمنا مقدسا ، إلا أنه في حاجة إلى مقومات الوجود البشري ،وأنه بتلك الصورة - بواد غير ذي زرع - قد يجد ساكنوه مشقة وعنتا ، فهو بعيد عن العمران من ناحية ،ومن ناحية أخرى لا ماء به ولا ثمر ، وإن كان وجود بعض من ذريته بجوارالبيت للتعبد وإقامة الصلاة ،وهذا في حد ذاته نعمة ومنة من الله على إبراهيم وعلى ذريته ، إلا أنه طلب لمزيد من الأمن والاستقرار أن يكون هذا البيت عامرا بالناس الذي يجذبهم حبهم للبيت ،

وأن يفيض عليهم من رزقه ، وبهذا لا ينقص هذا المكان شيئا من مقومات الوجود البشري ، سواء كان مقوما روحيا أو ماديا " لأن البلد إذا امتدت إليه ظلال الأمن ، وكانت مطالب الحياة فيه ميسرة ، أقبل أهله على طاعة الله بقلوب مطمئنة وتفرغوا لذلكبنفوس مستقرة "1

1**تفسير الوسيط – د . محمد سيد طنطاوي – المجلد الأول – صفحة (271)**

وطموح وطمع إبراهيم في كرم الله ، دفعه ألا يطلب أن يقتصر الأمن والسلامة على مكان البيت فقط ، بل يتعدى ذلك إلى ما حول البيت ، فطلب أن تعم البركة كل أنحاء البلد الذي يحيط بالبيت ، حتى من كفرلن يمنع عنه التمتع ، ولكن مصيره إلى النار.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ البقرة: ١٢٦

ونحن وإن كنا – أنا وإسماعيل – مسلمين ومنقادين ومفوضين أمرنا إليك ، فثبتنا على هذا الأمر ،وثبتنا على الإسلام ، وأشمل ذريتنا بنعمة الإسلام ، ويسرنا إلى ما تحب وترضى في أن نؤدي مناسك حجنا .

ويتصاعد طموح وطمع إبراهيم أكثر وأكثر في كرم الله ، وكما تجاوز – في دعائه – حدود المكان ،تجاوز حدود الزمان ،فلم يكتف أن يدعو للأقربين من ذريته ،بل داعا أن يبعث الله في ذرية إسماعيل رسولا

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ البقرة: ١٢٩

في أكرم وأقدس بقعه في الأرض ، وفي أفضل وأعز الأوقات ، تتصاعد دعوة نبيين إلى الله

بعدما فرغا من بناء البيت ، أن يرسل في تلك الأمة التي تعيش في هذا المكان رسولا يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ..وكل هذا بفضل هذا البيت الذي بناه إبراهيم ليكون قاعدة ودعامة وأساس لعالم العقيدة الذي ارتضاه الله لعباده المسلمين .

الفصل الخامس
بيت الله

منذ أن تعلق ضمير الإنسان بقضية الإيمان بالآلهة ، وقد تلازمت قضية القربان بها، فهو يخشى ويخاف من الآلهة ، ويريد أن يترضاها وينعم بحمايتها وعطفها ، ويعلم أن توفيقه ونجاحه في كل حركة في حياته مناطة بعون ومساعدة الآلهة في ذلك ، وكان أول قربان في التاريخ ذلك الذي قربه ابنا آدم ، وتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر .

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ المائدة: ٢٧

" وكانت علامة التقبل أن تأكل نار نازلة من السماء القربان المتقبل وتترك غير المتقبل 1"

1التفسير الوسيط – د. محمد سيد طنطاوي – المجلد الرابع – صفحة (119)

إذن لابد وأن يقدم للآلهة ما يستوجب الرضا ، فهو يرى أن هذا حقها عليه ، وواجبه نحوها ، ولكن ظهرت مشكلة له ، أين سيقدم هذا القربان ؟

إن الآلهة في نظره مقدسة ، وكل ما يمت لها بصلة يكتسب شيئا من هذا التقديس ، فعلى هذا القربان مقدس ، ولابد أن يكون هناك مكان ما يقدم فيه هذا القربان ، فلن يترك القربان هكذا على قارعة الطريق ، فأختير مكان ليقدم فيه القربان ، هذا المكان – أيضا – أحيط بهالة من التقديس .

وقد مر شكل المكان وهيئته بما مرت به البشرية من تطور وتقدم ، فبدأ بسيطا ساذجا على شكل خيمة تنصب وتحل بانتقال القبيلة أو الجماعة من مكان إلى آخر ، ثم بدأ يأخذ صورة وهيئة أخرى أكثر تطورا وتعقيدا باستقرار وتطور وتقدم الجماعات والأمم ، فبدلا من أن يكون مجرد مكان تذبح فيه الذبائح ويقدم أنواع أخرى من الأطعمة والأشربة ، أخذت ترصد له النفقات الهائلة ويجلب له الصناع والمهندسون ويتفنن في بنائه ، ولم يعد مكان يقدم فيه القربان ، وإنما مكان للعبادة ، وأحيط بهالة من التوقير والإجلال والتقديس ، واكتسب رجاله – الكهنة – شيئا من تلك القداسة ، واعتبرهم الناس نواب للآلهة ، أو أنهم وكلاء ومندبون عنهم للآلهة ،

وفي أحيان كثيرة استغل هؤلاء الرجال تلك المنزلة والمكانة لمنافع شخصية ومناصب دنيوية . وأصبح هذا المكان رمزا لكرامة الجماعة أو الأمة وعنوان لمكانتها ومنزلتها بين الجماعات والأمم ، بحيث إذا أرادت أمة إذلال أمة أخرى وطعنها في كرامتها لا تكتفي بانزال الهزيمة بها ، بل تعمد إلى هدم وتحطيم هذا المكان ، فتنال منها كما لم تنل بتحطيم جيشها وجميع مرافقها الأخرى .فالإنسان على استعداد أن يتقبل جميع الإهانات ، وقد يتسامح ويسامح ويغفر الإهانة بمرور الوقت ، إلا تلك الإهانات التي وجهت إلى عقائده أو لمن يؤمن به .

ولكن في كل تلك المعابد التي بنتها البشرية على مدى تاريخها الطويل لم يكن للآلهة فيها نصيب أو رأي ، بمعنى أن الذي اختار مكانها هم البشر ، ولم يستخيروا الآلهة في تحديد أو تعيين مكانها ، أيضا الشعائر والعبادات التي تؤدى فيها هي من اختراع ووضع البشر ، حتى القربان كان يخضع لأمزجة وظروف وأحوال من يقدمونه . إذن كل تلك المعابد أقامها البشر لأنفسهم في حقيقة الأمر ولم يقيموها للآلهة ، ولا تجدن معبدا يشابه أو يقارب معبدا آخر ، وليس هذا بغريب ، فهذا شأن طبيعة وأعمال البشر .

إبراهيم والبيت:

إبراهيم - ؛- كانت لدية حصافة وحكمة وبعد نظر ، ولم يكن يضع وزنا للتقاليد والعادات والسنن التي يسير عليها الناس ، وإنما كان يعرض كل شيء على عقله الراشد عرضا شاملا ،فكان يرى إذا كان المكان الذي سيقدم القربان لله ، ويعبد فيه الله ، فالذي يجب أن يختار المكان ويحدده ويعينه هو الله ،وليس أحد غيره ،والذي سيقر كل ما يتم فعله فيه من تقديم قربان وتأدية عبادة هو الله ، أي أن البشر لن يكون لهم دخل في أي شيء ، فهذا المكان هو مكان الله ، بيت الله ،وطالما توافرت تلك الأمور ، فالبشر جميعهم - بدون استثناء - يتقبلون ويرتضون بهذا البيت مهما بعد المكان والزمان بينه وبينهم .

إذن أدرك إبراهيم منذ البداية ، أنه لابد وأن يكون هناك مكان أو بيت ، يختلف عن كل البيوت والمعابد ، وأنه ليس له - ولا لأحد - إرادة أو خيارأو دخل في تحديد أو تعيين المكان ،

وإنما الذي سيتولى إرشاده إلى ذلك هو الله ، وطالما هو بيت الله فلن يعبد فيه أحد إلا الله ، ولن يكون هناك بيت في الأرض سواه ، فالبيت واحد والعبادة واحدة ، وهناك موحدون بالله ولا يتجهون إلا إلى الله ، ولا يؤدون من عبادات إلا ما شرعه الله .

ولكن هل ينتظر إبراهيم ساكنا حتى يدله الله على هذا المكان ؟

رحلات إبراهيم – ؛- (إني ذاهب إلى ربي سيهدين) :

هل كانت رحلات إبراهيم – ؛- قفزات في الظلام ؟

بمعنى هل قام بالإعداد والتمهيد لتلك الرحلات ؟ وهل كان لها هدف يود تحقيقه وما الغرض والمقصد من كل تلك الرحلات ؟ وهل تم تحقيق ما يرجوه من نتائج ؟ أم أن تلك الرحلات تمت هكذا بدون إعداد وتمهيد وتخطيط ، وأنه كان يحمل عصا الترحال ويلقيها حسبما تدفعه الظروف والأحوال ؟

حينما ندرس شخصية إبراهيم – ؛– ندرك أن ما من خطوة يخطوها أو عمل يعمله إلا بعد تفكير وتقدير ودراسة . نعم قد نجهل الدافع الحقيقي الذي دفعه ، وقد نجهل – أيضا – النتائج المترتبة عن كل رحلة من تلك الرحلات ، ولكن مع ذلك نستطيع أن نجزم أن هناك دافعا دفعه ، وهناك نتائج ترتبت على المستوى الإنساني وعلى المستوى النبوي .

وإذاكانعقلنا لا يهدأ ولا يهنأ ولا يستريح إلا بأن يدرك ويعرف ويفهم كل شيء ، وهذا حقه المشروع ، ولكن هنا لابد أن يتواضع ويهدئ من غلوائه واندفاعه ، فنحن أمام شخصية نبي صمت التاريخ أمامها صمتا تاما، وهذا موقف في غاية الغرابة وموقف مريب ، وإن كانت هناك أسباب ومبررات لذلك ، ولكن هذا في حد ذاته يشكل صعوبة بل معضلة ، وحديث التوراة في بعض جوانبه حديث غاية في التهافت والسذاجة ، وإذا جمعت كل أحاديث التوراة عن إبراهيم لخرجت لك شخصية غاية في التناقض والغموض والابهام ، ليس هذا فحسب بل تلك الأحاديث والأخبار لا تليق بشخصية نبي .

إذن نحن مطالبون بالبحث عن مصدر وثيق نستمد منه ما يعتمد عليه في رسم صورة لشخصية إبراهيم أو جمع ملامح وسمات تلك الشخصية ، ولا يسعفنا في هذا الأمر سوى القرآن ، وإن كان القرآن ليس من مقاصده رسم شخصية تامة وكاملة للأنبياء – كماوضحنا ذلك في كتابنا : شخصية النبي محمد – وغاية ما يسعفنا به ويقدمه لنا أساس يعتمد عليه في بناء الشخصية ، أو نواة نلجأ إليه في تكوين الشخصية ،وهذا عمل – في حد ذاته – جد عسير ، وفي حاجة إلى وقت وجهد ، ولكن كل هذا يهون ، فليس هناك ما يوازي أو يعادل أن يكون بأيدينا بناء متكامل أو صورة واضحة الملامح بارزة السمات لشخصية نبي ، ليس هذا فحسب بل لنبي الأنبياء إبراهيم – ؛- .

أخذ إبراهيم على عاتقه أن يطوف في طول البلاد وعرضها باحثا منقبا عن هذا المكان ، هذا التطواف في البلاد واختلاطه بأنواع وأصناف مختلفة من البشر ، وتعرفه على الثقافات والمعارف والمعتقدات سيزيده من ناحية علما ومعرفة ، وأيضا سيمنح إبراهيم أن يعرض ما لديه على الناس ،أو أن إبراهيم طاف وارتحل إلى كل تلك البلاد منتظرا إرشاد وأن يهديه الله إلى المكان ، أليس هو بيت الله ؟ فالذي سيختاره ويحدده ويعينه هو الله وليس أحد غيره ،

وكل الأماكن تصلح أن يقام فيها بيت الله ، وكل البلاد مهيئة ومعدة لذلك ، أليست تلك الأرض هي أرض الله ؟ إذن ما عليك يا إبراهيم إلا أن تجوس وتطوف وترتحل هنا وهناك ، فكل الأماكن تصلح ، وهناك أمكنة وإن لم تنل شرف احتضان بيت الله ، فقد كرمها الله ، فقدكلمموسى ؛على جبل الطور في أرض سيناء ، واحتضنت أرض مصر مولده ، وولد كلمة الله (عيسى) في أرض فلسطين ، وولد رسول الله خ في مكة وازدادت شرفا إلى شرف ، أماكن شرفها الله بأن اختارها ، وليس لنا أن نسأل لماذا هذا المكان ؟ وما الحكمة من ذلك ؟ كل ما علينا هو أن نقدس ونجل هذا المكان لا لشيء إلا لأن الله وقع اختياره عليه ليحتضن أمرا قرره الله ، وتصبح تلك الأماكن بقاعا مقدسة نظرا لما حدث بها وفيها ...

فهي رحلات وتنقلات عمادها الإفادة والاستفادة ، وهذا هو سر تنقل إبراهيم – ؛– ورحلاته التي اتسمت بالطول والغموض عند البعض ، فالبعض يقول أنه ترك بلدته (أور) في جنوب غرب الفرات ، أما لقلاقل سياسية وفكرية أو قلاقل طبيعية كأن يتعرض المكان الذي يعيش فيه لقحط شديد أو زلازل وبراكين ، ولكن هذا يكون إذا انتقل إبراهيم من مكان إلى مكان أخر أو ثالث يحل به إذا توافرت لوازم الاستقرار ، لا أن يترك جنوب العراق ثم يسير إلى صحراء الشام ،

ومنها إلى أرض كنعان ، ثم قاطعا صحراء سيناء إلى مصر ثم عائدا مرة أخرى إلى كنعان ، وبعد ذلك إلى جنوب الجزيرة العربية " ارتحل النبي إبراهيم (؛) من مدينة (أور) الأرمينية في بلاد الحور قاصدا أرض كنعان ، وبعد الاستقرار هونا في كنعان الفلسطينية ، يتوجه - بدفع القحط - إلى مصر الخير لينهل منها ما شاء ، ويرتبط ببعض أهلها صهرا ، ثم لا يلبث أن يخرج من أرض النيل ميمما نحو الجنوب إلى بلاد اليمن ، حيث امتداد مصر بمهاجريها العظام ، أو بفيالقها المتقدمة في حامياتها هناك " [1]

إنها ليست رحلة ولكنها رحلات تمثل مراحل متعددة مرت بها شخصية إبراهيم ، رحلات مقدسة يقوم بها نبي للبحث عن شيء مقدس بعون ومباركة من الله .

ولكن إذا كان تحديد وتعيين مكان البيت سيكون من قبل الله ، فلم تجشم إبراهيم عناء هذا التطواف في البلاد؟

1النبي إبراهيم والتاريخ المجهول – د. سيد محمود القمني – (125) .

أما كان من الأجدر أن ينتقل على الفور من جنوب العراق - في رأي - حيث مدينة (أور) إلى مكة حيث البيت ؟

أولا : انطلاق إبراهيم في رحلاته الطويلة لم يكن الغرض الأساسي ، أو الأول والأخير هو البحث عن البيت ، ولكنها رحلات طويلة للعلم والمعرفة وتفقد أحوال وأوضاع وظروف الناس ، إنه منذ البداية وهو معارض ورافض ماعليه قومه من عبادة ، ولم يكتف بهذا الموقف بل جاهر وأعلن موقفه هذا ، بل تمادى وهاجم قومه وسفه أحلامهم وحطم أصنامهم ، وضاق بهم وضاقوا به ، إلى الدرجة أنهم ألقوه في النار ، فربما في مكان آخر ومع قوم آخرين يجد من يستمع ويستجيب ويؤمن ، أو قل إنه يريد أن يبصر أناسا آخرين بما هم عليه من ضلال ، ويرشدهم إلى الهدى ، - كما فعل مع قومه - وربما رأي أن (أور) أو بلاد ما بين النهرين أضيق من أن تتسع لدعوته ، إنه لا يريد أن يضع أفقا محدودا أو نطاقا ضيقا لدعوته ، وإنما يريد العالم كله - بلا استثناء - مجالا ونطاقا لدعوته ، وهو لا يريد أن يترك أثرا في عصره أو زمنه ، بل يريد كل الأزمنة - بلا اسثناء - أن تكون مجالا ونطاقا لدعوته ، إنه شخصية عالمية أو أممية مكانا ، وشخصية خالدة زمانا ،

وربما يكون هذا هو السبب أنك لا تجد مكانا أو زمانا لإبراهيم في التاريخ ، فلم يكتب التاريخ عن إبراهيم شيئا ، وأظن أنه عجز وحيرة ، وليس إهمالا ونسيانا ،ولسنا ممن يأخذ التاريخ دليلا وحكما ، لأن الذين كتبوا التاريخ بشر ، ولم يكونوا بعيدين عن الهوى والغرض وهم يكتبون ، ولأن الكثير من التاريخ ضاع أدراج الرياح أو بدل وغير وحرف وزيف ، وليس معنى أن التاريخ لم يذكر شيئا عن شخصية ما أن تلك الشخصية لا وجود لها في الحقيقة ، فليس التاريخ والحقيقة صنوان ، فقد توجد شخصية في التاريخ ، وليس لها وجود في الحقيقة ، وقد توجد شخصية حقيقية ولا وجود لها في التاريخ،" إن عدم معرفة علم التاريخ بهذا النبي ، رغم حضوره الكثيف في الديانات الثلاث ، قد أدى ببعض الباحثين إلى حسبانه شخصية أسطورية ، لا تمت لعلم التاريخ بصلة " 1

والذين يرون أن التاريخ والحقيقة صنوان ، وجدوا أنفسهم يشككون في شخصية إبراهيم ، وعللوا وجوده في التوراة ، أنه عمل من اختراع اليهود ، فقد كان هناك أسطورة عرفت باسم (براما) كانت معروفة قديما قبل ظهور العبريين ،

1النبي إبراهيم والتاريخ المجهول – سيد محمود القمني – صفحة (16)

وأنهم تبنوا تلك الأسطورة وجعلوا براما هذا أحد أسلافهم " بينما يشير آخرون بخصوص النبي إبراهيم إلى أسطورة باسم (براما) كانت واسعة الانتشار قبل ظهور العبريين وعرفت في بلاد إيران والهند وما حولها ، وأنها أصل عقيدة (براهما) الهندية وان العبريين بدورهم قد تبنوا هذه الأسطورة وحولوها إلى شخصية إنسانية ، واحتسبوا (براما) جدهم البعيد تأسيساعلى منهج التدين القديم القائم على تقديس الأسلاف " 1

أو إن إبراهيم لم يمكث طويلا في مكان واحد ، ولم يقم بأعمال مادية أو دنيوية ، تلك الأعمال التي يغرم بها المؤرخون ويحتفل ويحتفي بها التاريخ ، فهو لم يستقر في مكان واحد ، وكأني بإبراهيم يريد أن يضع قدميه في كل مكان في العالم ، لا يترك مكانا ألا وقد وضع أثر قدميه عليه ، يريد أن يستوعب العالم كله يدرسه يعرفه يفهمه يتغلغل إلى أعماقه ، لا يريد أن يغيب عن عقله وذهنه شئ من هذا العالم ، ولو يملك أن يجلس مع كل إنسان من تلك الملايين ليسبر غوره ويحدثه ويناقشه لفعل ، غافلون هؤلاء الذين يظنون أن إبراهيم كان يبحث عن العشب والكلأ ، أو كان يهرب من مكان غير مستقر

1النبي إبراهيم والتاريخ المجهول – سيد محمود القمني – صفحة (17)

وغير آمن إلى مكان مستقر وآمن ، المحرك الوحيد لرحلات إبراهيم هو هذا ، يريد أن يخرج بملخص بوصف جامع لوجدان وعقل هذا العالم ، لا يريد أن يحبسه أو يحجبه أو يمنعه شئ ، أن يلم بأحوال وأوضاع البشر في كل مكان ، الأمر أكبر وأجل وأخطر من أن يتصوره إنسان ، كيف يقدر له أو يمكنه أن يهدي أو يرشد بشرا بدون أن يعرفهم ويفهمهم ويحدثهم ويتناقش معهم ، حتى لو استقر وقتا ما ، فهو زاهد ومعرض عن كل ما من شأنه أن يثبت به وجوده في الحاضر ، كان جل ومعظم اهتمامه متجها للمستقبل ، لقد أيقن من خلال مواقف قومه معه أن العالم لن يستوعب دعوته ، حالة العالم العقلية والفكرية - حينئذ - أقل من أن ترتقي وتسمو إلى دعوته ، إنه جاء مبكرا جدا ، مثل إنسان استيقظ وكل من حوله مازالوا نياما ، وإن إيقاظهم سيستغرق وقتا وجهدا ، وهذا الوقت أطول من عمر إنسان ، والجهد أثقل من أن يقوم به إنسان منفردا " وما كان لنبوة واحدة أن تؤدي رسالة التوحيد في عمر رجل أو عمر جيل .... وإنما هي نبوة بعدها نبوات ولو كانت دون ذلك خطرا لكفى أن تقوم بها دعوة واحدة ، وأن تتكفل لها ببقائها ، ولكان بها الغنى عن التعقيب والتذكير ..

ولكن على خطرها هذا لا تتم في رسالة واحدة ، ولا تستغنى عن مرتقى بعد مرتقى ، ثم عن قرار بعد قرار " 1

وأن يمكث إبراهيم في مكان ، ويحاول مع قوم ما أو عشيرة بعينها هو إضاعة للوقت وتبديد للجهد ، وربما الذي زاد من يقينه هذا أن بلاد ما بين النهرين قد شهدت تقدما وتطورا فكريا وثقافيا وتشريعا في غاية الابداع ، والدليل على ذلك قانون (حمورابي) ، ويرجح البعض معاصرة إبراهيم لهذا العصر بصورة من الصور ، واحتضنت تلك البلاد الحضارة الأشورية والبابلية ، أي أن البشر في هذا المكان من العالم كانوا على شيء كبير من التقدم والتطور ، ومع ذلك كان لهم موقف غير محمود من دعوة إبراهيم ، إذن القضية هنا ليست تقدم وتطور عقلي وفكري ، وإنما هي متعلقة بموقف متعنت وجامد ومتحجر من دعوة هداية وإرشاد .

ثانيا :إن دعوةإبراهيم لم تكن مثل تلك الدعوات التي أعقبتها ، كأن يرسل رسولا إلى قوم بأعينهم يعيشون في مكان محدد ، ويمضي عمره في هذا المكان صارفا جهده مع قومه ، فلم يكن إبراهيم مرسلا إلى قوم بأعينهم، ولم يمض أو يمكث عمره في مكان واحد ، فقد كانت دعوة إبراهيم دعوة تأسيسية أو قاعدية

1إبراهيم أبو الأنبياء – عباس محمود العقاد – صفحة (13)

بحيث أن جميع الدعوات الدينية التي أتت بعده مستندة أو قائمة على تلك القاعدة ، ونلاحظ أن جميع الدعوات الدينية لم تخرج عن نطاق طريق رحلته الطويلة : صحراء الشام و شرق البحر المتوسط ومصر والجزيرة العربية ، وجميع الدعوات لم تخرج عن نطاق ومقاصد وأهداف دعوته .

وكان – ؛- يدرك هذا الأمر بكل جلاء ووضوح ، أن رسالته ليست آنية ولكنها مستقبلية ، فكل اهتمامه موجه لإبنائه وذريته .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ

إبراهيم: ٣٥

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ إبراهيم: ٤٠

ويدعو الله – عز وجل – أن يبعث رسولا في أمة العرب ، ويفصل مهام ومسئوليات هذا الرسول .

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ البقرة: ١٢٩

ولم يغب عنه أن يسأل الله – عز وجل – صلاح أمرهم في الدنيا كما اهتم بصلاح أمرهم في الآخرة.

رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ إبراهيم: ٣٧

حتى سيرته وذكراه يطلب أن تبقى في الأمم التي ستأتي بعده في المستقبل.

وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ الشعراء: ٨٤

" أي : واجعل لي ذكرا حسنا ، وسمعة طيبة ، وأثرا كريما في الأمم التي ستأتي من بعدي 1"

دعوة تنداح إلى المستقبل ، وصاحبها لا يهتم بالحاضر قدر اهتمامه بما ستكون عليه ذريته وأمته في المستقبل ، ويأتي الأمر إلى ذريته وأمته بأن يتبعوه ويتمسكوا بما كان عليه من هدى واستقامة .

1التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د. محمد سيد طنطاوي – المجلد العاشر – (257)

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ آل عمران: ٩٥

إذن إبراهيم لم يكن صاحب دعوة دينية وكفى .

ولم يكن مرسلا إلى قوم يبغي إصلاح أمرهم وهدايتهم وكفى .

ولم تكن رسالته محصورة في مكان وزمان محدد وكفى .

ولكن مهمة ودور إبراهيم كان منحصرا في تأسيس العالم العقائدي للبشرية ، وضع القواعد والأصول التي تصلح لكل البشر في كل زمان وفي كل مكان ، ولكي يفعل ذلك كان لزاما عليه أن يزيح هذا الركام ، أن يخلص ويطهر فكر ووجدان البشرية من الوثنية ،والأهم من ذلك أن يضع شيئا ثابتا مستقرا وراسخا يبقى على مر الأزمنة يربط أو يصل البشرية بخالقها ، هذا الرباط أو هذه الصلة قد تضعف أحيانا وقد تقوى أحيانا أخرى ،قد تظهر بجلاء وتدركها حتى الأعين الكليلة ، وقد تخفى وتدق حتى تخفى على الرائي المدقق ، ولكنها أبدا لا تنقطع وتظل عروة وثقى وآصرة متينة لا تتغير ولا تتحول بتغير وتحول ظروف البشرية ، صلة تحدد اتجاه البشرية كلها

ومقصدها وغايتها ، تخلق من الكثرة المتعددة وحدة ، تلك الصلة تصهر وتذيب وتمحي كل ما يتمايز البشر بعضهم عن بعض ، صلة تبدد كل ما في قلوب البشر من إحن وضغائن وتضفي عليهم السلام والأمن والسكينة والطمأنينة ، صلة تعطي للوجود معانيه، وأن لكل شيء في هذا الكون مقصد وغاية وهدف ، صلة تؤكد أن الإنسان مخلوق كريم وشريف وأنه ذو رسالة سامية في هذا الكون ، وقد خلق لتأدية تلك الرسالة وتحقيق تلك الغاية .

رسالة البيت :

كل هذه الأمور لن تكون إلا إذا كانت هناك بقعة أو مكان محدد ومعين تنطلق منه أو تفيض منه أنوار هذه المعاني إلى جميع بقاع العالم ، وبالتالي تنجذب أو تهفو البشرية نحوه لتسترشد لتستهدي لتستنير لتحيا ،شيء يخص الله أوخالص لله في الأرض ، وإن كانت الأرض كلها والكون كله لله ، إلا أن البشر يريدون التحديد والتخصيص والتعين ، مكانا متفردا متميزا عن غيره ، تتجلى وتتبدى فيه إمارت التقديس ، إن أحوال الإنسان متبدلة ومتغيرة ، وقد دأب الإنسان أن يجعل لكل حال مكانا ، فهناك مكان للعمل ، وهناك مكان للطعام وهناك مكان للراحة وهناك مكان للنوم، وهناك مكان للهو ، وكل مكان من تلك الأمكنة معد ومهيأ لاستيفاء الغرض منه ، إذن ليكن هناك مكان للعبادة ، وليست أي عبادة كما يهوى البشر

ولكن عبادة الله الواحد الأحد ، ولن يبنى في كل مكان أو في كل بلد بيت لله ، لأن لو حدث هذا ستختلف وتتعارض وتتناقض تلك البيوت لاختلاف وتعارض وتناقض البشر ، ولكن سيؤسس ويبنى ويقام بيت أول وأوحد وأقدس وأطهر وأطيب بيت في الأرض كلها ، بل أن الأرض ستستمد الطهر والقداسة منه .

لا شك أن كل تلك الأفكار كانت تدور في عقل إبراهيم - ؛- وكل تلك المعاني كانت تجول وتتردد في نفسه ، في بداية الأمر كانت مبهمة غامضة ، ثم بدأت تتجلى وتتتضح شيئا فشيئا ،حتى أصبحت واقعا يبحث عنه ، بل أصبحت ضرورة وفرضا لابد أن يقوم به . ولكن أين ومتى ؟ صاحب البيت هو الذي سيحدد الزمان والمكان ، وما على إبراهيم إلا أن يسعى ويجوس في بقاع الأرض منظرا مشيئة الله - عز وجل - لتحدد الزمان والمكان .

من بنى الكعبة ؟

كثرت الأراء فيمن بنى الكعبة ،وتلك الأراء تكشف رغبة البعض على أن تكون الكعبة من وضع إلهي لا شأن للبشر بها ، ولو تواضعت تلك الأراء فهي الملائكة ، ولو تواضعت أكثر فأي إنسان قام ببنائها إلا إبراهيم - ؛- فهو آدم ، أو ابنه (شيث) ، وفي رأيهم أن إبراهيم لا يزيد عن كل ما فعله عن تجديد بناء الكعبة ،

فهي كانت موجودة قبل أن يرفع القواعد ،" وروي أنه كان مؤسسا قبل إبراهيم فبنى على الأساس ، وروي أن الله تعالى أنزل البيت ياقوته من يواقيت الجنة له بابان من زمرد شرقي وغربي وقال لآدم ؛: أهبطت لك ما يطاف به كما يطاف حول عرشي ، فتوجه آدم من أرض الهند إليه ماشيا ، وتلقته الملائكة فقالوا : برًّ حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام ، وحج آدم أربعين حجة من أرض الهند إلى مكة على رجليه ، فكان على ذلك إلى أن رفعه الله أيام الطوفان إلى السماء الرابعة فهو البيت المعمور ، ثم أن الله تعالى أمر إبراهيم ببنائه وعرفه جبريل مكانه ، وقيل بعث الله سحابة أظلته ونودي أن ابن على ظلها ولا تزد ولا تنقص ، وقيل بناه من خمسة أجبل : طور سينا وطور زيتا ولبنان والجودي وأسسه من حراء وجاءه جبريل بالحجر الأسود من السماء . وقيل تمخض أبو قبيس فانشق عنه وقد خبيء فيه أيام الطوفان ، وكان ياقوته بيضاء من الجنة فلما لمسته الحيض في الجاهلية أسود " 1

كل تلك الروايات تعتمد على مجهول (رُوي ، وقيل) أما من الذي روى ومن الذي قال ؟ فلن تجد مصدرا موثقا تعتمد عليه ، وهناك بحث قيم ، بعد أن أورد صاحبه كثيرا من الأقوال المتعلقة بهذا الأمر وصل إلى نتيجة هامة " وقد روى المؤرخون والمفسرون أن أول من بنى الكعبة الملائكة وقيل آدم ، وقيل شيث .

1تفسير الكشاف – للزمخشري – الجزء الأول – (311)

وأخرج البيهقي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص : قال النبي – خ - : ((بعث الله جبريل ؛إلى آدم وحواء فقال لهما ابنيا لي بناء فخط جبريل ؛، فجعل آدم يحفر وحواء تنقل ، فلما بنياه أوحيى الله إليه أن يطوف به ، وقيل أنت أول الناس وهذا أول البيت)) .

ولكن هذا الحديث تفرد بروايته ابن لهيعة مرفوعا وهو ضعيف والصحيح أنه من قول عبد الله بن عمرو بن العاص – رضى الله عنهما – ويكون من الزاملتين اللتين أصابهما يوم اليرموك ، من كلام أهل الكتاب . انتهى

كما ثبت من حديث محمد بن أحمد بن يزيد قال : حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري ،حدثني القاسم بن عبد الرحمن حدثنا أبو حازم (نبتل) مولى ابن عباس ، عن ابن عباس ، عن النبي خ : أن آدم اتى ألف أتية لم يركب قط فيهن من الهند على رجليه .

قال الحافظ ابن كثير في تفسير قوله :

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ البقرة: ١٢٥

فقد اختلف الناس في أول من بنى الكعبة ، فذكر الأقوال الواردة في ذلك ووصفها بالغرابة ، ثم قال : وغالب من يذكر هذا إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب ، وهي مما لا يصدق ولا يكذب ، ولا يعتمد عليها بمجردها ، وإنما إذا صح حديث في ذلك فعلى الرأس والعين)).

قلت : وعلى هذا فالصحيح الثابت بالنصوص العلمية القطعية من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله - خ - أن أول من بنى الكعبة إنما هو إبراهيم ؛قال تعالى : (وأذنفي الناس بالحج) إنما هو إبراهيم ؛. ولم يأت خبر عن المعصوم أن البيت كان قبل إبراهيم 1"

1الحرم المكي الشـــريف والأعلام المحيطة به – بحث وإعداد الدكتور : عبد الملك بن عبدالله بن دهيش – صفحة (21) 1415-1995

إذن هناك أخبار كثيرة وأقوال وروايات تريد أن تثبت وترجح أن الكعبة لم يبنها إبراهيم – ؛- ولا أدري سببا لذلك ، فلم لا يكون إبراهيم هو الذي بنى الكعبة ، وأن الكعبة لم تكن موجودة قبل إبراهيم ، وإن كانت موجودة فلم لا يعلم الناس عنها شيئا ؟ وإن كانت موجودة فما جداوها وليس لها أي أثر يذكر في حياة الناس العقائدية ، سواء بالحق أو الباطل ؟

ونحن إن بحثنا عن دليل قوي يدل على وجود الكعبة قبل إبراهيم ، فلن نجد ما يسعفنا في هذا المقام ، وكل الدلائل والشواهد تثبت بمالا يدع مجالا للشك أن الذي بنى الكعبة على غير سابقة هو إبراهيم ، وهؤلاء الذين يرون أن البيت كان موجودا قبل إبراهيم ، وأن هناك من تولى البناء غير إبراهيميريدون أن يضفوا جلالا فوق جلاله ، وقدسية فوق قدسيته ، مع أن هذين الأمرين متوافران ببناء إبراهيم للكعبة ، فلا الملائكة هم الذين بنوا الكعبة ، وكيف يتولون عن البشر بناءً من الممكن للبشر أن يبنوه ؟ ولماذا يبنون بيتا سيمثل ركنا هاما من أركان عالم البشر العقائدي ؟ ولم يبنيه آدم ولم يكن ثمة ضرورة ملحة لوجود بيت ،ونحن نعلم أن عطاء ومنن السماء لأهل الأرض لا يكون إلا بعد أن تظهر حاجة البشر لهذا العطاء ،

ورغبة البشر لهذا المن ، حتى يتلقونه من السماء على تشوق وعلى حسن استقبال ، فلم يكن الناس متفرقين شيعا ، وموزعين مللا ونحلا ، حتى يكونوا في حاجة إلى من يجمعهم ويوحدهم تجاه قبلة واحدة ، في زمن آدم ، ولا في أي زمن مثلما كان الأمر في زمن إبراهيم - ؛- لقد كثرت المعابد والمذابح كثرة عظيمة زمن إبراهيم ، حتى أن إبراهيم نفسه كان يقيم مذبحا في كل مكان يذهب إليه ، " من الواضح في إصحاحات التكوين ، إنه لم يستقر زمنا في مكان واحد ، وكلما أناخ في موطن بنى مذبحا لربه ، أوبالتعبير المتواتر (بنى هناك مذبحا ودعا باسم الرب) " 1

إذن هناك مبرر لوجود بيت لله ، وهو أن هناك بيوت تتخذ لله وهي ليس كذلك ، فأريد أن يتخذ بيت حقا لله يذكر فيها اسمه ، أو أن هناك بيوت كثيرة ومختلفة ومتنازعة ، فأريد أن تتجمع وتتوحد وتتفق ، أو لا يوجد بيت لله فأريد أن يكون ببيت لله منه تنطلق آيات وكلمات التوحيد لتكون للبشرية نورا وهدى.

1إبراهيم ذلك التاريخ المجهول – محمود سيد القمني – (73)

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ البقرة: ١٢٥

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ آل عمران: ٩٧

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

المائدة: ٩٧

وفرق كبير بين اختيار مكان الكعبة وتحديده وتعينه ، وبين بناء الكعبة ، والذي اختار المكان وعينه وحدده هو الله – عزوجل- والذي بنى هو إبراهيم عليه السلام.

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ الحج: ٢٦

ولكن لم هذا المكان بصفة خاصة ؟ وبما يمتاز هذا المكان عن غيره من الأمكنة ؟

هذا فضول بشري لا محل له هنا ، فمجرد أن يقع اختيار الله - عز وجل - على مكان ، هذا في حد ذاته يجعله مميزا ومفضلا عن غيره ، ويعطيه كل القداسة والجلال ، فلا نسأل - بعد ذلك - لم هذا المكان وما ميزته وما فضله ، ونظل نبحث في ذلك ونتعسف ونتعنت في الإجابة ، فكل الأرض أرض الله ، وله - عز وجل - أن يختار ما يشاء ، ولنا أن نجل ونقدس ما وقع عليه اختيار الله ، وليس لنا أن ندخل في تفسير مشيئة الله ، والتي لا يعلمها إلا هو ، وربما البعض يريد أن يعلل سبب بناء إبراهيم - ؛- البيت في هذا المكان ، فأرجعه أنه مختار من قبل مجيئه ، ولكن يظل السؤال يطاردنا فإذا افترضنا أن الملائكة هم الذين قاموا ببناءه أو آدم - ؛- ، فلماذا هذا المكان دونا عن غيره ؟ وما ميزته و ... و ... كثير من الأسئلة ليس لها من إجابة سوى أن هذا المكان أو هذه البقعة قد اكتسبت قدسية وجلالا وكرامة لأن الله - عز وجل - اختارها لتكون بيتا مطهرا محرما آمنا ، وليكون قبلة للبشر يولون وجوههم شطره .

و هناك فرق شاسع بين بناء بيوت البشر ، وبين بناء بيت الله ، فالبشر يرفعون الأساس أو القواعد ، ثم يرتفعون بالبناء فوق تلك القواعد ، لذلك فأي بناء ينقسم إلى قسمين قاعدة وبناء ،أوقاعدة وسقف، أما الأمر بالنسبة للكعبة - بيت الله – فكلها قاعدة وليس ثمة بناء فوق تلك القاعدة ، وهذا ما أوجد اللبس عند البعض ، فحينما نقرأ قوله تعالى :

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ البقرة: ١٢٧

فالكعبة قاعدة أو أساس لبقية بيوت الله في جميع بقاع الأرض ، فهو ليس بناء كأي بناء ، ولكنه متفرد ولا نظير ولا مثيل له ، وأي بيت يبنى لعبادة الله لا يكتسب التشريف والقداسة إلا إذا كان موصول العلاقة بينه وبين هذا البيت .

والمقصود بكلمة (يرفع) (قال الزجاج قال الحسن تأويل أن ترفع أن تعظم قال الحسن : تأويل أن ترفع أن تعظم قال : وقيل معناه أن تبنى) اللسان (1691)

(رفع البناء ونحوه - رفعا ورفاعا : أعلاه ورفع الشيء حمله ونقله) الوجيز (271)

(والرفع : تقريبك الشيء من الشيء ، وفي التنزيل (فرش مرفوعة) أي مقربة لهم) اللسان (1690)

(وقال الفراء : وفرش مرفوعة أي بعضها فوق بعض) اللسان (1690)

فيرفع هنا: يبني ، ولكن البناء هنا خالص لوجه الله ، فهو بناء تشريف وتعظيم وتقديس للبناء والباني وللمكان والزمان اللذين بنيا فيهما ،وأي بناء يتوافر فيه هذه الشروط ، وتحيط به تلك المواصفات ، فليس ببناء ، وإنما هو قاعدة ،وتلك القواعد التي يبنيها (إبراهيم) ليست شيئا غريبا أو طارئا عن البيت وإنما هي من البيت ، فهي ليست مجرد وسيلة أو أداة لشيء آخر وإنما هي الهدف والغاية ، وليس بعدها غاية أو هدف .فهذا البيت مستفرغ الأغراض التي تبنى من أجلها البيوت ،فهوليس لأحد وإنما لله ،ولن يمارس فيه شيء من أمور الحياة العادية ، وإنما ما يفعل فيه للحياة الآخرة ، ولن يعبد فيه أحد سوى الله ، ولن يحدث فيه أي تبديل أو تحويل أو تغيير ، فسيظل كما بناه إبراهيم إلى أن تقوم الساعة .

الفصل السادس
ميراث النبوة

الأبوة :

للأبوة معان كثيرة ، ولكن أهمها وأجلها شأنا ما يورثه الأب لأبنائه ، أو ما يتوارثه الأبناء عن الأب من قيم ومبادئ وأخلاق فاضلة ، وهناك الأبوة في معناها الأدنى والتي يشترك فيها جميع الخلائق ، وهي تسير على وتيرة الطبيعة المعتادة والمنتظمة ، والتي تقل وتتضاءل وتكاد تمحى عند بعض أصناف الحيوانات وتزيد وتظهر بجلاء عند البعض الآخر .

والأبوة عند بني الإنسان لها شأن آخر ، فالأب هنا يظل يتعهد أبناءه بالحدب والرعاية إلى أن يبلغوا مبلغ الرجال ، وقد يمتد حدبه ورعايته أكثر وأكثر إلى أحفاده ، وليس الأمر هكذا مع بقية أباء المخلوقات الأخرى ، فعند بعض الحيوانات تقتصر مهمة الأباء على الوظيفة التناسلية فقط ، فكل دوره مقصور على وضع بذرته في رحم الأنثى ، وبعد ذلك لا يعلم شيئا عن أنثاه ،ولا عن أولاده ، والبعض الآخر يرعى أولاده حتى يستطيعوا الاعتماد على أنفسهم ، حتى إذا بلغوا هذا الشأن فهو لايعرفهم ، وهم لا يعرفونه ، بل مع مرور الوقت قد ينشأ صراع بين الأب وابنه وينتهي بقتل أحدهما للآخر .

والأبوة مع بني الإنسان – وهي تربو وتتفوق وتزيد عن الأبوة عند جميع المخلوقات – لم تتجاوز نطاقها الأدنى ؛ لأن الأب هناينزل على حكم الطبيعة المدفوعة بالغريزة العجماء ، بدليل أن الأب قديقتل أبناء الآخرين في سبيل الإبقاء على أبنائه ،وقد يؤثر ويفضل أبناءه عن أبناء بقية النوع ، فحب الأب هنا لأبنائه نوع من الأثرة ، وقد تتأصل وتترسخ تلك الصفة ليؤثر الأب ابنا واحد من بين جميع أبنائه .

أما الأبوة في نطاقها الأعلى والأرقى والأسمى ، أن تكون تلك العاطفة صاردة عن الأب كشعاع الشمس ، تشمل كل من يتعرض لها ، لا تفرق ولا تميز بين أحد ، بل قد تسعي سعيا حثيثا لتصل إلى كل حي من الأحياء ، لا تترك مكانا إلا وتنفذ إليه لتنيره وتبعث فيه الحياة والحركة .

كذلك الأبوة الحقة لا تناط تلك العاطفة أو الصفة بوجود الأبناء ، فهي – الصفة – موجودة أصيلة راسخة في وجدان هذا الشخص ، وليست مقصورة على عدد معين أو محدود ، فهي تشمل كل ما يمت له أو لا يمت له بصلة ، والأبوة هنا ليست متحققة بالنسبة للقريب او البعيد فحسب

بل متحققة بما يحرص عليه الأب أن يورثه لمن يجيء بعده من قيم ومبادئ وأخلاق فاضلة ....كل تلك الصفات متحققة وموجودة بجلاء في إبراهيم ،بل لم تبرز إلى الوجود ويعرفها ويعهدها الجنس البشري إلا مع إبراهيم ؛.

فإذا كان الأنبياءهم صفوة الخلق وجماع كل المكارم والفضائل ونهاية ما تطمح إليه البشرية من كمال وتمام ، ويجسدون المثل العليا في صورة أفعال ومواقف ، ويورثون الإنسانية ما انجزوه وحققوه من مكاسب ومغانم روحانية ،وهم أصحاب الفضل والمنة لما وصلت إليه الإنسانية من استقامة ورشاد ؛ لأنهم ساروا على هديهم وإرشادهم ...إذا كان للأنبياء كل هذا الفضل ، فإن لإبراهيم - ؛-الفضل والمنة على جميع الأنبياء ؛ لأنه استطاع بما جمع وحوى من صفات وخلال وبما اتخذه من مواقف وأفعال أن يفتح لهم أبواب عالم النبوة ، ويمهد ويشق لهم سبلا وطرقا ليرتقوا من خلاله إلى درجات الكمال البشري

وقد تحققت في إبراهيم أبوته للأنبياء ؛ لأن تلك الصفة قد تملكته وملأت عليه شعاب نفسه ، ليس هذا فحسب بل فاضت على من حوله ، فنبوة إسماعيل وإسحاق ويعقوب - عليهم السلام - منبثقة من نبوة إبراهيم ، ونبوة جميع الأنبياء منبثقة من هؤلاء .

فإذا كانت النبوة شجرة مباركة فإبراهيم أصلها الثابت .

وإذا كان عين وجود الأنبياء البشرية ، فإن عين وجود إبراهيم النبوة ، فعماد شخصيته النبوة ، حتى ما يتم دعوته من صفات أخرى ، التي تقوم بذلك هي النبوة ، فما يتوافق معها تتبناه وتؤصله وترسخه ، وما تأباه تبعده وتنفيه ، فصفة البشرية لديه مطاوعة ومتفقة ومتسقة لصفة النبوة ، وإذا كانت لدى الأنبياء البشرية هي السائدة والإستثناء النبوة ،فإن الأمر مع إبراهيم النبوة هي السائدة والإستثناء البشرية ، وما بقى من صفات البشرية في شخصيته صبغته النبوة بصبغتها ، واصطبغت البشرية بصبغة النبوة ، واستطاع إبراهيم أن يروض نوازع البشرية لتخضع لطموحات وإرتقاءات النبوة وعزمها ، وهذا يفسر إقدامه على ذبح ابنه بكل ثبات وتماسك وبدون أدنى تردد ،وبمقاييس ومعايير البشرية لانتخيل أن يقدم أب على ذبح ابنه ، وليس بمقدور أحد من البشر الإقدام على ذلك والشروع في تنفيذه ، والآيات لم تعرض أي نوع من أنواع التردد ، أو أي صراع من أي نوع بين نبوة إبراهيم وبشريته ،أو حتى مراجعة إبراهيم لنفسه ،بل اندفعت النبوة بكل عنفوانها وقوتها ، ولم تترك فرصة للبشرية أن تعرقل سيرها أو تحول بينها وبين تحقيق مقصدها ، ولم لا نقول أن البشرية - لدى إبراهيم - واكبت نبوته بل أربت عليها في هذا الشأن ، فلم تفارقه بشريته ولا أبوته ولا حنانه ولا رحمته في تلك اللحظات العصيبة ،

فهي يقول : (يا بني) ، ولم يتوقف الأمر عندهذا ، بل أفاض إبراهيم من تلك الصفة على إسماعيل ، ويرد عليه (يا أبتي) وأصبح الاثنان شخصا واحدا يسعى سعيا حثيثا لتحقيق مراد ومشيئة الله (فلما أسلما) .

الميراث:

ما الحكمة أن يكون إبراهيم -؛- أبو الأنبياء ؟

بل ما الحكمة أن يكون هناك أب للأنبياء بصفة عامة ؟

ونزيد الأمر تحديدا ونسأل ما الحكمة أن تكون النبوة في ذرية واحدة؟

لماذا انحصرت النبوة في ذرية واحدة ولم تتفرق في أكثر من ذرية ؟

أولا :ليعلم الناس أن ما يصدر عن كل الأنبياء صادر عن مشكاة واحدة لا خلاف ولا اختلاف بينهم ،فهم إلى جانب أنهم متحدون في الأصل والأرومة متحدون فيما يقولون به وفيما يبلغونه .

ثانيا :يسهل على الأنبياء والرسل مهمتهم ، فليس بغريب ولا عجيب أن يقتنع النبي والرسول ويتحمل مهمته ويؤدي واجبه الدعوي ، فقديما كانت النبوة والرسالة في أجداده ، فهو ميراث سماوي يتوارثه الأبناء عن الأباء ،فهم سلسلة متصلة ومترابطة الحلقات .

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (34) آل عمران: ٣٣ - ٣٤

ثالثا :تفصل بين كل رسول ورسول فترة من الوقت قد تطول بين رسول ورسول وقد تقصر ، تلك الفترات المتخللة بين الرسالات السماوية ، قد تفسد الضمائر وتتضارب الأهواء وتثور الشكوك فيما مضى من رسل وبالتالي فيما سيأتي في المستقبل ، لذلك كانت الرسالات السماوية كالشجرة الضاربة بجذورها المباركة في الأرض ، وتلك الشجرة تتحدى المشككين والذين يبغون الحياة البشرية عوجا ، والشيء الوحيد الذي ييسر عليهم عملهم الشيطاني هذا ، هو الطعن في جوهر تلك الرسالات ، فتلك الشجرة تتحدى أغراضهم ، ومقاصدهم ، فأنت إذا شككت في الثمرة فلن تشك في الأوراق وإذا شككت في الأوراق فلن تشك في الأغصان وإذا شككت في الأغصان

فلن تشك في الساق ، وإذا شككت في الساق فلن تشك في الجذر ، فهؤلاء يستعصى بل يعجزون أن يشكوا في نبي أو رسول ، لأنهم - الأنبياء والرسل - كما قلنا سلسلة مترابطة متصلة لا انفصال بينها ، وجاءت الرسالات المساوية لتؤكد وتؤصل هذا المعنى

۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورً النساء: ١٦٣ - ١٦٥

قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ الأحقاف: ٩

"أي وقل لهم - أيها الرسول الكريم - إني لست أول رسول أرسله الله - تعالى -إلى الناس ، وإنما سبقني كثيرون أنتم تعرفون شيئا من أخبارهم ومن أخبار أقوامهم ، وما دام الأمر كذلك فكيف تنكرون نبوتي ، وتشككون في دعوتي "[1]

رابعا :أي ظاهرة في الكون لابد أن يكون لها بداية ، ويكون لها خاتمة ، وبين البداية والخاتمة ثمة أحداث منطقية وعقلية تربط بين النقطتين ، فإذا كانت الرسالات السماوية ظاهرة بشرية ، أي ارتبطت بظهور الإنسان على هذه الأرض ،

1التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . محمد سيد طنطاوي – المجلد الثالث عشر – صفحة (184)

فليس هناك بداية لها إلا بإبراهيم – ؛، وليس لها من خاتمة سوى بمحمد – خ – وإلا إذا رفضنا تلك البداية وتلك الخاتمة ، فأي بداية أخرى وأي خاتمة يقتنع بها العقل ويرتضيها غير ما عرضناه " إن قرائن الثبوت في سيرة الخليل أقوى جدا من كل قرينة للشك ينتحلها من يتحدث باسم العلم، والعلم من حديثه براء ، فالذي يقول إن وجود الخليل مشكوك فيه من الوجهة العلمية يظلم العلم ويحمله جريرة لا يحملها لأن سيرة الخليل ليست من السير التي يشك فيها العالم ، بل هي سيرة يبحث العالم إن لم يجدها ، إذ كانت الدعوات النبوية سلالة واحدة يرتبط اللاحق منها بالسابق ، ولا يمكن الرجوع ببداءة لها أصدق من بداءتها بدعوة إبراهيم .

إن الدعوات النبوية التي بدأتها دعوة إبراهيم سلالة لم يظهر لها نظير في غير الأمم السامية ، وقد ختمت بدعوة محمد وجاءت دعوة محمد متممة لها ، فلا تفهم واحدة منها منفصلة عن سائرها ، بترتيب كل منها في زمانها ،وعلاقة كل منها بمكانها فلا لبس فيها من جانب العصر ولا من جانب البيئة "1

1إبراهيم أبو الأنبياء – عباس محمود العقاد – (188)

فدعوة إبراهيم تؤكد دعوة محمد - عليهما السلام - ودعوة محمد تؤكد دعوة إبراهيم ، والدعوتان تؤكدان حقيقة وواقعية ظاهرة النبوة .

فهي شجرة مباركة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، الجذر والأصل واحد ومتحد ، وكل فرع الشجرة تنتمي إلى الأصل والجذر ، وكل منهما مرتبط بالآخر.

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ العنكبوت: ٢٧

خامسا :أمنية شريفة ، وطلب نبيل من الأنبياء ، فلا يشغل شيء النبي قدر ما يشغله ماذا سيكون الوضع بعده ، هل ستستمر الرسالة وتصان تعليمها ويشد على مبادئها وقيمها ، أم أن كل ما فعله سيتبدد وتضيع كل جهوده هباء ، وهو يتمنى أن يخلفه أحد من صلبه يأتمنه أن يحافظ على ميراث البنوة ، وهذا ما صرح بهزكريا – ؛- وتمنى ان يهب الله له ابنا لا لشيء إلا ليحافظ على ميراث النبوة .

كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6) مريم: ١ - ٦

فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (90) الأنبياء: ٨٩ - ٩٠

وهو إحساس نبيل من النبي أن مهمته ودوره لا ينتهيان بمجرد مغادرته هذه الحياة الدنيا ، بل يعتبرون أن دورهم ومهمتهم لا يبدآن إلا بعد ذلك، وهم مشفقون على رسالتهم أن يتولى أمرها من لا يحسن القيام عليها ، بل قد يهملها ويفرط فيها ، وقد يكون وبالا على الدعوة ،

" إن زكريا يشفق ، بل يخاف على تلك الشعلة الواهنة من التوحيد التي يحملها قومه – بنو إسرائيل – وسط عالم من الإلحاد والكفر والوثنية، يخاف عليها أن تنطفئ ويسود العالم ظلم وظلمات الشرك ، وهو لا يرى أحدا يصلح أن يتسلم تلك الشعلة ليحافظ على وهجها ، أو يزيدها توهجا ، ويرسل ضوءها في الأنحاء ، بل أن قومه بدلا من أن يكونوا عونا ومساعدين له ، ورسل هدى ومبشرين بالنور القدسي ، يمثلون عبئا عليه ، ومثبطين ومحبطين له ،بل لقدسرى الشرك والوثنية والخرافات من الأمم والشعوب الأخرى إليهم ، لا لم يسر ، بل هم الذين سعوا إليه ، ونقلوه إليهم ، وتشبهوا بتلك الأمم والشعوب ، وتزيوا بأقبح وأردأ ما تتزيابه الشعوب والأمم .

هو يعلم مدى ضعفهم وتهافتهم ، ودناءتهم ووضاعتهم ،وأنهم أصحاب دنيا ،وأنهم على استعداد بل لديهم الرغبة أن يهبطوا إلى ما دون ذلك ، لذلك يعز على "زكريا" بل يؤلمه أشد الإيلام ، ويشقيه أكثر الشقاء ، أن يضيع ويتبدد ويتلاشى هذا الميراث العظيم والجليل من الأنبياء والرسل، ما يقرب من أربعين نبيا حرصوا حرصا شديدا أن تظل تلك الشعلة المقدسة من التوحيد متوهجة لا تخبو ولا تنطفئ ، وهو آخر تلك السلسلة المباركة ،تلك حقيقة أدركها كل أنبياء بني إسرائيل ، وأدركها بجلاء ونصوع "زكريا" – ؛–

حينما ألقى نظرة على تلك السلسة الطويلة من الأنبياء، وعرف أنه لا فائدة ترجى من هؤلاء القوم ، وأنهم طغمة فاسدة ومفسدة ، وإن كانت طبيعته النبوية الشريفة بددت عن نفسه أشباح اليأس والقنوط ، وجعلته يرجو أو يتمنى أن يكون هناك رجل رشيد يرد هؤلاء القوم إلى صوابهم ، ويعيد الرشد إلى عقولهم "1

" هاجس الدين هاجس ملح لا يفارقه ، فهو تارة ينادي ربه ألا يتركه وحيدا بدون أن يكون له عقب ، وتارة يدعو الله أن يهب له ذرية طيبة يواصلون حمل رسالة النبوة ، وتارة ينادي ربه بعد أن قدم عريضة عرض حالة ، ومبررات وأسباب طلبه أن يهبه وليا ، وحدد مهمته ودوره ، أنه يرثه ويواصل مهامه ومهام آل يعقوب ، وأن يكون رضيا ، يستحق أن يرضى الله عنه ، وأن يرضى الناس عنه ، وأن يرضى هوعن نفسه ."2

والذي يحرك تلك الأمنية في صدر النبي إحساس دفين أنه لم يؤد مهمته على أكمل وجه ،أو هو إحساس أن عمر النبوة أكبر وأرحب من عمر الإنسان ،إنه في حاجة إلى أعمار وأعمار ، وأن تعاليم ومبادئ النبوة باقية وممتدة إلى ما شاء الله ، وغيرتهم على النبوة وشدة حرصهم عليها يتمنون أن يظلوا مع النبوة أو أن تظل النبوة معهم

1شخصية المسيح – محمودالقليني – (35)

2المصدر السابق (37)

وهذا محال في حياتهمالقصيرة الموقوتة ، إذن فلتظل النبوة في ذريتهم يرثها ابن عن أب ، ويعتبر إبراهيم- ؛-من أكثر الأنبياء انشغالا واهتماما وحرصا على من سيأتي بعده لاسيما من ذريته ، وكل الأنبياء ساروا على هذا النهج القويم ، أن نظرتهم لم تكن منحصرة في زمانهم ، أو في قومهم الأقربين ، ولكن أمتدت ووسعت وشملت على ذريتهم

وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ البقرة: ١٢٤

وهذا موقف – من مواقف كثيرة – يدل على عظمة وسمو ورقي شخصية إبراهيم ، فهو فى موقف يتلقى عن ربه أعظم البشريات ، موقف تنصيب إلهي له ليكون للناس إماما في كل شيء ، هذا موقف يخرج الإنسان عن طبيعته المعتادة ، موقف مفعم بالفرح والسعادة ، فقد وصل إبراهيم إلى رضا ربه وإنعامه عليه بالإمامة ، الله – عز وجل – ينعم على عبد من عباده بالإمامة وهذا –في حد ذاته – تشريف ليس بعده تشريف ، ورقي ليس دونه رقي ، والمفروض أن يشغل الإنسان تبعات هذا التكليف أو امتيازاته ، لم يفكر إبراهيم في هذه الأمور ،

ولم ينشغل بذاته أو بأي شيء أخر سوى ذريته ، وكأن إبراهيم يحدث نفسه ، أو يحدث ربه - عز وجل - قائلا : وأنا وإن كنت وصلت - بفضل الله وإنعامه على - إلى تلك الدرجة العظمى وإلى تلك المنزلة الكبرى التي ليس بعدها مطلب أو مقصد ، وذريتي - يا ربي - ألم تنل شيئا من تلك الإمامة ؟ ألم يصبها فيض من تلك الفيوض الربانية ؟ فإذا كنت في مقام الإنعام والفضل والمن والرضا ، فأنا أطلب منك - يا الله - أن تشمل بفضلك وكرم وإنعامك ورضاك من ذريتي ، ولم ينس إبراهيم - في هذا الموقف العظيم - آداب الدعاء ، وأن يلتزم بما يجب أن يلتزم به النبي وهو يخاطب الله - عز وجل - ولم تتخل عنه حصافته وكياسته فقال : (ومن ذريتي) لأن تلك المنزلة - الإمامة - لا يصل إليها إلا كل مصطفى ومجتبى ومن تعرض للبلاء وأثبت البلاء أنه يستحق ، والله لا ينعم على عبد من عباده إلا بما يستحقه وبما هو جدير به ، وليس كل إنسان سينجح في الابتلاء ويثبت عبوديته لله ، وترتيبا على ذلك يستحق إنعام ومكافأة الله ، فقال إبراهيم : (ومن ذريتي) أي ينال تلك المنزلة والمكانة والإنعام عدد من ذريتي ، واستجاب الله لدعائه حينما استثنى وحرم من ذلك التشريف والعهد الظالمين ، إبراهيم - ؛- يطلب الإمامة والعهد لأفراد لم يرهم ولم يعرفهم ، سيأتون بعده بعشرات ومئات السنين ،وما الذي يشغلك بهؤلاء يا إبراهيم ؟ ألا يكفي أن تنشغل بنفسك وقومك وقضايا ومحن ومآزق عصرك ؟!

إنه إبراهيم ، قبس من نور، شاء الله له أن يظل شعاعه يسطع ويمتد ويبدد ظلام الجهل والكفر في جميع الأزمنة ولا يقتصر على زمن واحد ، وإليه يرجع الفضل في بداية عهد ما يسمى بميراث النبوة ، أن تكون هناك نبوة متوارثة يتلقاها الأبناء والأحفاد عن الآباء والجدود ، وكأن إبراهيم كان ضنينا على هذا الحبل المبارك من النبوة أن ينقطع ، وعلى تلك السلسلة العظيمة أن تنفصل حلقاتها ، وتظل الإسانية في شقاء وألم إلى أن يقيض الله لها من يهديها من البداية ، لقد أدرك إبراهيم أن حال الإنسانية أكبر من أن يصلحه نبي أو اثنان ، إن الإنسانية في مسيرتها الطويلة في حاجة إلى النبوة بصفة مستمرة ، وأمراضها واعوجاجها وفسادها في حاجة إلى أن تكون النبوة ظاهرة طبيعية ولها مكانها المعروف والمعتاد كالشمس والقمر ،" وما كان لنبوة واحدة أن تؤدى رسالة التوحيد وتفرغ منها في عمر رجل أو عمر جيل ..وإنما هي نبوة بعدها نبوات ..

ولو كانت دون ذلك خطرا لكفى أن تقدم بها دعوةواحدة ، وأن تتكفل لها ببقائها ، ولكن بها الغنى عن التعقيب والتذكير ...

ولكنهاعلى خطرها هذا لا تتم في رسالة واحدة ولا تستغنى عن مرتقى بعد مرتقى ، ثم عن قرار بعد قرار " 1

إن ما نعمت به الإنسانية من من اطراد ظاهرة النبوة يرجع فضله الأول والأخير إلى إبراهيم ، كان من الممكن أن لا يرسل الله - عز وجل - تلك الكوكبة من الأنبياء والرسل ، ويكتفى بنبي واحد حتى يكون بشيرا ونذيرا وحجة قائمة على البشرية ، ولكن عظمة إبراهيم وإنسانيته ورحمته وشفقته وخوفه وحرصه وحدبه ورأفته بالبشرية دفعه أن يطلب ويدعوأن تكون هناك نبوة ، ليس هذا فحسب وإنما أن تكون متوارثة بين عدد من ذريته " وجملة (قال ومن ذريتي) واقعة موقع الجواب عما من شأنه أن يخطر في نفس السامع ، فكأنه قال : وماذا كان من إبراهيم عندما تلقى من ربه تلك البشارة العظمى ؟ فكان الجواب أن إبراهيم قد التمس الإمامة لبعض ذريته أيضا .

أي قال إبراهيم : واجعل يا ربي من ذريتي أئمة يقتدى بهم .

1إبراهيم أبو الأنبياء – عباس محمود العقاد – صفحة (9)

وإنما قال إبراهيم ومن ذريتي ولم يقل ذريتي ، لأنه يعلم أن حكمة الله من هذا العالم لم تجر بأن يكون جميع نسل أحد ممن يصلحون لأن يقتدى بهم فلم يسأل ما هو غير مألوف عادة لأن سؤال ذلك ليس من آداب الدعاء .

أي قال الله لإبراهيم : قد أجبتك وعاهدتك بأن أحسن إلى ذريتك لكن لا يصيب عهدي الذي عهدته إليك بالإمامة الذين ظلموا منهم ، فالعهد هنا بمعنى الإمامة المشار إليها في قوله : (جاعلك للناس إماما) .

وفي هذه الجملة الكريمة إيجاز بديع ،إذ المراد منها إجابة طلب إبراهيم من الإنعام على بعض ذريته بالإمامة كما قال – تعالى - (وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب) ولكنها تدل صراحة على أن الظالمين من ذريته ليسوا أهلا لأن يكونوا أئمة يقتدى بهم ،وتشير إلى أن غير الظامين منهم قد تنالهم النبوة ، وقد نالت من ذريته إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وغيرهم من الأنبياء .

قال تعالى : (وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين)1."

والبشرية في عنقها دين عظيم لإبراهيم - ؛- لأنه دعا الله أن تكون هناك سلسلة متصلة ومستمرة ودائمة من الأنبياء ، وتلك - في حد ذاتها - أجل نعمة وأعظم منة من الله على عباده ،والأنبياء - أيضا - في عنقهم دين عظيم لإبراهيم ،لأن لولا دعوته ما كان خرج من البشرية تلك الصفوة الشريفة من الأنبياء التي حملت شرف رسالة التوحيد من الله إلى البشرية ، وأصبحوا مراتب ومنازل تتيه بهم البشرية وتفخر ، أن من طينتهم ومن نوعهم استطاع صنف أن يسمو ويرتقى ويدنو ويقترب من الذات الإلهية ، ليس هذا فحسب بل ، يحوز ويكتسب ويفوز برضا الله ، وتلك أسمى صور تكريم الله - عز وجل - لبني آدم .

1التفسير الوسيط – د .محمد سيد طنطاوي – المجلد الأول – صفحة (267)

الفصل السابع
رؤيا إبراهيم

الأنبياء يحلمون كما يحلم سائر الناس ، ولكن تختلف أحلامهم كما تختلف شخصياتهم عن بقية شخصيات الناس ، فإذا كانت أحلام البشر تشتمل فيما تشتمل عليه من رغبات يخجل ويستحي أن يعبر عنها ، وعلى أضغاث أحلام لا رابط بينها ولا تفسير منطقي لها ، وهذا كله كاشف عن شخصياتهم، فإن أحلام الأنبياء عكس ذلك تماما ، فليس هناك نقصأو اختلال أو اعوجاج في شخصياتهم ، ورغباتهم في قمة السمو والرقي ، لذلك تأتي أحلامهم لتعكس كل هذا ، وهناك مقولة لبعض الباحثين في دراسة الأحلام تقول : نحن مسؤلون عن أحلامنا ، بمعنى نحن الذين نصنع ونصوغ أحلامنا ، فكيف ننسب أحلامنا إلينا ، ثم نتبرأ من تلك المسؤلية ؟ ولكن نحن نتبرأ من تلك الأحلام إذا كانت سيئة وتكشف عن نقص واعوجاج وفساد في الشخصية ، معللين بذلك إننا كنا نياما ولا حرج على النائم في أي شيء يأتيه أو يفعله ، وليس هناك من قانون يعاقب الحالم على أحلامه ،والمسؤولية هنا مسؤلية أدبية ، بمعنى إن كانت الأحلام – في الغالب – سيئة ، فهذا دليل على سوء أفعال الإنسان ،

وإذا كان الإنسان يهذب من نفسه ويترقى بها ويشغل ويشاغل نفسه بالقيم والمبادىء والمثل العليا ، لجاءت أحلامه في هذا الإطار ولا تبتعد عن هذا الأمر بأي حال من الأحوال.

وإبراهيم رأى فضل الله عليه عظيما وعميما ، وتحركت نفسه لفعل شيء يعبر عن هذا الشكر والامتنان ، فأراد أن يقدم قربانا يعكس مدى اعترافه بهذا الفضل وكذلك يعبر عن مدى حبه لربه ، ياترى ماذا يكون هذا القربان ؟

ولكن أمن الضروي مثل هذا القربان ؟

نعم ، لأن هذا القربان دليل وبرهان على تفضيل المعبود والارتفاع به فوق تلك الأعراض ، وكلما ارتفعت قيمة القربان دل ذلك على شدة حب من قدم القربان للمعبود .

ومرت القرابيبن بتلك المراحل التي مرت به تطور الأفكار والمشاعر نحو المعبود ، فبدأت بالشيء الهين اليسير ، حتى وصلت إلى درجة من الضخامة والعسر ، وصلت إلى أن يكون القربان نفسا بشرية ، ليس هذا فحسب بل يكون هناك آصرة أو علاقة بين المضحي ومن ضحي به ، بل الأمر تصاعد أكثر وأكثر وصار أن يضحي المضحي بالبكري من أولاده لما لهم من منزلة ومكانة لا يشركهم ولا يشاركهم فيها بقية الأبناء

. ونستطيع أن ندرك مدى حب ومعزة ومكانة إسماعيل – ؛– عند والده ، فقد رزق به على كبر ، وهو الذي طلب أن تتحق له تلك الأمنية ، (رب هب لي من الصالحين) ، وإذا كان إبراهيم – ؛– قد فرح وسعد بمولد ابنه ، فلا نشك أن تلك السعادة قد زادت في قلبه بمرور الأيام وهو يراه أمامه ينمو ويكبر ، وبما يتصف به إسماعيل من صفات طيبة وأخلاق نبيلة ، فقد كان وهو غلام حليم ،مع أن من لوزم تلك المرحلة السفه والطيش، وكان – أيضا- يتصف بالصلاح والتقى ، وطاعة وبر بوالده ، كل تلك الصفات جعلت حب إبراهيم يزداد ويربو مع الأيام ، نعم ، أحب إبراهيم ابنه كما لم يحب أب ابنا من قبل ، ولكن مثلما أسعد هذا الحب قلب إبراهيم إلا أنه أشقاه وأضناه ، فالأنبياء – وإبراهيم بصفة خاصة – يرون أن القلب ينبغي أن يكون خالصا لله وحده ، لا مكان ولا مساحة فيه إلا لله ، وإلا سيشعر أنه أشرك بحب الله حبا آخر ، ولكن حب الأب لابنه شيء فطري لا يملك الإنسان له تبديلا أو تحويلا ، نعم ، ولكن الأنبياء – وحدهم – يملكون تبديل وتحويل ما هو فطري ، وهو أنهم يفعلون ما يناقض ويعارض تلك الفطرة ، يستطيعون ذلك ويقدرون عليه ، وإن كان في معارضة الفطرة عذاب وشقاء ومعاناة ، ولكن هم على استعداد لتحمل أي شيء ليبرهنوا أن حبهم وقلبهم خالص لله .

كم أمضى إبراهيم – ؛– من وقت مفكرا في تلك المعضلة أوهذا الأمر ؟

وكم أنفق من جهد وجهاد للخروج من هذا المأزق ؟

نحن لا ندري عن ذلك شيئا ، وإن كنا نكاد نجزم أنه أمضى وقتا ليس بالقليل ، وأنه أنفق جهدا ليس بالهين ، وربما فكر أن يبعد إسماعيل أو أن يبتعد عنه كي لا يشغله ويشاغله ، ولكن ليس في هذا علاج ناجع ، فربما ازداد حبه على البعد واشتعل أكثر مما هوعلى القرب ، والمشكلة ليست في إسماعيل ،ولكن في قلب إبراهيم وما يحمله هذا القلب .

ولكن ما ضر إبراهيم أن يحب ابنه ، وفي نفس الوقت هوعلى يقين من حبه لله ؟

ثم أن حبه لابنه لن ينقص من حبه لله .

ولكن حبه لله يملأ قلبه ويغلقه عما دون ذلك .

الأمر في حاجة إلى فعل من إبراهيم ليحسم تأرجح أو تردد القلب ،هو وصل إلى قناعة وجدانية أن يخلص حبه لله من أي شائبة تشوبه أن يحب غيره ، ومع الأيام ومن خلال المجاهدة قد يصل إلى ما يريده ، ولكن شخصية إبراهيم تأبى إلا أن تحسم تلك الأمور المعلقة ، إنه حاسم وقاطع ،

ففي موقفه من الأصنام أبى إلا أن يحطمهم ولا يبقى عليهم وهو يعلم مصيره ، فليكن وليصل إلى نهاية الطريق ، إنهم يوقدون النار ليلقوه فيها ، وهناك علل وتعللات وحجج واعتذارات كثيرة إن فعلها أو قام بها قد تنجيه من الحرق ، فليحترق ، ما كان تجرأ على الحرق إن لم يكن تجرأ على تحطيم الأصنام .

وفي موقفه من أن يريه الله كيف يحي الموتى ، ليس هناك إيمان يضاهي إيمان إبراهيم بقدرة الله على إحياء الموتى لأنه مر بالفعل بنفسه بتلك التجربة.

ألم ينقذه من الإحراق ؟

ألم يكن موته محققا ؟

لم يمر مخلوق بتلك التجربة مثلما مر بها إبراهيم ، النار تؤجج وهو داخلها .

إذن هو في حكم الميت .

ومع ذلك فقد خرج حيا .

إذن هو يؤمن بقدرة الله على إحياء الموتي .

فليزدد هذا الإيمان وليجتاز مراحل لاتخطر على قلب بشر .

أو هو يؤمن ولكن يريد من الله - عز وجل - أن ينعم عليه ويخصه بشيء مما لم ينعم به أو يخص به أحدا من عباده ، وبذلك يزداد قربا ودنوا من الله ويكون الفوز كل الفوز في (أرني) ، حالة يشعر فيها إبراهيم أنه محل فعل الله ،اهتمام الله نظر الله .

وهنا مع ابنه لا ينبغي أن يفصل بين حبه له وحبه لله .

ينبغي أن يذيب حب ابنه في حب الله ، يختفي يتبدد كل ما سوى حب الله

عمل من شأنه استثمار وتوظيف حبه لإسماعيل ليبرهن به ويدلل على حقيقة موقفه من الله . هنا كل شيء أصبح واضحا وغامضا في نفس الوقت

واضحا بحتمية ووجوب ولزوم العمل والفعل .

وغامضا في تحديد نوعية هذا العمل والفعل .

هناك مشكلات وقضايا كثيرة تعترض الإنسان في الواقع ، وقدرة وطاقة الإنسان على حل تلك المشكلات أو مواجهة تلك القضايا لا تكون في ذروتها أو حالتها القصوى والمركزة التي تمكنه من الحل والمواجهة ، فأمور كثير تتنازعه وتتقاضاه وهو في حالة اليقظة ، تأتي فترة النوم وهي حالة تجتاح الإنسان يكون الوعي فيها في أقصى درجات التنبه والتيقظ ، فهو يضع في بؤرته أمرا واحدا كان يشغل الإنسان في اليقظة ، ويعالجه معالجة مختلفة اختلافا عن تلك الطريقة التي كان يعالج بها الإنسان أموره في حالة اليقظة . أو قل إن الوعي وعيان :

وعي في حالته الدنيا يتولى التعامل ومعالجة أمور وشؤون الإنسان الحياتية .

ووعي في حالته العليا ولا يتولى إلا الأمور والقضايا والمشكلات التي عجز الوعي الأول عن التعامل معها ، فيرفعها إليه أو هي التي تصعد إليه ، هذا الوعي يتصف بالصفاء والتركيز المتناهيين لذلك ينجح في حل ومواجهة القضايا والمشكلات التي فشل فيها الوعي من المستوى الأول ، وهذا الوعي لا يعمل عمله المبدع هذا إلا في حالة نوم الشخص ، لأن النوم يتيح للوعي أن يتحرر من كثير من القيود التي كانت تعرقله أو تثقله أو تشتته . وهذا يفسر قول البعض إذا كانت هناك مشكلة مستعصية عن الحل فاتركها فالزمن كفيل أن يجد لها حلا ، في الواقع أن المشكلة لم تهمل وإنما تولاها الوعي بهدوء وتأن وتريث وفحص ودرس ومعالجة ، وهذا – لا شك- قد يستغرق وقتا يختلف باختلاف المشكلة وأهميتها .

رؤيا الأنبياء :

هذا بالنسبة للشخص العادي ، أما بالنسبة للأنبياء فالأمر مختلف ، فقد قامت الرؤية التي يراها النبي بدور هام في مسار النبوة ، وعكست الكثير من الصفات الشخصية وتطلعات ورغبات النبي ، فمع يوسف – ؛- كانت حياته كلها محصورة بين رؤية وتأويلها ، منذ أن قال لوالده :

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ يوسف: ٤

إلى أن قال لأبيه :

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ يوسف: ١٠٠

وكأن تلك الرؤيا ستكون سندا ليوسف – ؛– ومواسيا ومؤازرا لكل الشدائد والمحن والأزمات التي تعرض لها ، فقد قابل وواجه كل ما تعرض له بنفس راضية مطمئنة واثقا بأن الله – عز وجل – سينصفه في النهاية ، وقد أرسل له إشارات تطمئنه أن في نهاية النفق المظلم ، سيأتي فرج من الله

والله – سبحانه وتعالى – يتولى رسله بالرعاية والاهتمام ، وهو يجيب تطلعاتهم ورغباتهم ويحققها لهم في الوقت المناسب والمكان المناسب بما يخدم ويصب في صالح دعواتهم ، وهو- عزوجل - يريد أن تكون حالتهم النفسية في أفضل وأحسن حال ، فلا يجعل اليأس والقنوط – رغم كل العقبات والمعوقات التي تعترض طريقهم – لهما أي أثر أو تأثير عليهم ، وهم – صلوت الله عليهم – قد لا يظهرون تلك الرغبة أو الأمنية تأدبا مع الله ، فهم لا ينسون موقفهم من الله ، أنهم عباد مخلصون ، راضون بكل ما يقدره الله لهم ، ولكن أن تتردد رغبة وأمنيه في نفسك بدون أن تبديها أو تصرح بها أو تطلب تحقيقها شيء ، وأن تبديها وتصرح بها وتطلب تحقيقها شيء آخر ، فالله يعلم ما يتردد في نفوس رسله ، ولا يبخل عليهم بأن يحقق لهم ما يتمنونه بأي صورة من الصور ،

فقد كان رسول الله – خ – يتمنى أن تكون قبلته في الصلاة البيت الحرام حيث قبلة أبيهإبراهيم – ؛- وليس بيت المقدس ، ولم يصرح أو يبد تلك الأمنية ، ولكن مع ذلك صدر منه إشارات أو علامات على تلك الأمنية النبيلة ، فما كان من الله إلا أن أجاب أمنية نبيه.

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ البقرة: ١٤٤

"والمعنى :قد شاهدنا – يا محمد- وعلمنا تردد وجهك ، وتسريح نظرك إلى السماء تطلعا إلى نزول الوحي عليك ، وتوقعا لما ألقى في روعك من تحويل القبلة إلى الكعبة سعيا منك وراء استمالة العرب إلى الدخول في أحضان الإسلام ومخالفة اليهود الذين كانوا يقولون : إنه يخالفنا في ديننا ويتبع قبلتنا ، وها نحن قد أجبناك إلى ما طلبت وأعطيناك ما سألت ووجهناك إلى قبلة تحبها وتميل إليها (فول وجهك شطر المسجد الحرام) "1

1التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د. محمد سيد طنطاوي – المجلد الأول – صفحة (298) .

وكانت حالة رسول الله – خ – وقت خروجه من مكة مهاجرا ، تستدعي المواساة والرعاية والحدب من الله ، كان في حاجة ماسة أن تهدهد وتلطف مشاعر الأسى والحزن العميق وهو ينفصل عن أعز وأحب البلاد إلى قلبه ، ليس هذا فحسب بل تاركا قومه وأهله الذي كان ينتظر منهم أن يؤيدوه ويساعدوه ويؤازروه ، ومتجها إلى قوم ليسوا بقومه وإلى أهل ليسوا بأهله ، تاركا كل شيء وراءه ظهره ، كل تلك السنوات والذكريات والمواقف التي قضى الشطر الأكبر من عمره ، وسنوات كفاحه وجهاده في سبيل الدعوة ، نتيجة كل هذا ، هو وصاحبه يتسللان تحت جنح الظلام ، لكأني برسول الله – خ – يحمل أحزان العالم كله ، كيف قدر الرسول أن يحرك قدميه وقلبه مفعم بكل هذا الأسى والشجن ، وما الجرم الذي ارتكبه في حق أهل مكة ؟ أن يؤمنوا بالله الواحد الأحد .

أن يمضي الرسول ويواصل طريقه بتلك الحالة النفسية ، فيها الكثير من الضرر والأذي عليه ، وما كان الله ليذر رسوله تغتاله وتفترسه تلك المشاعر ، وما كان ليذر اليأس والقنوط يسدان على الرسول كل سبيل ، فهاهو يفتح له كل أبواب الأمل والبشرى ، ويملأ قلبه بالسعادة والسرور .

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ القصص: ٨٥

" قال الألوسي ، وقد يقال ، أطلق - سبحانه - المعاد على مكة ، لأن العرب كانت تعود إليها كل سنة ، لمكان البيت فيها ، وهذا وعد منه - عز وجل - لنبيه - خ - وهو بمكة أنه - ؛- يهاجر منها ثم يعود إليها . وروي عن غير واحد أن الآية نزلت بالجحفة بعد أن خرج - خ - من مكة مهاجرا واشتاق إليها ووجهارتباطها بما تقدمها : تضمنها الوعد بالعاقبة الحسنى في الدنيا، كما تضمن ما قبلها بالعاقبة الحسنى في الآخرة .

والمعنى : (إن الذي فرض عليك القرآن) - أيها الرسول الكريم - بأن أنزله إليك وكلفك بحفظه وتلاوته على الناس والعمل بأوامره ونواهيه .

(لرادك إلى معاد) أي : لرادك إلى المكان الذي أنت فيه وهو مكة ، بعد أن تهاجر منه تعود إليهومعك الآلاف من أتباعك بعد أن خرجت منه وليسمعك سوى صاحبك الصديق - رضي الله عنه - " 1

ولكن قد يعدل الله عن الإخبار المباشر والوحي الصريح الواضح إلى الرؤيا - وهي الأخرى صورة من صور الوحي - يريها لرسوله . والفرق أن الرؤيا حالة يعايشها الرسول معايشة كاملة وحقيقية ، بكل مشاعره وحواسه ، وهو في قمة الوعي والتنبه ، وليست معنى أن الرؤيا منامية أنها ليست حقيقية ، فالذي يقصر الحقيقة على مايراه الإنسان في يقظته - فقط - يحجم الحقيقة ويعرف الحقيقة تعريفا مبتورا ومشوها ، فكم خدعت الحواس المتنبه المستيقظة الإنسان عن رؤية الحقيقة ، بل كثيرا ما يصرف الإنسان في حالة اليقظة عن الحقيقة ، وربما تيسر له أن يرى الحقيقة في أوضح وأجلى صورها في المنام ، فالإنسان في اليقظة هو هوفي المنام ، بل في المنام يكون أكثر تركيزا وأصفى وعيا وأحد تفكيرا ، لأنه تم تنحية وإبعاد الكثير - إن لم يكن كل - من المشتتات التي تشتتت وتغير وتبدل بل تزيف وتزور الحقيقة .

1التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د .محمد سيد طنطاوي – المجلد العاشر –صفحة (442- 443)

إذن ما يراه الرسول في المنام حقيقة – لا شك في ذلك – ويأتي بعد ذلك ليتطابق معها الواقع ، لا ، ليس هناك حقيقة وواقع ، ولكن حقيقة واحدة ، الفرق أن الرسول – وهو في المنام - عاين الحقيقة بعقله ومشاعره وبصورة منفرده ، ثم بعد ذلك عاينها بكل حواسه ومشاعره ومعه الناس ، في زمان محدد ومكان معين ، ومن أجل هذا قيل رؤيا الأنبياء حق ، وليس معنى ذلك أنها ستتحقق أو يطابقها الواقع ، ولكنها حق لأنها حدثت بالفعل وبالمعايشة ومن يقول أنه حينما أعايش أمرا ما بعقلي ووعي أن هذا الأمر غير حقيقى ؟

فإذا كان هذا يمكن أن يحدث مع البشر العاديين ، فليس من الممكن حدوثه مع الأنبياء والرسل ، لأنه هو هو نبي ورسول نائما ،ونبي ورسول متيقظا ، فالنوم لا يسلب منه الوعي والتنبه كما يسلبهما من الإنسان العادي ، ومن أجل هذا ورد عن النبي –خ - أنه قال أن عيني تنام و قلبي يظل يقظا .

والرؤيا هي منة وإنعام من الله – عز وجل – لنبيه ، مزيد من الرعاية والاهتمام ومعالجة لنفسية الرسول ، وتقوية لإرادة وشحذ لعزيمته .

وللرؤية مبرراتها ودواعيها ، كأن يكون الرسول مقدم على أمر في غاية الأهمية والخطورة ، ويترتب عليه نتائج مصيرية ، عليها يتحدد مصير الدعوة ومصائر أمور كثيرة ، أو هناك أمور ملتبسة ومعقدة ومتشابكة ومعوقات وموانع ينبغي معالجتها وإزالتها ، تأتي الرؤيا لتهدهد خواطر الرسول وتطمئنه وتثبته وتقويه وتؤازره ، وأيضا لتفك التعقد والتشابك ، وتزيل المعوقات والموانع ، وبذلك تسير الدعوة في طريق مزلل ومعبد ، وتكون شخصية الرسول في أفضل وأحسن حالاتها .

وقد رأي الرسول الرؤيا في حالتين : الأولى غزوة بدر،والثانية خاصة بفتح مكة .

الحالة الأولى : غزوة بدر .

أول معركة فاصلة بين الفريقين ، وقد ظهرت مشكلة تواجه المسلمين ، خاصة بالعدد ، فعدد المشركين أكبر من عدد المسلمين ، المشركون يبلغون ألفا ، والمسلمون ثلاثمائة ، وينبغي أن نفرق بين المعارك في العصر الحديث والمعارك في ذلك الزمان ، فربما العدد – حديثا – لا يكون له أثر كبير في تحديد نتيجة المعركة ، فقد لا يرى الفريقان بعضهما بعضا ، وقد لا يشتبكان بالمرة اشتباكا مباشرا أثناء القتال

وقد تعوض الأسلحة المستخدمة مشكلة العدد وقد وقد ، ولكن في تلك الحروب كان أول عامل حاسم في تحديد نتيجة المعركة هو العدد ، لذلك كان أول شيء يسأل عنه ويهتم به وتوضع على أساسه الخطط والتحركات هو العدد . وإذا كان العدد الكثير يمكنه تحديد نتيجة المعركة بالنصر ، فإنه أحيانا - إذا فهم فهما خاطئا - يمكنه أن يكون سببا للهزيمة ، إذا كان جالبا للغرور والعجب والكبر كما حدث في غزوة (حنين)

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ التوبة: ٢٥

مشكلة العدد في غزوة (بدر) أهمت وأقلقت رسول الله ، واستولت على تفكيره واهتمامه ،"ثم أن النبي - خ - أخذ يتحسس أخبار قريش وعددهم عن طريق العيون التي بثها حتى علم المسلمون أنهم ما بين التسعمائة والألف، وأن فيهم عامة زعماء المشركين "1 التفوق في العدد للأعداء قد يكون سببا في نصرهم ، وقلة العدد للمسلمين قد يكون سببا للهزيمة والخسران المبين ، إذن نتيجة المعركة الذي سيحسمها هو العدد

1فقه السيرة – البوطي – (168)

،ا لأمر في غاية الخطورة ، وحالة النبي وتضرعه المتواصل الدائب يظهر بجلاء إدراك النبي لخطورة وجلال تلك المعركة ، " وراح رسول الله – خ – يجأر إلى الله تعالى بالدعاء مساء ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان ويقول : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك . اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم احنهم الغداة وظل يناشد الله متضرعا وخاشعا وهويبسط كفيه إلى السماء حتى أشفق عليه أبو بكر رضي الله عنه ، فالتزمه من ورائه ، وقال له : يا رسول الله أبشر فوالذي نفسي بيده لينجزن الله لك ما وعدك " 1

نعم ، هو يثق في شجاعة وصدق وقوة إيمان المسلمين ، ولكن تظل مشكلة التفوق في العدد قائمة في حاجة أن تعالج وتحل بأي صورة من الصور ، إنه قائد تلك المعركة ، وينبغي للقائد أن يحسب حساب كل شيء ، ولا يترك شيئا للظروف أو الصدفة ، وأظن أنه حل كل المشكلات التي وجدت ، وحسب حساب كل شيء ، إلا مشكلة العدد تظل قائمة تنال من راحة النبي واطمئنانه ، ولا يجد لها علاجا أو حلا ، وجاءت رؤيا النبي لتعالج تلك المشكلة وتحلها ، فقد رأي في منامه أن عدد الكفار قليل .

1فقه السنة – رمضان محمد سيد البوطي- (169)

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ الأنفال: ٤٣

ولكن كيف حل المنام مشكلة تفوق المشركين في العدد ؟

رب قائل يقول : إن عدد الكفار حوالي ألف مقاتل ، هذا هو العدد الحقيقي ولكن ما رآه النبي اقل من ذلك ، فيا ترى أيهم الحق عدد الكفار الواقعي أم ما رآه النبي ؟

ما رآه النبي في منامه هو العدد الحقيقي .

فهناك العدد ، وهناك حقيقة العدد .

ففي أيامنا – مثلا – معي ألف جنيه ، ولكن قوتهم الشرائية أو حينما يترجموا إلى سلع وخدمات تجد أنهم في الحقيقة خمسائة جنيه أو أقل من ذلك ، فأنت – هنا – لا يجب أن تفرح بكثرة العدد وتعول عليه ، ولكن تعتمد على الجدوى والفائدة من هذا العدد وما يترجم عنه من سلع .

فالذي رآه النبي في منامة حقيقة العدد ، ولا نستبعد – بل نحن على يقين - أن النبي قبل المعركة قد فكر طويلا وقلب الأمور على كافة الوجوه وسأل نفسه :

أهؤلاء الذين قدموا يحاربونه ، ألهم قضية يتمسكون بها ويحاربون من أجلها ويقدمون أرواحهم فداء لها ؟ ربما ولكنهم بلا شك قليل .

حيثما يشتد القتال بين الطرفين ويحمى الوطيس أهؤلاء سيصمدون ويجالدون ويبذلون كل ما في طوقهم من عرق ودم ؟ ربما ولكنهم بلا شك قليل .

أهؤلاء في قرارة أنفسهم لديهم من الدافع والمبرر والمحرض والمحفز القوي لقتال المسلمين ؟ ربما ولكنهم بلا شك قليل .

أهؤلاء يضعون في حسبانهم وفي خططهم أن تلك المعركة مجرد خطوة في مشروع أو أساس لعقيدة أو أن تلك المعركة لها ما سيعقبها ويترتب عليها ، وتلك النتائج هي التي ستمهد الطريق ؟ ربما ولكنهم بلا شك قليل .

" وإلى هذا المعنى أشار صاحب المنار بقوله : وقد تقدم أن النبي - خ - قدر عدد المشركين بألف وأخبر أصحابه بذلك ، ولكنه أخبرهم مع هذا أنه رآهم في منامه قليلا ، لا أنهم قليل في الواقع فالظاهر أنهم أولوا الرؤيا بأن بلاءهم يكون قليلا ، وأن كيدهم يكون ضعيفا فتجرءوا وقويت قلوبهم "1

ولم يغب عن بال الرسول - خ - أن قريش كانت ترى أن تلك المعركة مجرد قتال أو ما يسمى لا بالاصطلاح الحديث حملة تاديبية ،أو حملة إعلامية بدليل قول (أبي جهل) : " والله لا نرجع حتى نرد بدرا ، فنقيم ثلاثا ننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدا " 2

1تفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . محمد سيد طنطاوي – (109) المجلد -
2فقه السنة – محمد الغزالي – صفحة (196)

وأيضا يقول : " واللات والعزى لا نرجع حتى نفرقهم في الجبال ، خذوهم أخذا "

إذن إذا قمنا بتحليل وفحص ودراسة هذا العدد دراسة تستند على العلم ويؤيدها المنطق ويؤكدها العقل فلا شك هذا العدد سينخفض إلى النصف أو أقل .

وكانت النتيجة من خلال اهتمام الرسول بتلك المشكلة الرؤية التي رآها الرسول في المنام .

وكأن المنام استبعد المشهد الزائف أو طمس ملامح المشهد غير الحقيقي، ووضع بدلا منه المشهد الحقيقي .

أو كأن المنام قد قام بقص واستبعاد وبطر ما لا جدوى ولا فائدة منه ولا رجاء فيه ، وأبقى على مكونات المشهد فظهر على حقيقته بدون إدعاءأو مبالغة أو كذب وتلفيق .

ولكن قد يقول قائل إن هذا أمر يخص النبي ، ولكن ما شأن المسلمين الذين سيقاتلون ويخوضون غمار المعركة وهم لم يروا المنام ؟

نعم ، المسلمون لم يعاينوا ولم يحاربوا في ميدان المعركة الواقعي ، ولكنهم كان لهم ميدان معركة آخر وحاربوا في المشهد أو الميدان كما نقله أو صوره أو أخبرهم به رسول الله ، ولم يقاتلوا العدد المعاين أو المشاهد ، ولكنهم كانوا يقاتلون العدد أو الكم الذي أخبرهم به رسول الله بدون أي تردد أو شك ، لذلك كان المسلمون في غزوة بدر في قمة الإيمان بالله وفي ذروة الثقة بالنصر ، وتأمل المشهدين الأول كما رآه الرسول في المنام والثاني كما رآه المسلمون تجد لا فرق ، وكأن المشهدين مشهد واحد .

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ الأنفال: ٤٣

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (44) الأنفال: ٤٤

فما رآه المسلمون في الحقيقة – وليس في الواقع – هو نفسه ما رآه الرسول في المنام ، وقاتلوا وكلهم إيمان وثقة واعتقاد أنهم قليل ، وكانوا قليلا بالفعل وليس بالوهم " قال ابن مسعود – وهو ممن حضر بدرا - : لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي : أتراهم سبعين ؟ قال أراهم مائة ، فأسرنا رجلا منهم فقلنا له : كم كنتم ؟ قال : ألفا "

نفس الذي قام به رسول الله-خ – قام به زعماء الكفار ، ولكن بطريقة مختلفة ، لذلك كانت النتيجة مضللة ، بعكس النتيجة هناك كانت هادية ، ففي نفس الوقت الذي كان يحارب المسلمون المعركة ليس في الميدان الواقعي المشاهد والمعاين وإنما على هدي من إرشاد وتخطيط ورسم الرسول ، كذلك الكفار لم يكونوا يحاربون في الميدان الواقعي ، ولكن كانوا يحاربون في ميدان من صنع أوهامهم وضلالاتهم ، فمنذ البداية وهم يعتقدون أن أتباع محمد حثالة لا قيمة ولا وزن لهم ، وإنهم قلة فهم أكلة جزور كما قال أبو جهل ، كل هذا صرفهم لا نقول عن حقيقة العدد ولكن عن العدد نفسه ، ودفعهم إلى وهم العدد وضلاله ، فإذا كان عدد المسلمين ثلثمائة ، فإن وهم هذا العدد وضلاله وصل إلى النصف أو أقل بينما حقيقة العدد يصل إلى الضعف أو يزيد .

إذن لا المسلمون كانوا يحاربون في الميدان المشاهد والمعاين ولم يكونوا يحاربون هذا العدد من الكفار .

ولا الكفار كانوا يحاربون في الميدان الذي كان يحارب فيه المسلمون ولم يكونوا يحاربون أو يتقاتلون مع العدد الحقيقي للمسلمين .

على هذا فالمنام قلب الميدان كله في صالح المسلمين ، وفي نفس الوقت حرم الكفر كل تلك الميزات ، لذلك كانت النتيجة لا أقول متوقعة ، لا كانت متوقعة بتوافر المقدمات لها ، سبعين قتيل من الكفار ، وسبعين أسير ، وأربعة عشر شهيدا من المسلمين .

الحالة الثانية : صلح الحديبية

منذ أن خرج رسول الله – خ – مهاجرا من مكة إلى المدينة وقلبه معلق بها ، فهي – كما قال – أحب البلاد إلى قلبه ، إلا أن هذا البلد لم يبادله حبا بحب بل بادله العداء والشقاق ، ولم تكتف بذلك بل هي أكبر محرض لمن حوله من قبائل لمحاولة القضاء على الدين الجديد ، فهي معقل الكفر والإلحاد وهي ...وهي ...وفي نفس الوقت هي مهوى القلب وملاذ المشاعر والأحاسيس وموطن أجمل وأرق وأعذب الذكريات ، وفيها البيت العزيز على قلوب المسلمين .

تلك المشاعر المتأججة التي لا ينطفأ أوارها عند الرسول والمسلمين في حاجة إلى أن ترضى وتقر وتستريح ، وإلا سيبظل الرسول يعذب بتلك المشاعر إلى ما لا نهاية ، ودخول مكة – بأي صورة من الصور – من المستحيلات ، كيف يدخلونها ومنها تنطلق وتزحف جحافل العدوان على الدين الجديد ؟

ولكن القلب وما يهوى ، ظلت تلك الرغبة الشريفة النبيلة تتردد على استحياء وحذر ووجل في نفس الرسول ، ولا نستبعد أنه كان – أحيانا - يتصور ويتخيل نفسه راجعا وآيبا إلى مكة ، متنقلا بين مواطن صباه وشبابه ورجولته ، والأهم مشرفا على بيت الله معتمرا مصليا داعيا شاكرا ، إنه البيت الذي بناه أبوه إبراهيم ؛. وحينما هاجر كأنه ترك قلبه هنا بل هو فارق مكة ولم يفارق بيت الله ، فقد حمله في قلبه وملأ به كل حواسه .

ولكن بمرور الوقت لا شيء يبقى على حاله ، حينما تجاوزت تلك المشاعر والرغبات والأمنيات حدودها استحالت إلى رؤيا ، أن الرسول ومعه المسلمون داخلون المسجد الحرام .

أسعدت الرؤيا الرسول أيما سعادة ، وكان في الإمكان ألا يقص الرؤيا على أصحابه ، لأن الرؤيا سوف تتحقق ، ولكن موعد تحققها لا يعلمها إلا الله

لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا الفتح: ٢٧

وما يكاد رسول الله يخبر الصحابة إلا وقد تهيأوا واستعدوا لدخول مكة في نفس العام ، مع أن الآية الكريمة علقت الدخول بمشيئة الله .

تلك الرؤيا ستحدث كثير من اللغط ، والمشاكل التي ضايقت الرسول كثيرا .

ما تم في الرؤيا دخول حقيقي للمسجد الحرام ، ولكنه مؤجل إلى أن تتوافر الشروط التي أخبر بها الله – عز وجل – نبيه ، فالله لا يريد دخول المسلمين على أية حال ، ولكنه يريد دخولا آمنا بلا خوف ، ما فائدة دخول مكة على خوف وقلق ؟ مافائدة دخول مكة بدون فتح ؟ ما فائدة دخول المسلمين مكة وهي هي قبل الدخول مثلما هي بعد الدخول ؟

فليس دخول مكة هنا – كما قد يظنه المسلمون – من أجل الحجأو العمرة ، ولكنه دخول فتح ، بل هو الفتح الأكبر ، الفتح المبين .

تلك الرؤيا فجرت حقول الديناميت كلها في الطريق إلى مكة ، عالجت وحلت كل المشكلات التي تعوق وتعترض الفتح ، فالحالة التي عليها المسلمون والمشهد الذي صورته الآية الكريمة لا يكون إلا بفتح مكة .

إذن الرؤيا كان المقصد منها فتح مكة ، والرؤيا التي فهمها الصحابة كانت للعمرة والحج ، نعم إنهم سوف يسعدون ويفرحون بالذهاب إلى مكة ، ولكن هل مكة ستفرح وتسعد ؟ هل ستداوي جروحها وتتخلص من ذنوبها وآثامها كما تريدون أن تداوا جروح الغربة والابتعاد عن مكة وتتخففوا من ذنوبكم بالحج والعمرة ؟

إذن رؤيا الرسول هنا لم تكن مجرد بشارة ، وإنما كان لها وظيفة عمليه يسرت وسهلت وجعلت في حكم الممكن فتح مكة ، ونكاد نقول لو لم تكن رؤيا الرسول لما فتحت مكة على هذا الوضع وتلك الهيئة من الجلال ، وربما تلك الرؤية التي تفسر موقف الرسول من شروط الصلح ، أنه كان في غاية التساهل والموافقة على كل ما اشترطت قريش ، أن أمر الله غالب وأن الفتح قادم لا محالة ،

ولن يؤخره أو يعوقه صلح أو اتفاق ، فهو قد دخل المسجد الحرام دخولا فعليا ، الأمر بالنسبة للرسول قد فرغ منه ، لتطلب قريش ما تشاء ، ولتكتب ما تشاء ، وسيعطي لهم كل ما يطلبونه ، فقد صدق الله – عز وجل- رسوله الرؤيا ، وما يقضي به الله لا يغيره ولا يبدله أحد .

إن هذا لهو البلاء المبين :

الله – عز وجل – يبتلي عباده ، والابتلاء يأتي على قدر عزمهم ،وهو يعلم – مقدما – نتيجة الابتلاء ، ويعلم مدى عزم عباده ، ولكن هذا الابتلاء ثمرته وثوابه راجعه للعباد ، فهو نوع من التربية لهم ، أو نوع من الترقية في معارج السمو ، وليعلم العبد أن الله إذا انعم عليه بنعمة ما ، إنما هذا جزاء ومكافأة ودليل وبرهان على رضا الله – عز وجل- على عبده ، فيزداد يقينه ، وتعم سعادته ، ويجد – عن ذي قبل – في إتمام رسالته وتأدية دوره ، يقول عز وجل في حق إبراهيم .

وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ البقرة: ١٢٤

فهنا ابتلاء من الله لإبراهيم ، وأدى إبراهيم ما كلف به ونجح في الابتلاء ، وكانت المكافأة أو الجائزة ، أن جعله الله إماما للناس " والابتلاء : الاختبار . أي اختبره ربه – تعالى – بما كلفه به من الأوامر والنواهي ، ومعنى اختبار الله - تعالى – لعبده ، أن يعامله معاملة المختبر مجازا، إذ حقيقة الاختبار محالة عليه – تعالى – لعلمه المحيط بالأشياء والله - تعالى – تارة يختبر عباده بالضراء ليصبروا، وتارة بالسراء ليشكروا وفي كلتا الحالتين تبدو النفس البشرية على حقيقتها "1

التضحية

التضحية مبدأ قديم قدم العلاقة بين العابد والمعبود ، وهي توضح وتصور مفهوم تلك العلاقة كأوضح ما يكون التصوير ، وكذلك تعكس ملامح العقلية البسيطة البدائية نحو المعبود ، فإذا كان المعبود يتصف بصفتي الجلال والجمال ،

1تفسير الوسيط – د. محمد سيد طنطاوي – المجلد الأول – صفحة (265)

فلم يكن يدرك العابد – قديما – من صفات المعبود سوى صفة الجلال ،ولم يكن يدركها أو يلمسها على حقيقتها ، وإنما لم يكن يدرك ويعي سوى قسوة وبطش وانتقام ودموية المعبود ، وأنه يترصد عباده وينتظر منهم الخطأ والجرم ليعاقبهم شر عقاب ،

بل هو – في بعض الأحيان – يدفعهم إلى ذلك دفعا ، لينتقم كنوع من التشفي ، وربما الذي حدى بالإنسان أن يتبنى تلك الفكرة شعور بالضعف والهوان والانكسار أمام جبروت وعنفوان الطبيعة ، وأنه دائما مسحوق ومطحون بين تقلباتها من أنواء وعواصف وأمطار وبراكين وزلازل وحيوانات منحت ضخامة وقوة افتراس وسرعة هجوم ، بينما هو محروم من كل شيء ، فهو – بحق – ضحية ، بل ضحية مسلوبة الإرادة والحرية ، بل هو يري في جبروت الطبيعة هذا أنها تحقق إرادة ورغبة المعبود في الانتقام منه وإذلاله .

وعلى ما يبدو أن هذا الأمر قد استغرق من الإنسان تفكيرا طويلا وعميقا ، وأنه مر بمراحل كثيرة حتى وصل إلى فكرة أن يترضى معبوده ، بأن يقدم له أفضل ما لديه قبل أن يأخذه معبوده بنفسه ، فكان يقدم له أفضل الأطعمة وأفضل الأشربة وأفضل الكلمات وأفضل الدعوات ، ولم يستثن من ذلك أفضل الأبناء ،يفعل كل ذلك خوفا وخشية من انتقام المعبود ،

وكأن ما يقدمه نوع من الإتاوة أو الجزية يؤديها ليستل غضب ونقمة المعبود ، ولكن بارتقاء البشرية وتقدمها في سلم التطور العقلي والوجداني ، وحينما اكتسب الإنسان كثيرا من الخبرات وبدأ في فهم الطبيعة والكون حوله ، وبدأ يشعر بقوته ومكانه في الكون ، لم يعد يخشى الإله تلك الخشية التي تسد عليه أبواب الرجاء ، فبدأ يقدم القربان لا ليتقي الغضب فحسب ولكن ليجلب الحب والعطف والبركة ، أيما كان الأمر فإن نوعية العلاقة التي تربط العابد بالمعبود ظلت قائمة في جوهرها وإن لحقها شيء من التغيير بتغير فكر ووجدان البشر جريا على سنة التطور .

ولكن ما شأن إبراهيم - ؛- بكل هذا ؟

إذا كانوا يعبدون وثنا أو صنما ، وتلك آلالهة كاذبة وأفك ، فإنه يعبد الله الحق ، فما يفعلونه من تقديم القربان وتقديم الذبائح وكل تلك النذور لا شأن له بها .

لقد نظر إبراهيم إلى هؤلاء الوثنين ووجدهم يعظمون ويجلون ويقدسون تلك الآلهة - في ظنهم - ولا يعزون ولا يبخلون ، عليها بشيء مهما كان غاليا ومهما كان عزيزا إلى درجة أن تقديس وشدة إيمان الوثني بوثنه قد يزيد ويربو عن حبه لابنه ، ولابنه العزيز عليه ، فيضحى بابنه طمعا في حب ورضا الآله عنه ، فإذا كان كل ما يتم ويحدث هراء وهزل ، فهنا الآلهة كاذبة وباطلة ، ولن يظفر المضحي من وراء فعله هذا بأي ثمرة أونتجة . ولكن الأمر مع إبراهيم غير ذلك ،

فهو يؤمن بالله ، وهو حق ، وهو يستحق أن يتقرب إليه ، ويستحق أن يضحي من أجله بكل ما هو غال وعزيز ، وينبغي أن يقدم إبراهيم لله ، وليس هناك أغلى ولا أعز من إسماعيل فليقدمه ، ولكنه ابنه فلذة كبده ، أمام الله لا شيء غال أو عزيز ، " جاء إبراهيم في مفترق الطريق بين استباحة القرابين البشرية وبين تحريمها ..ولكنها لم تحرم لأنها أغلى من أن تقدم وإنما حرمت لأن الله أرحم وأكرم .

ورأى إبراهيم في رؤياه أنه يؤمر بذبح ابنه ، أعز ما في الحياة عنده رأي ذلك وهو يعلم أن الأرباب تتقاضى عبادها مثل هذه الضحية ، وأن تقريب الأوائل من الأولاد والأوائل من كل نتاج حق مفروض على كل أسرة لرب الأوثان والأصنام ... أيكون إبراهيم أبخل على ربه من عابد الوثن ؟ ....أيكون الوثن أحق بالضحية من خالق الأرض والسماء ؟

أيرتاب إبراهيم في أمر الله وهو ينظر إلى شريعة العبادة من حوله ، وإن كانت شريعة شر وضلال !

إن العصيان هنا نزول بالإله الأعلى عن مرتبة الأوثان والأصنام ، فلتكن الطاعة تنزيها للإله الأعلى عن ذلك الاسفاف ويفعل الإله بالآباء والبنين ما يريد .

قال حكيم من حكماء الغرب إن الدين هو الآمر الوحيد الذي يحق له أن يأمر الإنسان بما يناقض الأخلاق ، لأنه يرفعه أوجا بعد أوج في معراج الخلق الشريف ...إن ذبح الأب وليده نقيض الرحمة ولكن إيمان الإنسان بعقيدة أعز عليه من ولده ومن نفسه غنيمة أقوم وأعظم من رحمة الآباء للأبناء .

فلا ينبغي أن يضن الإنسان بشيء في سبيل هذه العقيدة ولا ينبغي أن يبطل القربان بالإنسان لأن الله لا يستحقه كما استحقته أوثان الجهالة ، بل يبطل لأن الله أرحم وأعظم من أن يتقبله فهو أعظم وأكرم من الأوثان وارتفاع الإنسان بهذه العادة هو ارتفاع آخر يضاف إلى ارتفاعه بالتوحيد والتنزيه .

ارتفاع من جانب القوة لا من جانب الضعف ، وسمة بالرحمة وبالعبادة إلى أعلى عليين " 1

1إبراهيم أبو الأنبياء – عباس محمود العقاد – صفحة (199)

فضل الله :

وكأني بإبراهيم – ؛– قد شعر بمدى فضل وإنعام الله عليه ، وهذا السيل من الفيوض الذي لا ينقطع من الله عليه ، في الدنيا والآخرة ، بداية من أن خلقه الله - تعالى – إلى أن ينعم عليه بالجنة .

الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88)

الشعراء: ٧٨ - ٨٨

ولكن هل يظل إبراهيم هكذا ، يتلقى الفضل تلو الفضل والمنة تلو المنة من الله ، ويدعو الله ،ويجاب إلى ما طلب ، بدون أن يقوم هو بفعل يعبر عن شكره لكل ما أنعم الله عليه من نعم وما امتن عليه من منن ؟

لابد أن يقوم إبراهيم بعمل يتناسب مع عظيم الفضل وواسع المنة ، وبحث عن أغلى وأعز ما لديه ليقدمه لله ،شغل هذا الأمر فكر إبراهيم مدة ، قصرت أم طالت ، ولكنها استحوذت عليه ، وتحققت تلك الرغبة الشريفة والمقصد النبيل في صورة رؤيا ، وهي حق لأنها تعكس رغبة نبي يريد أن يعترف ويقر بفضل الله عليه ، فمن أين يلج الباطل إلى هذا الأمر ؟

ولهذا لا شيء يوقف تلك الرغبة لكي تحقق وتترجم إلى واقع وفعل .

وهل هناك شيء يمنع نبيا مخلصا صادقا وفيا أن يحقق رغبته وأمنيته ؟

وتحقق هذا الأمر في صورة رؤيا

" أتي في المنام فقيل له اذبح ابنك ،ورؤيا الأنبياء وحي كالوحي في اليقظة فلهذا قال(إني أرى في المنام أني أذبحك) فذكر تأويل الرؤيا كما يقول الممتحن وقد رأي أنه راكب سفينة رأيت في المنام أني ناج من هذه المحنة " 1

1تفسير الكشاف – المجلد الثالث – صفحة (348)

هل هناك فرق بين الرؤيا والحقيقة بالنسبة للأنبياء ؟

ليس هناك فرق ، إذن الذبح تم ،وجدانيا ونفسيا من جانب إبراهيم، وكل المشاعر والأحاسيس التي تضطرم وتجتاح النفس حينما يقدم الأب على ذبح وحيده قد عاشها وعايشها إبراهيم ، الصدمة الأولى حدثت ، والصبر عند الصدمة الأولى ، إذن قد عانى وقاسى وتعذب إبراهيم ، بل ان إبراهيم عاني وتعذب مرتين ، مرة لأنه يقوم بعملية الذبح ، فهو ذابح ، ومرة حينما يستشعر مشاعر وأحاسيس المذبوح ابنه ، فالموقف – الرؤيا – لا تحتوي إلا على إبراهيم ، فهو الذابح بالفعل ، وهو المذبوح بمشاركته مشاعر ابنه المذبوح ، وكأنه وضع نفسه مكان ابنه ، هنا لا ننظر ولا ننتظر النتيجة أو الخاتمة أو النهاية ، ولكن تلك حالة قد عايشها ومر بها وخبرها إبراهيم بكل حواسه ومشاعره وأحاسيسه ، وكونها حدثت مناما لا ينال من حقيقتها وصدقها ، وإلا ما معنى أن رؤيا الأنبياء حق؟ وما معنى أن رؤيا الأنبياء وحي كالوحي في اليقظة؟

إذن مر إبراهيم – ؛– بالتجربة مرورا حقيقيا ، وعاشت جوارحه كل مشاعر وأحاسيس التجربة .

وحينما يمر إبراهيم بالتجربة نفسها في الواقع المعاش مع غيره ، ستزايل الحادثة أو الموقف كل مشاعر الوحشة أو الغربة ، وستكون مألوفة بل ومعتادة ، ويكون الجنان أثبت ، والنفس أرسخ ، وهذا من رحمة الله - عز وجل – بأنبيائه – عليهم السلام – أن هون عليهم أشق المواقف ، ويسر أعسر الأحداث عليهم ، من خلال ما من عليهم من رؤيا .

" فإن قلت لم كان ذلك بالمنام دون اليقظة ؟

قلت : كما أرى يوسف ؛سجود أبويه وأخوته له في المنام من غير وحي إلى أبيه ، وكما وعد رسول الله خ دخول المسجد الحرام في المنام وما سوى ذلك من منامات الأنبياء وذلك لتقوية الدلالة على كونهم صادقين مصدوقين لأن الحال إما حال يقظة أو حال منام ، فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق كان ذلك أقوى للدلالة من انفراد أحدهما 1"

1تفسير الكشاف – المجلد الثالث – صفحة (348)

هل هناك فرق بين الحدث في المنام والحدث في الحقيقة أو في الواقع ؟

ليس هناك من فرق ، فالحدث واحد وليس حدثين ، والحالة واحدة كما قلنا ، ولكن الفارق الوحيد هو النتيجة أو الخاتمة ، وهو ما لم يحدث في المنام وحدث في الواقع ، وقد نعتبر - بصورة أو اخرى - أن حدوث الحدث في الواقع هو تأويل له أو تفسير لما تم رؤيته في المنام ، فعندما يقول يوسف

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ يوسف: ٤

يقول حينما رأي تحقق ما رآه في المنام :

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ يوسف: ١٠٠

هذا – ما حدث – تأويل رؤاياي من قبل ، أي انتقلت من مجال لمجال ، وقد يعتريها تغيير أو تبديل من خلال هذا الانتقال . فعالم المنام يختلف عن عالم اليقظة ، ولكن الرؤيا لم ينالها أدني تغيير ، والذي حفظها من التغيير والتبديل هو الله ، فقد جعلها صحيحة وصادقة وثابتة ،ولأنها ستحدث في الواقع – كما هي في علم الله – لطفا من الله برسله وتبشيرا لهم أورحمة بهم جعلهم يرون ذلك في المنام .

حقيقة الأمر :

لم يعد الأمر أمر ذبح ، ولم يعد الأمر محاط بتلك القسوة والغلظة ، ولم تعد العلاقة بين الاثنين علاقة بين ذابح ومذبوح ، اختفت كل تلك الاعتبارات والمشاعر من المشهد ، وحل محلها مشاعر الأنصياع والخضوع والانقياد التام المطلق لطاعة الله والتقرب الحميم له ، والصبر الجميل والاحتمال الجليل لأعباء ومهام ومسئوليات النبوة ، نبيان يسعيان – بغض النظر عن أي اعتبارات أخرى – ويتسابقان ويتنافسان في تقديم فروض الطاعة والولاء لله ، بل أن المشهد لم يكن فيه ذابح ومذبوح ، لقد اشتملت الاثنين فيوض من الرضا بأن ابتلاء الله قد وقع عليهما ، ومامن عبد من عباد الله يبتلى إلا وقد قدر له الفوز ، لقد انهزمت مشاعر الحزن واللوعة والفقد لفلظة كبده ، من نفس إبراهيم ،

وكذلك امحت وتبددت مشاعر الألم والانسحاق من نفس إسماعيل ، إنهما في طريقهما إلى تحقيق برهان وإقامة دليل ، لا لم يكونا في حاجة إلى ذلك ، نفسان كل منهما يستمد القوة من الآخر ليسيرا في الطريق إلى أخره ، إبراهيم على يقين أن النجاة والفوز في الخضوع لأمر الله ، بالأمس ألقي في النار ، وكان في قدرته وإمكانه أن ينجو ، لمجرد أن يقول كلمة يرضى بها الناقمين والغاضبين عليه ، لأنه أهان أصنامهم ، لم يكن إبراهيم يرى في النار تلك الخاصية التي ستحرق لحمه وعظامه وتحوله إلى رماد ، إنه لا يأبه بالنار ، فليس الحرق - هنا - بالنار عقابا ، ولكنه مكافأة وجائزة استحقها إبراهيم لتمسكه بعبادة الله ورفضه ما دون ذلك ،أيرفض الجائزة ويحرم نفسه من المكافأة ؟ وبالفعل تحولت النار إلى ما كان يعتبرها إبراهيم ، كانت بردا وسلاما ، وهنا واليوم ، لا يرى في ذبح ابنه ذبحا حقيقيا ، ولكن كل تفكيره واهتمامه في سحابات الرضا التي ستصب ماء طهورا على قلبه ،يده التي تمسك بالسكين وتمتد لن يقطع بها إلا الجزع والتردد والخوف والشك أن تكون في نفس إبراهيم بقية للتعلق بأي شيء في الدينا إلا لله ، لقد كان قلب إبراهيم - في تلك اللحظة - خالصا من حب أي شيء إلا حب الله ،الدنيا كلها وضعت في كفة يمثلها إسماعيل ،وحب الله - عز وجل - في الكفة الأخرى ، لا لم يكن الأمر بالنسبة لإبراهيم على هذا الوضع ، لم يقارن ببين الأمرين ، لأن المقارنة بين الأمرين

حتى لو رجحت كفة الله ، ستنال من موقف إبراهيم ، أما سؤاله لإسماعيل (فانظر ماذا ترى) فهو يعلم - مقدما - بما سيجيب إسماعيل ،وهل كان يتوقع إبراهيم إلا الإجابة الفورية والإمتثال التام والخضوع الكامل ؟

" فإن قلت : لم شاوره في أمر هو حتم من الله ؟

قلت : لم يشاوره ليرجع إلى رأيه أومشورته ولكن ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء الله فيثبت قدمهويصبره إن جزع ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلم ، وليعلمهحتى يراجع نفسه فيوطنها ويهون عليه ويلقي البلاء وهو كالمستأنس به ، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله قبل نزوله "1

إنهما نبيان ، كل منهما يسارع ويبادر إلى تحقيق عبوديته لله .

كل منهما يساند ويؤازر الآخر في مهمته المقدسة ودوره الجليل .

كل منهما يريد أن يفتح للآخر آفاق ويمد معارج : الأب يعرض على الابن الأمر ويترك له حرية الاختيار ، لأن القبول هنابلا إجبار وبدون إرغام دليل على ثبات الإيمان وبرهان على صحة وصدق النبوة، أكان هناك مبرر لإبراهيم أن يقول لإسماعيل : (فانظر ماذا ترى ؟)

1تفسير الكشاف – المجلد الثالث – صفحة (348)

بتلك الكلمة أخرج إبراهيم الأمر كله من مجال التكليف الحتمي والأمر القطعي ، بتلك الكلمة أعطى إبراهيم لإسماعيل أن يضرب أروع وأجل ما في التضحية من معاني ، فهنا لم يضح إبراهيم بإسماعيل ، ولكن ضحى إسماعيل بنفسه طاعة وخضوعا وامتثالا وهذا ما كان يريد إبراهيم أن يصل إليه ، لا ليتنصل من تحمل مسئولية الذبح – وهو في حقيقته لم يكن ذبحا – ولكن ليساعد إسماعيل على إخراج كل مكامن ودلائل النبل والشموخ والشرف التي تليق بنبي ابن نبي . يريد أن يشركه ويشاركه في اليقين ، لينال ما سوف يناله ، إنهما نبيان يجتمعان في موقف واحد ومشهد واحد ، يتعرضان لابتلاء من الله ، وكل منهما يعتصم بحبه لله وإيمانه ورحمته ولطفه ، وكل منهما يستمد القوة من الآخر ، وفي نفس الوقت كل منهما يقوى ويسند ويساند نبوة ويؤازر الآخر (فلما أسلما): " وأسلما : بمعنى استسلما وانقادا لأمر الله فالفعل لازم ، أو بمعنى : سلم الذبيح نفسه وسلم الأب ابنه فيكون متعديا والمغعول محذوف " 1

1التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د. محمد سيد طنطاوي – المجلد الثاني عشر – صفحة (101)

" يقال سلم لأمر الله وأسلم واستسلم بمعنى واحد وقد قرئ بهن جميعا إذا انقاد له وخضع ، واصلها من قولك سلم هذا لفلان إذا خلص له ، ومعناه :سلم من أن ينازع فيه ؛ وقولهم سلم لأمر الله وأسلم له منقولان منه وحقيقة معناهما : أخلص نفسه لله وجعلها سالمة خالصة ،وكذلك معنى استسلم استخلص نفسه لله ، وعن قتاده في أسلما : أسلم هذا ابنه وهذا نفسه "[1]

الابن:لم يخذل والده ، لقد حزم أمره واتخذ قراره ، بدون تردد ، بل بدون سابق تفكير ، وأخشى أن أقول أن إسماعيل لم يتخذ قرارا ، لأن القرار عادة يكون نتيجة تفكير ومشاورة ومراجعة ، وهنا لم يكن تفكير ولا مراجعة ولا مشاورة من إسماعيل ، في أجل أمر وأخطر شأن متعلق بوجود الإنسان ، من الصعب علينا تخيل هذا الموقف ، أو حتى تقديره ، والإحاطة بكل ما اشتمل عليه من نوازع نفسية ، وخواطر عقلية ؛ لأنه ما أبعد البون بيننا - كبشر - وبين هؤلاء الذين وقع اختيار الله ليكونواعباده ورسله وأنبيائه ، وما أبعد البون بيننا وبينهم حينما يكون الأمر أمر امتحان واختبار وابتلاء ،

1تفسير الكشاف – المجلد الثالث – صفحة (348) .

فالأمر بالنسبة لنا إما أن ننجح ونصمد ونتماسك أمام الامتحان والاختبار والابتلاء ، وأما أن نسقط وننهار ونخسر خسرانا مبينا ، أما هم فالأمر لهم إرتقاء في معارج الرضا الإلهي ، والابتلاء والامتحان يأتي على قدر قوة عزائمهم ، وعلى قدر ثبات إيمانهم ، والمواقف الصعبة والجليلة من شأنها أن تظهر أصالة معدنهم ورقي شخصياتهم ، وشرف منبتهم . فقد كان إسماعيل – في تلك اللحظة – يترقى ويتسامي إلى أعلى قمم وذرى النبوة ، إنكار مطلق لذاته ولمشاعره وأحاسيسه ،ونظر إلى حق الأبوة (يا أبتي) وهناك حق الله على إبراهيم الذي يتضاءل بجواره أي حق أخر (افعل ما تؤمر) ، وهذا أهم وأجل ما في الموقف ، بل ليس في الموقف كله إلا هذا ، الانصياع والخضوع التام والكامل لأمر الله ، بدون النظر إلي اعتبارات أخرى ، ولا يحزنك أمرى ، ولا تراع لشأني (ستجدني إن شاء الله من الصابرين) .

والموقف الذي اتخذه إسماعيل بدد كل تردد أو أي شعورأو إحساس قد يضعف أو يقلل من إرادة وعزم إبراهيم – إن كان هناك في نفسه شيء من هذا - ليس هذا فحسب بل أن موقف إسماعيل قوى وشد من أزر إبراهيم ، وجعله أكثر تصميما وأشد عزما عن ذي قبل ،

فالإرادة أصبحت إرادتين والعزم أصبح عزمين ، لا لم يكن هناك إرادتان ولا عزمان ، وإنما تجمع النبيان في إرادة واحدة وعزم واحد ، لم يعد المشهد يقوم به شخصان ، وإنما امتزجا وأصبحا شخصا واحدا، وإن شئت الدقة لم يكن في الموقف ولا في المشهد شخوص وإنما ذاب وانصهر كل ما في المشهد ولم يعد يتصدر الموقف سوى إرادة ومشيئة الله تتجسد في نبيين يسارع كل منهما أن يدفع بالآخر للتدليل على عبوديتهما لله الواحد الأحد .

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111)

الصافات: ١٠٢ - ١١١

وأمر التضحية لم يكن بعيدا ولا غريبا عن إبراهيم ، لقد ضحى بنفسه في بداية أمره ، حينما أصر على أن يسير في طريق جهاد الكفار حتى أل أمره وأمرهم أن ألقوه في النار ، ولقد ضحى بإسماعيل طفلا وأمه حينما تركهم بجوار البيت حيث لا زرع ولا أي مقوم من مقومات الحياة ، بل إن احتمالات الموت والهلاك هي الراجحة والمتوقعة ، ولقد ضحى بعشيرته بعدما خرج من موطنه سائحا قائدا لهم يضرب في فجاج الأرض حيث لا مرشد ولا دليل يهديه في طريقه سوى عناية ورعاية الله .

والتضحية ملمح أصيل من ملامح شخصية إبراهيم ،إذن فليس بغريب أن يجري هذا الأمر على يد إبراهيم – ؛– دونا عن الأنبياء والرسل جميعهم ، وطالما كان إبراهيم يؤسس أركان وأسس العالم العقدي للبشرية ،فلابد أن يحدد ويوضح أهم أساس من أسس هذا العالم ،بل الأساس الذي ترتكز وتقوم عليه كل أسس وأركان هذا العالم ، وهو حق الله على البشرية، فقد أدرك إبراهيم أن هناك لله على العباد حقوقا لابد أن تقضى وتوفى ، وهي ليست الحقوق المتعلقة بربوبيته ، فقد دلنا الله - عز وجل –

كيف تقضى تلك الحقوق من خلال ما فرضه من عبادات ،وتلك - أيضا - لا تقضى حق قضائها ؛ لا أحد بقادر على تأديتها مع ما يتناسب مع مقام الربوبية ، فنحن نؤدي العبادات مع ما يتناسب مع قدرتنا وطاقتنا كبشر ، وتبقى مسافة شاسعة بين ما يؤدى وبين ما يجب أن يؤدى وفق مقام الربوبية، وتتجلى رحمة الله بنا ، أنه لم يطالبنا بشيء يتناسب مع مقام ربوبيته ، وإنما رضى بما نؤديه وفق قدرتنا ووسعنا ،ولكن - مع ذلك - يبقى هناك حق ، لا ينازعه ولا يشركه أو يشاركه حق في قلوب العباد ، يقوم ويتم هذاويكتمل هذا الحق في القلوب والضمائر والأفئدة ، ثم تأتي بعد ذلك ، بقية الحقوق ،وهو ألا يكون في قلب العبد حب سوى حب الله ، الشاغل الأوحد والوحيد هو الله ، وسواء ما أقدم عليه إبراهيم ، أو ما تجسد في رؤياه ، كان باعثه أنه شعر أن حبه لإسماعيل أوشك أن يربو على حبه لله ، وأنه شغل وتشاغل بحب إسماعيل عن حقه لله ، أو أن ما أقدم عليه كان بمثابة دليل وبرهان أن لا شيء بعزيز وغال - مهما كان - أن يقدم لله عرفانا وامتنانا وحمدا وشكرا لعظيم فضل وكرم الله على إبراهيم ،فقد كان فضل إبراهيم علي البشرية عظيما ، لأنه أنهى عهد تقديم القرابين البشرية كما كانت تقدم قبله وعلى عهده ، وبدأ عهدا ودرسا للبشرية يعلنهم فيه أن الله غني عن العالمين ، وغني عن كل ما يقدمونه من ضحيا وقرابين ،

وأن الله الحق لا ينتظر ولا يقبل من عباده سوى طاعة الجوارح وخضوع القلب وصفاء الضمير ، وأنه لا يقايض عباده بما أنعم عليهم من نعم ومنن ، فهو الرزاق وهو المنان ، وأن فيوض رحمته لا تنقطع عن عباده ، وما حدث فصل حاسم بين الآلهة الباطلة التي كانت تتقاضى البشر أغلى وأعز من وما لديهم ، وبين الإله الحق الصادق الرحمن الرحيم ، وأني لنا أن نعرف ذلك إن لم يقدم إبراهيم - ؛- على ما فعله ؟ وكيف للبشرية أن تعرف هذا إن لم يتقدم فرد من أنبل وأشرف وأطهر وأنبل أفرادها ليجسد أكبر وأجل وأقدس طموحات البشرية لتنال رضا خالقها ومعبودها ؟ متعرضا للبلاء العظيم ، حاملا عن البشرية وزر هذا الاختبار ، وضريبة هذا الامتحان ؟

ولم يوفق وينجح إبراهيم في هذا الابتلاء ، ولم يقع اصطفاء الله ، إلا لأنه أهل لكل هذا فهو الإمام وهو الأمة وهو الحنيف وهو الموفي وهو الخليل وهو المسلم ،تجمعت في إبراهيم كل صفات وسمات الخير وأوفت واكتملت وأتمت تلك الصفات والسمات مع إبراهيم كما لم توف وتكتمل وتتم مع أحد منذ أن خلقت السموات والأرض إلى أن تقوم الساعة ، فسلام على إبراهيم في العالمين .

الفصل الثامن
مسار الدعوة الإبراهيمية

هل نستطيع أن نحدد مسارا للدعوة الإبراهيمية ؟

ما يتوافر لنا لا يمكننا من أن نحدد مسارا واضح المعالم لتلك الدعوة ، وكل ما نستطيعه أن نحدده نقاطا أو معالم أو مراحل ، وربما تلك المراحل لا تكون متسلسلة أو مترابطة فيما بينها ، ولكنها ليست متناقضة أو متعارضة ، وربما عدم الترابط وعدم التسلسل سمة من سمات تلك الدعوة ، فالذي يحدد مسار أي دعوة ثلاثة أمور : زمان ومكان وهدف .

أما الزمان:

فقد كان ممتدا لما يزيد عن مائة سنة وهو عمر صاحب الدعوة ، وتلك المائة كل ما توافر لدينا من علم مجرد أحداث منفصلة ومتقطعة على طوال هذا الشريط أو الحيز الزمنى ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نفتقد التحديد القاطع لموقع تلك المائة من التاريخ الزمنى لتلك الفترة ، فأغلب الأقوال تقول فيما بين نهاية القرن الثامن عشر إلى بداية القرن العشرين قبل الميلاد

أما المكان:

فقد تعددت وكثرت تنقلات ورحلات إبراهيم - ؛- على غير المألوف لصاحب دعوة يريد أن يؤصلها ويثبتها ويكسبها صفة الاستقرار والدوام في بقعة معينة من الأرض لتنقل بعد ذلك فيما حولها وتنتشر .

أما الهدف :

فربما تبدل وتغير أكثر من مرة ، أو تغير مع كل مرحلة من تلك المراحل التي مرت بها الدعوة ، فالهدف الذي كان يريد تحقيقه إبراهيم وهو في بلدته ، لا شك أنه تغير حينما ترك هذا المكان وارتحل إلى مكان آخر ، فلا نستطيع أن نقول إن هناك هدف أوحد سعى إبراهيم إلى تحقيقه من بداية دعوته ،وإلا لو كان هناك هدف أوحد لأقتضى ذلك من إبراهيم البقاء في مكان واحد إما للعمل على تحقيق وتنفيذ هذا الهدف ، وإن تحقق الهدف فلا مبرر للتنقل في أكثر من مكان .

البداية :

تقول بعض الروايات أن والد إبراهيم كان سادنا للمعبد الذي كان يؤمه الناس ، أو كان صانعا للتماثيل التي اتخذها الناس آلهة تعبد ، أو أنه كان كاهنا أو رجل هام من رجال الدين ، ونخلص من هذا القرب الشديد والحميم لوالد إبراهيم للدين وآلهة ذلك الزمان سواء كان سادنا أو صانعا للتماثيلأو رجل من رجال الدين ، وفي هذه الحال إما أن يخرج الابن على نفس نهج والده ، ويرث عنه كل شيء حتى وظيفته وحرفته وعقيدته ، وإما أن يفارق ويعارض والده في كل شيء ، فهذا القرب الشديد من الدين ورموزه ،قد ينتقل أثره إلى الابن ، وبالتالي إما أن يهيمن ويسيطر ويستولى على الابن ويجعله متعصبا وشديد التدين كما هو الحال مع والده أو يزيد ، أو أن هذا القرب يفتح له الحقيقة عن هذا الشيء ويكشف له زيفه وفساده وبطلانه. وهذا – الاختلاف – يرجع إلى شخصية الابن ، فمما لاشك فيه أن الأب كان يصحب ابنه في ذهابه إلى المعبد أو يطيل من التحدث في أمور الدين وشأن العقيدة ، بل أن حياة الأب – كما روي – كانت تدور حول الدين الذي كان يتدين به مجتمع هذا الوقت ،

وقد خبر وسبر حقيقة أمر عقيدة القوم ، فأدرك ما لم يدركه أبوه ، وعلم ما لم يعلمه قومه ، وأن تلك الآلهة التي تعبد وتقدس وتقدم لها القرابين ، ما هي إلا حجارة صماء ، ولا تسمع ولا ترى ولا تضر ولا تنفع ، ويتعجب إبراهيم كيف جهل وغفل أبوه وقومه عن هذه البديهة الواضحة ، ولا شك أنه أدار هذا الأمر في عقله كثيرا ، حتى يكون على يقين وبينه ، وفي كل مرة يخرج بنفس الحقيقة أن والده وقومه على ضلال ، وأنه - رغم أنه يخالف ويختلف مع الجميع بدون استثناء - على الحق . أيجهر بهذه الحقيقة ويواجه ويجابه بها قومه ، أو يجعلها في طي الكتمان ؟

وما جدوى الحقيقة إذا وصلت إليها ولم تعلنها على الملأ ؟

ولكنه يدرك - قبل غيره - مدى تأصل وتجذر واستقرار تلك العادة المذمومة المقيتة في عقول ونفوس قومه ، وأنه متى أعلنها سيجلب عليه غضب ونقمة وانتقام المجتمع كله ، وعلى ما يبدو أنه بدأ بأبيه ليعرف مدى رد فعله ، فجاءه صارخا صادما محذرا متوعدا ، ولا شك أن قومه سيكونون على نفس ردة الفعل إن لم يزيدوا ، فربما والده قد راعى درجة القرابة وتلك الوشيجة القوية بينه وبين ابنه ، أما القوم فما سيرعون له وقد أهان آلهتهم وسفه أحلامهم ؟

إذن قد عرف ما سيكون رد فعل قومه ..الرفض بل الغضب والثورة والانتقام ، فما فائدة الجهر بالحقيقة التي توصل إليها ؟

وهل يتوقف إعلام الحقيقة والجهر بها على مدى تقبل الناس لها ؟

الحقيقة تعلن ويجهر بها لا لشيء إلا لأنها حقيقة قبلها الناس أم رفضوها، رحبوا بها أم برموا بها ، تسامحوا مع صاحبها أم كادوا به .ولم يجعله موقف والده يتراجع أو يتردد ، بل زاده إصرارا وتصميما ، وانتقل إبراهيم من نطاق الأسرة والمقربين إلى قومه أجمعين .

وبدأ أمر إبراهيم ينتشر شيئا فشيئا ، وربما حمل البعض كلام ومحاولات إبراهيم على غير محملها ،وأنه ليس جادا في محاولته صرف الناس وتنبيههم إلى خطأ وضلال ما يفعلون ، وإنه سرعان ما سيعود إلى رشده في إحترام وتبجيل الآلهة ، فهم يقولون له : (قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين) وهذا يدل على أنه كانت هناك أصوات أو محاولات قبل إبراهيم أو عاصرت إبراهيم سخرت أو استهزأت أو نقدت بصورة من الصور العلاقة بين الناس وآلهتهم ،

ولكنه على ما يبدوا كان نوع من اللهو و العبث والمجون والخروج عن التقاليد الاجتماعية المتزمتة ، ولاتعدم وجود مثل تلك الفئة في أكثر المجتمعات محافظة وتزمتا وتمسكا بعبادتهم ، والفرق بين هؤلاء وإبراهيم ، أنه قدم البديل لهم : (بل ربكم رب السموات والأرض وأنا على ذلك من الشاهدين) .

ويواصل إبراهيم دعوته لقومه ويحاول أن يزلزل تلك المكانة الثابتة الراسخة التي تشغلها الآلهة في نفوسهم ، متنقلا من مكان إلى مكان ومن فئة إلى فئة ، إلى أن يصبح أمره معروفا لهم ، حتى أنه بعد أن حطم التماثيل ، وسألوا عن الفاعل : (قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم)، وعلى ما يبدوا أنهم كانوا يرعون لإبراهيم مكانة ومنزلة ، إما لأنه كانوا يعرفون عنه التعقل والرشد وحسن التصرف ، أو أن مكانة ووضع والد براهيم كان يمنعهم من مجابهة إبراهيم بعنف ، أو الأمرين : إن إبراهيم كان له منزلة في الهيئة الإجتماعية بصفة شخصية – لا سيما فيما يتعلق بأمور الدين - إلى جانب منزلة والده ، وكأنهم كان يستبعدون أن يحدث ما حدث من إبراهيم بصفة خاصة ، بدليل قولهم : (قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم) فالاستفهام التعجبي والانكاري ليس منصبا على الفعل ، ولكنه على الفاعل ، وكأن لسان حالهم يقول إن آخر شخص كنا نظن أن يفعل ذلك هو إبراهيم !

ولا نعرف المدة التي مكث فيها إبراهيم يدعو قومه ، ولا نقدر مدى الجهد الذي بذله في ذلك ، ولكننا نستطيع أن نفترض أنها مدة ليست بالقصيرة ، والجهد ليس بالهين ، وأنه جادلهم جدالا لا هواده فيه ، تارة مع أبيه فقط ، وأخرى مع قومه وثالثة مع الاثنين ورابعة مع الملك .وهو لم يسلك أسلوبا واحدا أو طريقة واحدة ، ولكن تعددت الطرق واختلفت الأساليب ، ليسد عليهم كل المنافذ والسبل ، فيقول لوالده

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ

الانعام 74

ويستخدم معه أسلوبا آخر يصل إلى درجة التضرع :

إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) مريم41-47

وفي مكان آخر يصب اهتمامه على التماثيل محاولا تبصير قومه بضلال وخطأ تلك العادة التي تعودوا عليها :

ذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (56) الأنبياء

وفي تلك المرة يبين لهم زيف وضلال العبادة :

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الشعراء

وهنا لا يهملهم وإنما يباغتهم بالإجابة الحقيقية :

فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ الصافات:87

وفي مرة أخرى يعلن براءته من عبادتهم وربما حينما وصل إلى درجة أو مرحلة وجدهم لا يستجيبون لدعوته :

وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28) الزخرف: ٢٦ - ٢٨

وفى موضع آخر يرغبهم في عبادة الله ، ويحذرهم من عبادة الأوثان:

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (16) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17)

العنكبوت: ١٦ - ١٧

كل ما كان يفعله إبراهيم مع قومه نوع من الجدال والحوار والمناقشة لمحاولة إقناعهم بخطأ وضلال ما هم عليه ، وقد وصل إلى قناعة بعدم جدوى هذا الأسلوب وتلك الطريقة ،فهم مصممون على موقفهم ومتمسكون بعبادتهم ويقدسون عاداتهم التي ورثوها عن أبائهم وأجدادهم ، فلم تغيرهم أو تؤثر فيهم دعوته وجداله وحواره ، كأنهم نيام ، أو غائبون عن الوعي ، إذن فليبحث عن أسلوب من شأنه أن يصدمهم أن يزلزلهم ، أن يزيح تلك الغشاوات من على أبصارهم ، ويرفع تلك الحجب من على قلوبهم ، وأن يخلص عقولهم ما هي عليه من جمود وتحجر ، ليوجه لهم طعنة في قدس أقداسهم آلهتهم ..أصنامهم ليحطمها تحطيما ، إنها بالنسبة لهم آلهة ،

وبالنسبة له حجارة ، إذن ما يمنعه أن يحطم تلك الحجارة ، ولكن هذا بمثابة إعلان حرب وحرب مقدسة لا هوادة ولا تسامح فيها ، والعلاقة القلقة المتوترة بينه وبينهم ستنتهي إلى العداوة الصريحة بل إلى الإنتقام منه ، فهي حرب ، وحرب بين طرفين غير متكافئين في القوة ، هم الأقوى ،

ولكن في نفس الوقت هو في جانب الحق وهم في جانب الباطل فالحرب ليس بين قوى وضعيف ، ولكنها بين حق وباطل ، وليمض الحق غير مبال بقوة الباطل :

وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58) قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (65) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (68)الأنبياء: ٥٧ – ٦٨

ويصل الأمر بإبراهيم أن يحاج الملك ، وربما تلك تمثل مرحلة أخيرة ، فحينما استشرى أمر إبراهيم واستفحل رأى أولو الأمر أن يذهب به إلى الملك أو أن الملك هو الذي طلب ذلك :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ البقرة: ٢٥٨

وينتهي الأمر بمحاكمة إبراهيم ، والحكم عليه بالحرق ، وتحدث المعجزة ، ولكن حتى مع المعجزة لم تكن لها أثر في أن يغير قومه رأيهم في دعوة إبراهيم - ؛- وهذا أمر غريب ، وليس له من تفسير سوى أن هؤلاء القوم من عتامة الطبع والغلظة ما لا تجدى معهم المعجزة نفعا ،أو أنه تم محاصرة إبراهيم ودعوته محاصرة تامة بعد تلك المعجزة بعدما أدرك القوم أن إبراهيم صادق في دعوته ، ولكن مع وجود الدليل والبرهان على ذلك يعاندون حفاظا على مصالحهم الدنيوية ، وإن كنا لا نستطيع أن نجزم أنه مضت - المعجزة -

بدون أن تحدث تأثيرا وتحولا في عقيدة البعض وأن هناك من آمن بدعوة إبراهيم وأيد دعوته ، ولكن على نطاق ضيق ، ويرجع ذلك إلى الموقف الحديدي من قبل المجتمع من ناحية والسلطة المتمثلة في الملك وحاشيته من ناحية أخرى ، أو أن دعوة إبراهيم كانت سابقة لعصرها ، أو أن البشر في ذلك الزمان لم يستطيعوا أن يتساموا مع تلك الدعوة ، وهنا يطرح سؤال : فلماذا لم تؤخر دعوة إبراهيم – ؛- حتى تشب الإنسانية عن الطوق وتستطيع أن تتعاطى مع دعوته ؟

أو لماذا لم تراع دعوة إبراهيم قدرات الإنسانية العقلية ولا تصدمها أو تفاجئها بدعوة التوحيد التي أثبت الواقع بالفعل أن الإنسانية ليست مهيئة أو لا تقدر ولا تستطيع أن ترتقى إلى تلك الدعوة ؟

فما جدوى دعوة لا تجد أذانا صاغية ولا عقولا متفتحة ولا نفوسا مستقبلة لإشارات وأنوار تلك الدعوة ؟

هذا هو الفرق بين الدعوات الإصلاحية التي يقوم بها البشر ، والدعوات الدينية التي يقوم بها الأنبياء والرسل ، فالدعوة الإصلاحية لابد أن تراعي أمورا كثيرة ، منها الحالة العقلية والإجتماعية والنفسية لمن توجه إليهم الدعوة ، ومدى ملاءمتها ومناسبتها ، وإلا لن تعطي الدعوة ثمارها ، أما الدعوة الدينية

فهي تخاطب جوهر الإنسان ، بما هو مركوز داخله من نوازع الخير وروادع الشر ، وأنها تفتح الباب أمام الإنسان ليرتقى في سلم الطاعات ودرجات السمو ،وتدفع الإنسان وتحضه ، وتستفز وتستنفر كل طاقاته وإمكاناته ، بل وتكلفه من أمره – مختارا – كثيرا من المشقة والعناء، وهو يفعل ذلك سعيدا مسرورا لأنه على يقين من حسن الجزاء ووافر الثواب، ومن ناحية أخرى يمنحه إحساسا بالتميز والتفوق من أنه يحقق مقصود الله من الخلق ، لذلك قد تأتي دعوة دينية وتذهب بدون أن تحقق ما كان يظن لها أن تحققه ، وهذا راجع إلى أن الناس لم يرتقوا ولم يتعاطوا مع الدعوة ، فالقصور هنا والعجز من الناس ، مثل النور فهناك من لم ينتفع به، ولا يعاب النور لذلك ، وليس معنى أن الدعوة جاءت ومضت بدون أن تحقق المرجو ، أنها لا جدوى ولا فائدة منها ، فهي حجة على هؤلاء الذي تقاعسوا وتخلفوا أن يسايروا الدعوة ،من ناحية ومن ناحية أخرى الدعوات الدينية ترتبط بما قبلها من دعوات وبما بعدها ، فهي حلقة في سلسلة ، ربما استدعتها الدعوة السابقة لها لتكملها وتتمها ، أو تتطلبتها الدعوة اللاحقة لها لتمهد وتعد لها ، وكل دعوة لها مكانها وزمانها المحدد والمخصص لها ، آمن بها الناس أم لم يؤمنوا ، تعاطوا معها أم لم يتعاطوا ، استجابوا لها أم لم يستجيبوا ،

فهي – الدعوة – قد أدت دورها في الربط بين السابق عليها واللاحق لها ، لا نستطيع أن ننظرأو نقيم دعوة إبراهيم – ؛– بمعزل عن جميع دعوات السماء لأهل الأرض ، فإن جاز هذا لأي دعوة دينية ولأي نبي ورسول ، فإنه لا يجوز على دعوة إبراهيم ، فإذا كان هناك بناء مرتفع فوق الأرض فمحال أن يكون تقديرك له وإعجابك بمدى شموخ وارتفاع بنيانه فوق الأرض ، محال أن يتم هذا بدون أن تضع في الاعتبار الأساس الذي أقيم عليه هذا البناء ، نعم إن الأساس تحت الأرض قد لا تراه الأعين أو تلمسه الحواس ، ولكنه – الأساس – له الفضل الأول والأخير فيما تراه الأعين وتلمسه الحواس ، بل أنك لو عزلت هذا البناء الشامخ عن الأساس لاستحال كومة من الركام .

فللدعوة الإبراهيمة فضل على جميع الدعوات التي لحقتها في الزمن ، فهي التي مهدت وأعدت وهيئت ، بل فضل لا ينكر على الإنسانية جمعاء ، لأنها تعتبر أول رابط حقيقي ووثيق يربط بين الإنسانية وفكرة أو مبدأ التوحيد ، هذه الفكرة التي ظلت تطارد الإنسانية ردحا طويلا ، وتتفلت الإنسانية منها، حتى قدر الله لها أن تثوب إلى رشدها ، وتعتنق هذه الفكرة .

ووقف إبراهيم - ؛- متفحصا ودارسا ماضي وحاضر ومستقبل دعوته وموقف المجتمع منه فقرر قراره وهو أن يعتزلهم وما يعبدون .

وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا

مريم: ٤٨

ولكن ما جدوى بقائه في مكان صودرت فيه دعوته ، وجمدت كل جهوده ومساعيه ،وحيل بينه وبين مهمته ورسالته ؟

لذلك قرر ترك هذا المكان ومفارقة هذا المجتمع والتخلي عن هذه الأرض ، وهذا شأن وديدن الأنبياء والرسل ، إذا ضاقوا بمجتمعهم وضاق بهم مجتمعهم ، وحوصروا ، وشعروا أن لا جدوى من البقاء والاستمرار ، بحثوا عن أرض أخرى ، وقوم آخرين ، تكون الرسالة معهم أسعد حظا وأوفر نصيبا ، ولكن إلى أين ؟

إلى الغرب أم إلى الشرق ؟

أولا :ينبغي أن نعرف أن إبراهيم – ؛- لم يرتحل بصفة منفردة ، وإنما كانت معه قبيلته ، أو على أحسن تقدير معه عشيرته الأقربين ، وكان بمثابة زعيم تلك العشيرة يأتمرون بأمره شأن زعماء العشائر ، وشخصية إبراهيم وما كان يتصف به تؤهله ان يكون الزعيم والقائد .

ثانيا :قبل أن يقرر الزعيم تحديد وجهته ، لابد أن يضع في حسبانه عوامل السلامة والأمان التي يجب أن تتوافر أثناء مراحل الرحلة ، إذن لابد أن يسير في طريق مطروق ومعروف سار فيه إناس من قبل .

ثالثا : وهو في طريقه أو رحلته لابد وأن يعمل على تحقيق أهداف أفراد تلك العشيرة ، فمن يريد أن يرعى فالطريق يسمح بذلك وتتوافر فيه أسباب الحياة من وفرة الماء والعشب ، ومن يريد أن يعمل بالتجارة أو لا ينقطع عن أسبابها فالرحلة تسمح بذلك .

رابعا : تلك الأسباب الدنيوية ومحاولة توفيرها أو الاطمئنان على وجودها لم تغب عن إبراهيم بحكم أنه زعيم العشيرة ، وربما تلك الأسباب - إلى حد ما - هي التي حددت وجهته ، ولكننا نرى أن الأسباب الدينية كانت هي المحرك الأساسي والدافع الرئيسي وراء رحلة إبراهيم ، فهو يريد أن يعرض ما لديه على الآخرين ، ويريد - أيضا - أن يسمع من الآخرين ، وهو لم يترك مكانا ليحل بمكان آخر ، ولكنه يريد أن يحل بعوالم كثيرة ومتعددة ، وشرط أن يكون هناك بينه وبين تلك العوالم وسائل تفاهم أو صلات تقارب ، بمعنى أن يكون هناك احتمال بل ضرورة أن يفهمهم ويفهموه ، وبمعنى آخر أن يجد لدى هؤلاء الذين سيقابلهم أثناء رحلته ما لم يجده في ((أور)) وأن يجد لا نقول حفاوة ولكن حسن استقبال لما يعرضه عليهم ، ربما يصادف - بل حتما - أرضا وقوما يحتضنون دعوته ويرعونها رعاية تتناسب ومبادئ تلك الدعوة .

كل تلك الأمور لا تتوافر أو لا يحتمل توافرها إلا إذا اتجه نحو الغرب ، فالاتجاه إلى الغرب يلبي لإبراهيم - :-

كل تلك الأسباب الدينية والدنيوية ، أضف إلى ذلك أن بلاد الرافدين لم تكن منفتحة انفتاحا تاريخيا وحضاريا وثقافيا وتجاريا وفكريا مثلما هي منفتحة على الغرب ، والغرب - بالتالي - منفتح عليها ، بل نكاد نقول أن تلك البلاد لم تكن منفتحة فحسب بل مندفعة اندفاعا قد يضعف أحيانا وقد يقوى أحيانا أخرى ولكنه لم ينقطع أبدا .

ولكن أكان إبراهيم يقصد مكانا معينا ومحددا إذا وصل إليه يلقي عصا الترحال ، أو يريد تحقيق غاية معروفة إذا حققها تنتهي مهمته ورسالته ؟

أما أنه يقصد مكانا معينا ومحددا فلا ؛ لأن شأن المرتحل بعشيرته والذي لا ينوي أن يعود إلى مقره او موطنه الأول ، أن يظل يرتحل ويستقر أو يمكث في مكان إلى حين ما ، فإذا ضاق بالمكان أوضاق المكان به ، تركه واستأنف الترحال ، أو قل ان الظروف والأحوال المتغيرة والمتبدلة التي يتعرض لها المرتحل هي التي تحدد له متى يبقى ومتى يرتحل ، وأين يحل ، وإلى أين ينتقل .

أما الغاية أو الهدف الذي يريد إبراهيم تحقيقه ، فأظن أنه لم يفكر في ذلك ، وكيف يفكر في غاية تحقق ينتهي إليها وهو لم يبدأ بعد ؟

حتى ولو كان قد بدأ في دعوته وصدع بالأمر وحرك تلك المياه الراكدة وغير تلك المياه الأسنة في وطنه ، فإنه ترك كل هذا وراء ظهره غير مأسوف عليه ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن من شأن المرتحل أن تكون أمامه الخيارات مفتوحة والبدائل كثيرة ، فتغير الأماكن وتغير الأقوام يتيح لك خيارت لا حصر لها ، فالذي يحصر الخيارات ضيق المكان ، وثبات وتعنت القوم ، ومن ناحية ثالثة أن شأن الرسالات السماوية أنها ليست لها غايات معروفة ومحددة من قبل ، ولكن كل غاية أو هدف أو مرحلة تتولد أو تنبثق ذاتيا من غاية قبلها ، وهكذا فهي تنداح أو تندفع ذاتيا إلى الأمام ، وما استبطنته من مبادئ وقيم هو الذي يحدد اتجاهها وحركتها ، بمعنى أن الرسالات السماوية ليس البشر هم الذين يحركونها ، وإنما هي التي تحركهم ، وليس البشر هم الذين يؤثرون فيها ، وإنما هم المتأثرون بها، بمعنى آخر أن الرسالات السماوية هي التي تصنع حركة التاريخ بل وتحدد اتجاه وليس شيء آخر .

واجتاز ابراهيم بادية الشام إلى كنعان ، ومن كنعان إلى مصر وفي بعض الأقوال أنه عاد مرة أخرى إلى كنعان ، ثم اتجه إلى جنوب الجزيزة العربية حيث قام ببناء البيت .

كم لبث إبراهيم - ؛- في رحلته تلك أو في رحلاته ؟

وما الأحداث التي حدثت له خلال تلك الرحلات وأثرت في شخصيته وبالتالي أثرت في مسار دعوته ؟

وهل كان يعرض دعوته على الأهلين بالمكان الذي يحل به ؟

وما موقف هؤلاء من دعوته ، هل استجابوا له واقتنعوا وآمنوا أم نفروا منه وأعرضوا وكذبوا ؟

وماذا كان يفعل طوال تلك السنين الطوال منذ أن خرج من موطنه إلى أن استقر في جنوب الجزيرة العربية ؟

المسار مستمر:

كل تلك الأسئلة لا إجابة لها .

أو قل لها إجابة ولكن ليست قاطعة ولا حاسمة .

أو قل لها إجابات كثيرة محتملة ، ولكن ما من شيء يثبت إجابة من تلك الإجابات أو ينفيها .

وكل ما يعنينا في هذا الأمر أن مسار الدعوة مستمر ، والغريب أن دليلنا في هذا ليس حدث من الأحداث لأن كل هذا مشكوك ومظنون فيه ، ولكن الدليل الذي لا يقبل الشك على استمرار مسار الدعوة هو صاحبها نفسه ، هو إبراهيم - ؛- فقد تمثلت وتجسدت الدعوة في إبراهيم ، والبعض يشعر بالأسف والعجب على موقف التاريخ من رحلات إبراهيم ، فلم يسجل التاريخ شيئا ولم يذكر شيئا - على تفاهة وهوان الأشياء الكثيرة التي يحتفي بها - وإن كنا لا نرى في هذا ما يدعو إلى الأسف أو إثارة العجب ، فهب عرفنا كل تفاصيل رحلة إبراهيم وما صادف من أحداث يسيرة أو جسيمة ، ماذا كانت ستضيف لنا تلك المعرفة ؟ بل نحمد الله أن التاريخ صمت ولم يكتب شيئا ولم يتحدث بشيء ،فالتاريخ يصمت في حالين : إما أمام حدث في غاية الهوان أهو هومعتاد ومألوف في حياة الناس ، فلا جدوي ولا فائدة من ذكره وتسجيله ، وأما أمام حدث من الضخامة والأهمية والخطورة ،

لأنه في هذه الحالة لا يدري ماذا يكتب وبماذا يصف هذا الحدث ، فهو يراه أنها خارج قدرته ، أعلى وأجل من طاقاته وإمكانياته ،وماذا سيقول التاريخ عن رجل يأتي بما لم يأت به أحد من قبل ، بل يفعل مالم يخطر أويدور بخلد أي بشر ، رجل يقف- وحيدا - أمام عقيدة قومه مسفها مستهزئا ساخرا ، يحطم لهم رمز الشرك والعبودية ، ويدعوهم إلى التوحيد ، ينتقمون منه ، ولكن الله ينجيه ، ويترك هؤلاء القوم ويطوف في عرض البلاد وطولها ،فاحصا ودارسا للعقائد والمذاهب التي يدين بها بشر هذا الزمان ، ويؤسس أول بيت لعبادة وتوحيد الله ، وينشئ بوحي وإلهام من الله عقيدة العقائد ، ويحدد ويشكل نوعية العلاقة بين البشر وخالقهم ، لتسير البشرية على هدي وإرشاد من تلك العقيدة ، ويأتي الأنبياء والرسل كلهم – بلا استثناء – متلمسين هديه وخطاة ، معترفين بريادته وأبوته وقيادته وزعامته . ماذا سيقول التاريخ إزاء كل هذا ؟ هل سيتحدث عن إبراهيم بنفس اللسان الذي يتحدث به عن القتلة والمخربين والسفاحين والمخادعين والمزورين ؟ وهل سيكتب عن إبراهيم بنفس المداد الذي كتب به عن جنكيز خان وهلاكو والأسكندر الأكبر ونابليون وهتلر ومن سار على دربهم ؟ هل سيوضع إبراهيم في نفس السجلات التي وضع فيها هؤلاء وهؤلاء ؟

وهل يقدر بشري أن يقدر ويوفي إبراهيم حقه ؟

إن مكان ومكانة إبراهيم فوق كل هذا .

ومن أراد أن يلتمس تاريخ إبراهيم ، فلا يلتمسه بين صفحات كتاب ، أو رفوف مكتبة أو بين أكداس كتب وسجلات .

من أراد تاريخ إبراهيم فليلتمسه في الضمائر والعقول .

من أراد تاريخ إبراهيم فليلتمسه في خطوات الإنسانية المباركة نحو خالقها .

من أراد تاريخ إبراهيم فليلتمسه في كل الدعوات الدينية التي امتن بها الله على البشرية ، فإنها آخذة منه بسبيل .

من أراد تاريخ إبراهيم فليلتمسه في كل دعوة صاعدة من قلب مؤمن متضرعا إلى خالقه أن يشمل الإنسانية بفيوض من رحمته وهداه .

من أراد تاريخ إبراهيم فليلتمسه في تلك الوشائج والأواصر الشريفة الطاهرة النقية التي تربط البشرية بخالقها فإنه أول من أقامها ودعا الله أن يرضى عنها ويباركها لتكون منقذا ومنجى للإنسانية من الضلال والكفر والشرك .

من أراد تاريخ إبراهيم فليلتمسه في تلك المنزلة الراقية والمكانة السامية التي وصل إليها الإنسان بحصوله على تكريم العبودية لله الواحد الأحد ،فإنه أول من طلب أن توهب لبني آدم ، ويمتن الله بها .

وليس أضل من إنسان يغفل عن هذه الحقيقة الساطعة .

أن وجود إبراهيم هو في حد ذاته دليل من أقوى الأدلة ، وبرهان من أثبت البراهين ، بحيث إن شككت في وجوده وأنكرته فقد قوضت العالم العقائدي للبشرية من أساسه . وليس أضل من إنسان يعرض عن تلك الحقيقة الساطعة .

أن إيمان وتمسك وإقتناع البشرية بالدعوات الدينية والدعوات الإصلاحية التي احتفظت بها البشرية في ذاكرتها وضمائرها وولجت من خلالها إلى عوالم النبل والشرف الإنساني تعتمد في أساسها وترتكز في جوهرها على دعوة إبراهيم .

لقد شاءت إرادة الله أن تكون دعوة إبراهيم كالشمس ، التي ترسل بضيائها فتبدد الظلام ، وتنشر الدفء والضياء ، وتظل منذ الأزل إلى الأبد مانحة واهبة معطية ، آية من آيات الله - عز وجل – على عظمته وجلاله ورحمته ولطفه بعباده ، كذلك إبراهيم ، آية من آيات الله ، ستظل مسيرة دعوته يسطبتنها كل داع إلى الخير ، ويستهدي بها كل محب للصلاح .

فتلك الدعوة نعلم مبدأها ، ولا نعلم منتهاها ؛ لأن ليس لها منتهى ، وهكذا شأن الآيات الربانية فهي خالدة بخلود مبدعها وفاطرها .

الفصل التاسع
صفات إبراهيم

الشخصية الإبراهيمية

دراسة الشخصية هامة بصفة عامة ؛ لأنها تعيننا على فهم الإنسان فهما صحيحا ، هذا الفهم في حاجة إلى جهد ، فالناس لا يظهرون حقيقة شخصياتهم ، بل يحاولون إخفاءها أو الظهور بمظهر يخالف حقيقتها ، فالكثيرون لا يرضون عن أنفسهم ؛ ذلك لأن هناك عوامل ومؤثرات خارج إرادتهم أو يجهلونها ، تلك العوامل ساعدت وتضافرت في تكوين تلك الشخصية ، فالناس يتعاملون مع بعضهم البعض على وهم وضلال ، لأن كل منهم يظهر بشخصيته التي يحب أن يكون عليها، وبين ما يحبه الناس وواقعهم بون شاسع ، لذلك تأتي دراسة الشخصية لتكشف أو تظهر ما خفي ، أو تحق ما زيف وزور ،أو تعوض ما نقص ، وتحاول أن تنفذ من خلال الحجب والموانع لتصل إلى حقيقة الشخصية ، ليكون حكمها بعد ذلك حكما صائبا وصادقا .

وإذا كانت دراسة الشخصية هامة بالنسبة للشخص العادي ، فإنه أهم بالنسبة لدراسة شخصيات الأنبياء ، وأكثر وأشد أهمية بالنسبة لدراسة شخصية إبراهيم - عليه السلام؛ لأن هناك أقوال وأفعال نسبت لإبراهيم - ؛- بعد دراسة شخصيته لا تستقيم ولا تتفق ولا تنسجم تلك الأقوال والأفعال مع شخصيته ، وبدون تلك الدراسة لا يتوافر بأيدينا أي دليل أو برهان لرفض أو دحض تلك الأقوال والأفعال ، لاسيما أن ما نسب إليه أصبح متواترا وثابتا ، وأن تصحح هذا المتواتر ،أو تغير هذا الثابت لابد أن يكون لديك شيء حائز على قوة من الإقناع للوقوف أمام المتواتر والثابت ، وليس هناك أشد إقناعا من أن يكون لديك تصور كامل وصادق للشخصية ، هذا التصور هو الذي سيمكنك أن تنفي وتدحض ما لا يتفق مع نسيج الشخصية ، وتؤيد وتثبت كل ما يتفق ويتوافق مع الشخصية ، وإذا تعذر علينا دراسة شخصية بهذا العمق وبهذا الشمول وبهذا الثراء وبهذا الجلال ، والخارجة عن أي نموذج شخصى عرفته الإنسانية ، والبعيدة عن أي ملامح أوسمات ألفته أو صادفته البشرية ، إذا تعذر علينا دراسة شخصية بتلك المواصفات ، فليس أقل من أن نتعلق بجملة من الصفات والمواصفات لعلها في نهاية المطاف ترسم لنا صورة تقريبية ، أوإطار عام لشخصية إبراهيم -؛.

الصفة والموصوف :تختلف الصفات باختلاف الموصوف .

فإذا وصفت طفلا بالشجاعة ، فالشجاعة هنا تختلف إذا وصفت بها شابا ناضجا .

وإذا وصفت امرأة بالجمال ، تختلف تلك الصفة إذا وصفت الرجل بها .

وإذا وصفت حيوانا بالوفاء - أيضا - تختلف تلك الصفة عنها إذا وصفت بها إنسانا .

فلابد أن أضع في الاعتبار الموصوف ، كذلك أضع في الاعتبار الذات موضوع الحديث ، فرحمة الإنسان العادي تختلف عن رحمة النبي وتلك تختلف عن رحمة الله - عز وجل - مع أننا نتحدث عن شيء واحد عند الجميع .

أيضا الصفات تختلف نسبها ، فهناك الصفة في حدها الأدنى ، وهناك الصفة في حدها الأعلى ، وبين هذه وتلك درجات .

وحينما نصف نبيا بصفة ما ، أو نتحدث عن صفة من صفات النبي ، فلا ينبغي أن ننظر إليها من جانبها الإنساني ، لأن هذا فيه غبن للنبي ، لأن ذات النبي تختلف عن ذات الإنسان العادي ،نعم هو في الأصل ذات إنسانية، ولكن تلك الذات أجرى عليها أو لها تعديل إلهي ليكون له صلاحية استقبال الوحي ،

بكل ما يتضمنه ويشتمل عليه هذا الوحي من أعباء ومسؤليات تنوء بحملها أو تحملها الذات الإنسانية ، لأن ذات النبي تتحمل تلك الأعباء بمشقة كبيرة حتى بعد التعديل فما بالك بتلك الأعباء والمسؤليات مع ذات الإنسان ، وكان رسول الله – خ – يجد مشقة وإجهادا ، حينما كان يوحى إليه ؛ لأن أعباء ومسؤليات ومهام النبوة والرسالة ثقيلة حتى على النبي ، وهو هو ماله من عزم وتحمل :

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5) المزمل: ٥

" ويشهد لثقل القرآن على النبي – خ – أحاديث كثيرة ، منها ما رواه الإمام البخاري من أن السيدة عائشة قالت : ولقد رأيته – خ – ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقا .

ومنها قوله – خ – ((ما من مرة يوحى إلى ، إلا ظننت أن نفسي تفيض))- أي تخرج ..

ومنها قول زيدبن ثابت : أنزل على رسول الله – خ – شيء من القرآن – وفخذه على فخذي فكادت تُرض فخذي – أي تتكسر .."1

1التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . محمد سيد طنطاوي – المجلد الخامس عشر – صفحة (156) .

فتلك الذات – بما حدث لها من تعديل – لم تعد ذات إنسانية ، وإنما أصبحت ذات نبوية ، زُودت بقدرات وإمكانات وطاقات ، لا يمكن بأي حال أن تتوافر للذات الإنسانية ، إذن صفات تلك الذات تختلف وتتمايز عن وتسمو وترتقي عن صفات الإنسان .

وإذا كان الله – عز وجل – قد فضل الأنبياء عن سائر الخلق ، بما تميزوا به من قدرات وإمكانات وطاقات شخصية ، وبما أنعم الله عليهم من جوده وكرمه وفضله ، وبذلك جعل هناك درجات بين الخلق للترقي ، فمن شاء أن يقتدي بهؤلاء الصنف الممتاز من الخلق ، ليترقى صعودا نحو الكمال والتمام ، وبذلك يتفاضل الناس فيما بينهم ، في المكرمات فقط وليس في شيء آخر ، وهذا معيار التفاضل عند الله .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ الحجرات: ١٣

والله لم يغلق باب التفاضل بين الناس والأنبياء ، بل جعل هناك تفاضلا بين الأنبياء وبعضهم ، لأن ليس هناك نهاية لدرجات الكمال أو الترقي نحو الكمال .

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا الإسراء: ٥٥

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ البقرة: ٢٥٣

" أي أولئك الرسل الذين أرسلناهم لهداية الناس (فضلنا بعضهم على بعض)أي جعلنا لبعضهم مناقب وخصائص ومزايا لم تتوافر للبعض الآخر .

ثم بين – سبحانه – بعض مظاهر التفضيل فقال : (منهم من كلم الله) أي منهم من فضله الله بتكليمه إياه كموسى – ؛- فقد وردت آيات صريحة في ذلك منها قوله - تعالى – : (وكلم الله موسى تكليما) وقوله – تعالى – (وقال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) وقوله – تعالى – : (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) .

ثم قال – سبحانه – (ورفع بعضهم درجات) أي : ومنهم من رفعه الله على غيره من الرسل مراتب سامية ومنازل عالية ، قيل كإبراهيم الذي اتخذه الله خليلا وإدريس الذي رفعه الله مكانا عليا وداود الذي أتاه الله النبوة والملك " 1

ترقي لا تنقطع أسبابه نحو الكمال ، فالإنسان مفضل عن سائر المخلوقات بما منحه الله – عز وجل- من سمات وصفات لم يمنحها لسائر خلقه ، والأنبياء والرسل مفضلون عن سائر الخلق ، وهناك أنبياء مفضلون عن أنبياء ، وهكذا سلسلة لا تنقطع حلقاتها ، وسلمٌ تتواصل درجاته ليصعد عليها من تساعده وتعاونه صفاته وسماته الشخصية من ناحية ، ومن يصيبه اختيار واصطفاء واجتباء الله من ناحية أخرى

وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ سورة الأنعام: الآية 124

1التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د. محمد سيد طنطاوي – المجلد الأول (578)

ولو شاء الله لجعل الخلق مرتبة واحدة ، وجعل الأنبياء والرسل منزلة واحدة ، ولكن لأنه – عز وجل – يتصف بالكمال والجمال والجلال ، فلم يحرم عباده من أن يتخذوا إلى تلك الصفات السبل والطرق ، وأفاض عليهم الكثير من المنن والنعم ، ومنحهم الكثير من القدرات والطاقات ، وفتح أمامهم الأبواب ؛ ليلجوا إلى عوالم الطهر والنقاء ، ليزدادوا قربا ودنوا من الله ، وهذا ما يريده الله ، أن يقترب الخلق منه ويحرصون على ذلك حرصا شديدا ، ومن عظمة الله ، أنه يدفعهم ويساعدهم ويعاونهم في هذا الأمر ، ويعلن ويقر أنهم قد وفقوا ونجحوا في محاولاتهم النبيلة الشريفة ، فيعلن للبشرية أن هذا خليله ، وهذا كليمه ، وهذا نبيه وهذا رسوله ، وهذا عبده ، وكأن الله ينبهنا أن من سلك مسلكهم وفعل فعلهم وقصد قصدهم ، سيفوز بما فازوا به ، وما فازوا به ليس قليلا وليس هينا ، فما حال عبد يتخذه الله خليلا ؟ وما حال عبد يصطفيه الله - دونا عن عباده أجمعين – ليكون كليمه ؟ وما حال عبد يصفه الله – عز وجل – بصفاته هو ، خ؟

وحينما نتحدث عن صفات إبراهيم – ؛- الشخصية ، فتلك الصفات تخصه وحده ، أي أنها صفات إبراهيمية لا يشركه فيها أحد ، ولا يتماثل أو يتشابه معه أحد ، فخذ مثلا صفة الشجاعة أو الجرأة ، وموقفه من عبادة قومه ، فقد كان يكفي إبراهيم أن يسفه أحلام قومه ، وأن يهزأ ويسخر من آلهتهم ، وقد فعل ذلك ، فمثل هذا العمل لا يجرؤ عليه أحد مهما كان ،في وقت كان الدين يمثل كل شيء في حياة الجماعات ، لم يكن قديما يوجد تخصص ، مثلما هو حادث الآن ، سلطة دينية وسلطة مدنية ، وكل منهما مشغول بعالمه ، وهناك اتفاق ضمنى أو تصالح بين الاثنين ألا شأن لأحدهما بالآخر ، وإن كان هناك علاقة فهي على قدم المساواة ، فلا تزيد السلطة المدنية عن الدينية فتلغيها أو تهمشها ، ولا تزيد السلطة الدينية عن المدنية فتسود وتسيطر وتتحكم . فقديما كان المجتمع من قمته إلى قاعه مرتبط ارتباطا وثيقا بالدين ، وكان مجرد ذكر الآلهة بما لا يليق يعد نوعا من التعدي يستوجب العقوبة التي قد تصل إلى الموت .

" وكانت العقوبة جزاء نقض ناموس الواجبات الدينية ، بل أن الموت كان أحيانا عقاب المجرم ، وقد عاقب أشور با نيبال من قصروا علنا في اداء هذا الواجب فقطع ألسنة جنود أكاد الذين تمردوا على أشور " 1

فأنت إذا أهنت الآلهة فقد أهنت الحاكم في الصميم ، وأهنت المجتمع كله في أعز ما لديه ، فالآلهة – هنا – لها مكانة ومنزلة تعلو على مكانة ومنزلة الأبناء ، فقد صدر تهديد شديد اللهجة من والد إبراهيم له بالهجر والرجم إن تمادى في موقفه من الآلهة ، ولم يظهر له أي موقف معارض أو حتى شفقة أو رثاء حينما تم إقرار رميه في النار . فتلك المنطقة الخاصة بالآلهة لا تسامح ولا تهاون فيها ، والعقاب والجزاء الوحيد هو الموت ، وليس أي موت ولكن الموت حرقا .

أكان إبراهيم – ؛– غافلا عن كل هذا ؟

ألم يكن متحسبا ومتوقعا ردة فعل قومه عليه ؟

1بلاد ما بين النهرين – ل .ديلابورت – ترجمة محرم كمال – (386)

كان إبراهيم واعيا ومتنبها لمكانة الأصنام أو الآلهة عند قومه ، ويعرف أن تلك منطقة مقدسة ومحرمة على أي إنسان أن يتجرأ ويمسها بأي سوء ، فالمجتمع كله يقدس تلك الآلهة تقديسا مطلقا لا يقبل الجدال أو المناقشة ، التي حاول إبراهيم أن يجذبهم إليها أو يقنعهم بمحاولتها ، لعل الجدال والمناقشة تحرك تحجرهم وجمودهم ، والملك والحاكم يرى في تلك الآلهة مصدر قوة ومساندة وعون ، ضد أعدائه في الداخل والخارج ، ليس هذا فحسب ، بل هي التي تسانده وتدعمه في منصبه ومركزه ومصدر قوته وسلطانه وصولجانه ، ومعنى أن تمس الآلهة ، فأنت تهدد وتهين وتستهين بكل هذا ، ليس هذا فحسب ، بل قد تكون أنت سبب غضب الآلهة على الناس وعلى الحاكم .

ومن الغريب أن الذي ناقش وحاور إبراهيم ليس الكهنة ورجال الدين ولكن الحاكم ، لأنه يدافع عن نفسه وعن مركزه ومنصبه ، نفس الأمر حدث مع موسى - ؛- فعلى كثرة رجال الدين في مصر والكهنة ، لم يتصدوا لمحاورة أو مناقشة موسى فيما جاء به ، وإنما الذي تصدى هو فرعون ، وللارتباط الوثيق بين الملك أو الحاكم والآلهة ،أحيط هذا الشخص بهالة مقدسة ، أو - في بعض الأحيان - أدرج في مصاف الآلهة ، فكان يتوجه له بالخضوع والقنوت والعبادة ، كما يتوجه للآلهة .

وكان إبراهيم - ؛- متوقعا ردة فعل قومه ، وأنه ليس من جزاء إلا القتل ، فإذا كان أبوه هدده بالرجم والقتل ، وإذا كان هذا موقف الأقرب إلى إبراهيم ، فما بلك بموقف الأبعدين ؟

إذن كان إبراهيم مقدرا كل تلك الأخطار التي يمكن أن تحدق به ، وقد تودي بحياته إذا سار في هذا الطريق إلى منتهاه ، ومع ذلك لم ينكص على عقبيه ، ومضى في طريقه من الجدال والحوار والنقاش ، وحينما وجد العناد والاصرار والقلوب المغلقة والعقول المتحجرة ، لم يجد مناصا من أن يزلزل هذا العالم في الصميم ، يصدمهم في أعز وأغلى ما يعتقدون ، فذهب وحطم تلك الأصنام ، وهذا فعل يدل - في حد ذاته - لا يدل على شجاعة ولا على جرأة ، بل تعدى تلك الحدود والأوصاف بمراحل ، لتلك الأسباب :

إن تحطيم الأصنام لا يأتي إلا في نهاية مرحلة يرى الداعي أن العقول مهيأة ومتقبلة ومستجابة لهذا الفعل، بمعنى أنك وفقت ونجحت-كداع - أن تحطم مكانة ومنزلة تلك الأصنام الآلهة داخل نفوس من تدعوهم، فلا جدوى من أن تحطم صنما من حجر أو وثن من خشب ، فما أيسر وأسهل إعادته وصنع غيره ، ولكن المطلوب هو تحطيم هذه التماثيل كرموز لعبادة باطلة وفاسدة ، تحطيمها وتبديدها داخل النفوس، أن تقطع وتبتر تلك العلاقة الوثيقة الباطلة بين الناس

وتلك الأصنام ، وتقيم بدلا منها علاقة حقة مقدسة بين الناس والإله الحق ، حينئذ قد لا تحطم أنت الأصنام ولكن الناس هم الذين يحطمونها ، ويقطعون كل علاقة بينهم وبينها وكأنها لم تكن في يوم من الأيام أو في ساعة من الساعات، مثلما فعل محمد - خ - فهو لم يأمر بتحطيم الأصنام داخل الكعبة وخارجها إلا حينما فتح مكة وقوي الإسلام ، لأن قبل أن يحطم الأصنام كانت قد تحطمت في النفوس ، حتى عند من لم يؤمن ، ولم يعد لتلك الآلهة على كثرة عددها وما كان لها من سطوة وسلطان وتمكن في النفوس ، لم يعد لها ذكر ، وكأنها لم يكن لها وجود أصلا وهكذا الباطل لا وجود - حقيقة - له ، حتى لو أدركته الأعين ، ولمسته الأيدي .

أي داع لابد وأن يكون له - في بدايات الدعوة - ركن شديد يأوي إليه ، إذا تحزبت الأمور من حوله ، بالنسبة لمحمد - خ - كان هذا الركن يتمثل في جده ، ثم في عمه ، ثم في بني هاشم والذين آمنوا به وأيدوه ونصروه ، هذا الركن ليس مجرد حماية وحائط صد للداعي فحسب ، ولكنه يوفر للدعوة - وهي ما تزال غضة طرية - فرصة مؤقتة حتى تستوي وتستغلظ وتثبت جذورها في الأرض ، هذا الركن بمثابة دعامة قوية تدعمها وتحميها من الأنواء والأعاصير التي تتشكل في وجه أي دعوة جديدة .

الذين آمنوا في بداية أي دعوة يمثلون قوة دفع هائلة ، في وقت تكون الدعوة في مسيس الحاجة إلى تلك القوة لتتحرك ولو ببطيء ، لأن الدعوة لو لم تتحرك رغم الاعتراضات والمعوقات والحروب والصراعات ، وكل تلك العراقيل والعقبات التي أقيمت دونها ستقف ، وإذا وقفت ستتجمد ، وإذا تجمدت ستموت في مهدها ، و رموز تلك القوة كان يمثلها النصارى مع المسيح ؛، وكان يمثلها مع رسول الله – خ – أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضوان الله عليهم أجمعين ، فقد دفع هؤلاء الدعوة كما لم يدفعها أحد ، لذلك ظلوا يقومون بهذا الدور في حياة النبي وبعد موته ، ولم يتخل واحد منهم عن دوره ومهمته العظيمة الجليلة .

تلك الأمور لم تكن متوافرة في دعوة إبراهيم – ؛- فهو لم يمض وقتا ليدعو الناس ، محاولا – بشتى الطرق – اقناعهم بفساد وبطلان ما يتمسكون به من عبادة ، وإنما عمد إلى تحطيم الأصنام ، وهو يعلم شدة تمسكهم وتقديسهم لها ، ربما رأى ألا جدوى من تبديد وقته وجهده ، وربما رأى أن تلك المرحلة من الدعوة لا ينبغي أن تستغرق وقتا أكثر مما استغرقته ، لأن هناك مراحل أخرى تالية ، تنتظر أن ينجزها ، وربما أدرك من خلال الظروف والأحوال المحيطة به ، أن لا قرار ولا بقاء ولا استقرار له في هذا المكان ، فعجل بالمواجهة والصدام ،

وقال كلمته القاطعة واتخذ موقفه الحاسم ،ويترك بعد ذلك للزمن يفعل فعله ، فقد علم الناس بما هم جاهلون به ، وبصرهم بما لا يبصرونه ، وإن كان اتخذ في ذلك أسلوب غاية في القوة والشدة والحسم ، ولا شك أن إبراهيم - ؛- رأي أن هذا أفضل وأحسن وخير الأساليب ، والأهم أن تلك الطريقة التي اتبعها تتفق وشخصيته .

بالنسبة للأمر الثاني ، فلم يكن هناك ركن شديد يأوي أو يلجأ إليه إبراهيم ، بل أن العالم تهاوى من حوله ، بل تهاوى وانقض حينما تخلى والده عنه وعن دعمه وتقويته وحمايته ، بل كان يمثل تهديدا وخطورة عليه، ربما خشي الأب على الابن عاقبة وجريرة دعوته ، فأراد أن يصرفه عن دعوته ، فاتخذ مع هذا الأسلوب القاسي ، حبا له وخوفا عليه عله يرتدع ويسلم مما ينتظره من عواقب ، وربما خشي الأب على نفسه وعلى أهله مما قد تجلبه دعوة الابن من غضب ونقمة الحاكم وبقية المجتمع ، ودعوة ابنه غير محققة وغير مؤكدة ، ولكن ما تجلبه من أذى ودمار محقق ومؤكد ، وربما رأى الأب في دعوة ابنه اندفاع وتهور عن غير بصيرة ، وأن الخلاف بينهما خلاف بين أب متريث متأني ، يحسب لكل شيء حسابه ، وبين ابن شاب مندفع غير مبال بالنتائج مهما كانت خطيرة ، ولا شك أن موقف الأب الذي اتخذه من ابنه ومن دعوته هو نفسه الموقف الذي اتخذه بقية عشيرة إبراهيم .

بالنسبة للأمر الثالث ، هل لم تثمر دعوة إبراهيم مؤيدين ومؤمنين ومقتنعين بالدعوة ؟

أم أن إبراهيم لم يفكر ولم يبذل جهدا في تجنيد من يراهم أكفاء في حمل لواء الدعوة ومساعدين ومعاونين له ، في أثناء حياته وبعد مماته ، مثلما فعل السيد المسيح – ؛، والنبي محمد خ ؟

أما أن دعوة إبراهيم لم تثمر مؤمنين ومؤيدين ، فنحن نشك في هذا ، فما من دعوة دينية حقة إلا وصادفت من يؤمن بها ويقتنع بها ، فما من مرحلة من مراحل التاريخ البشري إلا والناس ينتظرون ويتشوقون إلى داع من السماء ، وعلى الأقل قلة راشدة من البشر ، فما يعرضه أي داع يتفق ويوافق العقل والمنطق والضمير ، ويتسق مع الفطرة السوية التي خلق الله عليها البشر ، فهناك من آمن بدعوة إبراهيم من قومه ، ولكن القسوة والشدة التي قوبلت وعوملت بها دعوة إبراهيم ، والرغبة من رموز السلطة في القضاء ، ليس على الدعوة فحسب ، بل على صاحبها ، قلص – إلى حد ما – من عدد المؤمنين بدعوة إبراهيم ، أو لم يدفعهم إيمانهم أن يجهروا به خوفا وخشية من نتيجة ذلك .

صفات إبراهيم في القرآن :

في رسم صورة لشخصية إبراهيم أو جمع ملامح وسمات تلك الشخصية، ولا يسعفنا في هذا الأمر سوى القرآن ، وإن كان القرآن ليس من مقاصده رسم شخصية تامة وكاملة للأنبياء – كماوضحنا ذلك في كتابنا : شخصية النبي محمد – وغاية ما يسعفنا به ويقدمه لنا أساس يعتمد عليه في بناء الشخصية ، أو نواة نلجأ إليه في تكوين الشخصية ،وهذا عمل – في حد ذاته – جد عسير ، وفي حاجة إلى وقت وجهد ، ولكن كل هذا يهون ، فليس هناك ما يوازي أو يعادل أن يكون بأيدينا بناء متكامل أو صورة واضحة الملامح بارزة السمات لشخصية نبي ، ليس هذا فحسب بل لنبي الأنبياء إبراهيم – عليه السلام.

وقد وردت صفات لإبراهيم في القرآن ، بعض تلك الصفات كانت به خاصة ولم يوصف بها أحد غيره ، وبعضها كان أول من وصف بها ، وأسند إليه صفة لم تسند لغيره .مثل الإمامة والملة والحنيف والمسلم .وكان لابد وأن يكون هذا الرسول والنبي على تلك الصفات والسمات التي كان عليها إبراهيم ، فهو خليل الله وهو إمام وهو أمة وهو مسلم ، وهو الموحد وهو القانت، وهو الحنيف ، وهو الشاكر لأنعمه ، وهو الذي وفى ، وهو الأواة الحليم .

الإمـــامـــة:

أعظم إنجاز أنجزته البشرية في تاريخها الطويل توصلها إلى صياغة أو ابتكار الكلمة ، فالكلمة بمثابة المفتاح الذي مكن الإنسان من أن يفتح أبواب عوالم كثيرة ومتعددة ، أسهمت في إثراء فكره ووجدانه ، والكلمة – أيضا – وسيلة تفاهم وتواصل بين الناس ، وبين الأجيال المتعاقبة ، و وقدرة الكلمة وإمكانياتها الهائلة تتمثل في قدرتها غير المحدودة على اختزال العالم ليس هذا فحسب بل استحضاره في أي زمان وفي أي مكان ، قدرة هائلة على الاختزال والاختصار والتجريد ، كلمة واحدة تشتمل على ثلاثة أحرف تستطيع أن تختزل نصف العالم حولك ، وتلك القدرة أفادت الإنسان من ناحية وأضرته من ناحية أخرى ، فهو – الإنسان – في العصر الحديث يتعامل مع الكلمات وكأنها أوعية أو علب ، وتلك الأوعية والعلب مصفوفة على الأرفف ، بينهما فواصل وكل وعاء أو علبة مستقلة ومنفصلة عن الأخرى ، ولا شأن بكل وعاء بما يجواره أو يكون قريبا منه ، وحقيقة الأمر ليس على ما يظنه أو يحسبه الإنسان ، فالكلمات مثل العائلاتأو الأسر ، هناك علاقات وأواصروشائج تربط فيما بينها ،ومثل ذلك كلمة الإمامة أو الأمة التي وصف الله – عز وجل – إبراهيم ؛. فمن معانيها:

الأَمُّ :القصد ، أمَّه يؤمه أمًا إذا قصده ، وجمل مئم دليل هاد ، وكله من القصد لأن الدليل الهادي قاصد .

والإمَّة : الحالة ، والإمَّة والأُمة : الشرعة والدين وفي التنزيل :

ﭽ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﭼالزخرف: ٢٢

والأمة والإمة : الدين قال أبو إسحاق في قوله تعالى

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ البقرة: ٢١٣

أي كانوا على دين واحد .

والأمة :الطريقة والدين . يقال فلان لا أمة له أي لا دين ولا نحلة له ، وقوله تعالى : (كنتم خير أمة) قال الأخفش : يريد أهل أمة ، أي خير أهل دين .

والإمة : لغة في الأمة ، وهي الطريقة والدين .

الإمة :النعمة .

والأم : القصد .

والأم : العلم الذي يتبعه الجيش .

والإمة والأمة : السُّنة ، وتأمم به وأتم : جعله أمَّة .

والإمام : كل من ائتم به قوم وكانوا على الصراط المستقيم أو كانوا ضالين .

وإمام كل شيء : قيَمه والمصلح له .

والإمام : الخيط الذي يمد على البناء فيبنى عليه وتسوى عليه ساف البناء وقواعده وأسسه .

وفي الصحاح : الإمام : خشبة البناء يسوى عليها البناء .

وإمام القِبلة : تلقاؤها .

والحادي : إمام الإبل ،وإن كان وراءها لأنه الهادي لها .

والإمام : الطريق .

والأمام : بمعنى القدام .

والأمة : القرن من الناس .

وكل من كان على دين الحق مخالفا لسائر الأديان فهو أمة وحده .

والأمة : الرجل الذي لا نظير له .

ذو أمة : ذو دين .

ذو أمة : ذو نعمة أُسديت إليه .

أمة : رجل معلما للخير .

الأمة : المعلم .

الأمة: الرجل المنفرد بدين .

الأمة: الرجل الجامع للخير .

والأمة : الحين .

والأَمَم :القصد الذي هو الوسط

والأَمَم القرب .

فهنا جذر الكلمة – كما يقول علماء اللغة – واحد ،ولكن أفنان الكلمة متفرعة وتذهب في كل اتجاه ، ولها معاني كثيرة ومتعددة ، ويُظَن أن معانيها ودلالتها مختلفة ، ولكن للمتفحص والمتريث ، يرى أن كل معانيها - في النهاية - مرتبطة بمعنى كلي وشامل .

وقد وصف إبراهيم – ؛- بالأمة أو إماما ، ولا نستطيع أن نقصر هذا الوصف على معنى واحد أومعنى محدد ، فكل تلك المعاني التي سردناها، إبراهيم – ؛- مرتبط منها بسبب ، وهي – المعاني – واصلة إليه عن أكثر من طريق .فلا نستطيع ان نقصر صفات إبراهيم على معنى واحد من تلك المعاني ، ولانستطيع ان نختزل صفات إبراهيم لتشتمل على كلمة واحدة من تلك الكلمات ، فهذا غبن لإبراهيم – ؛- لأن شخصية إبراهيم أرحب وأشمل وأغنى وأثرى أن نحبس أو نحصر أو نختزل صفات تلك الشخصية في كلمة أو كلمتين أو ثلاث ، ويصبح كل ما يربطنا بتلك الشخصية تلك الكلمات الجامدة الخرساء العاجزة أن تعبر أو تصور أو توحي لنا بملامح وسمات تلك الشخصية ، وغبن للكلمة ، لأننا نعتمدعلى الكلمة أكثر مما يجب ، ونحمل الكلمة ما لا تحتمل ، فالكلمات بالمواصفات التي اتفقنا عليها وأتفق عليها البشر ، قادرة على أن تعبر عن ملامح وصفات الشخص العادي – في أغلب استعمالاتها –

فلهذا وضعت ، وتلك وظيفتها أو مهمتها ، فمن الخطل أن تستعمل نفس الأدوات ونفس الوسائل لتعبر عن شخصية فريدة الطراز ، شخصية تجاوزت وتعدت الإطار البشري بمراحل ،خرجت – بأفعالها وتصرفاتها - عن توقعات وتنبآت أفعال وتصرفات البشر العاديين ،حيزت وجمعت لها – بفكرها وقوة إرادتها وصدق عزيمتها وعمق إنسانيتها – ما لم يحز أو يجمع لأي شخصية إنسانية أخرى .تلك الشخصية في حاجة إلى قاموس لغوي خاص بها ، ومع ذلك لن يوفيها حقها من التشريف والتعظيم والتكريم .لأن اللغة إذا أرادت أن تصور شيئا أو تتحدث عن شيء لا عهد للبشر به ولا قدرة ولا طاقة لهم على استيعابه تأخذ أسلوب وطريقة النفي ، فلكي تعبر على نعيم الجنة تقول : (فيها ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) وحينما أرادت أن تتحدث عن ذات الله – عز وجل – قالت :

فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الشورى: ١١

لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ الأنعام: ١٠٣

إذن نستطيع أن نقول إن إبراهيم – ؛- كان جماع لكل تلك المعاني لتصريفات وتفريعات كلمة (أمة) ويزيد ، فالكلمة تعطي جزء من تلك الصفات ، والكلمة توفي قليلا من تلك السمات ، وهناك فرق بين الشخصية كما خلقها الله ، وكما هي في الواقع وبين حديثك عنها أو وصفك لها بعدد من الكلمات .

ملة إبراهيم :

من الكلمات التي خص بها القرآن إبراهيم – ؛- دونا عن بقية الأنبياء والرسل كلمة (الملة) ، فإذا ذكرت الكلمة في أكثرمواضع القرآن الكريم نسبت إلى إبراهيم ، والمفسرون يقولون عن المعنى : الشريعة والدين .وقيل هي معظم الدين ، وجملة ما يجيء به الرسل . ومع ذلك تظل الكلمة في حاجة إلى مزيد إيضاح وتفسير ، لا سيما ارتباط الكلمة بما جاء به إبراهيم ، ولم تنسب الكلمة إلى أي رسول غير إبراهيم .

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ البقرة 130

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ البقرة: ١٣٥

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ آل عمران: ٩٥

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا النساء: ١٢٥

قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الأنعام: ١٦١

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ يوسف: ٣٨

ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ النحل: ١٢٣

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ الحج: ٧٨

وإذا ذهبنا إلى القاموس لنجلي معناها ، أو لنعرف مبتدأ الكلمة أو فيما استخدمت قديما .لسان العرب (4270)

"المَلَّةُ : الرماد الحار والجمر الذي يدفن فيه الخبز لينضج ، ويقال أكلنا خبز ملة ،ولا يقال أكلنا ملة ، ومَلَّ الشيء في الجمر يَمُلُّه ملا ، فهو مملول ومليل . يقال مللت الخبزة في الملة وأمللتها إذا عملتها في الملة .

وقال أبو عبيدة : المَلَّة : الحفرة نفسها

قال ابو إسحاق : الملة في اللغة سنتهم وطريقهم ، ومن هذا أُخذ الملَّة أي الموضع أي الموضع الذي يختبزفيه لأنه يؤثر في مكانها كما يؤثر في الطريق ، وكلام العرب إذا اتفق لفظه فأكثره مشتق بعضه من بعض .

ومل القوس والسهم والرمح في النار ، عالجها بها .

وطريق مليل ومُمَلٌ : قد سلك فيه حتى صار مُعلما .

وطريق مُمَل: أي لحب مسلوك " لسان العرب (4270)

ما علاقة هذا بالدين أو العقيدة التي جاء بها إبراهيم أو سار عليها؟

الملَة : الرماد الحار والجمر ، وهذا لا يكون إلا بعد أن تكون النار قد مضى على اشتعالها وقت طويل ، والرماد أو الجمر هو صفوة النار ، الجزء الباقي من النار بعد أن يمضى عليها حين مشتعلة ، وهو أقوى وأشد فاعلية ،وهو ينضج ما يوضع فيه أو عليه ببطيء ولكن بفاعلية وقوة تأثير ، وبدون صوت أو ضوضاء أو لهيب محرق يشوه ما يصل إليه ،

ولكي تتم تلك العلمية ، قد يقوم بحفر حفرة ليتجمع فيها هذا الرماد وقد تسمى الحفرة بالمَلة ،وتبقة تلك (المَلة) تترك أثرا في المكان أو في الطريق لا يمحى ، وتستخدم تلك الحفرة أو الرماد المتجمع والمتبقة في خبز العجين لينضج ويكون خبزا، ويسمى بعد ذلك خبز المَلة . وكل من قام بحفر تلك الحفرة واستعملها ، يتركها هكذا عند مغادرته ، ويأتي من بعده وإذا تصادف ووجدها يستخدمها ،ولا يجشم نفسه عمل حفرة أخرى .

وقد تستخدم الكلمة نفسها لتعني تقويم السهم أو الرمح أي وضعهم في الملة ليسهل بعد ذلك تشكيلهم .

وتستخدم الكلمة لتطلق على الطريق ، ويعنى طريق ممهد ومذلل ، وأصبح معلما .

هل المقصود بملة إبرهيم : الثوابت الراسخة التي لا تتغير ولا تتبدل مع تغير الأحوال والظروف ؛ لأن ما جاء إبراهيم واعتقده هو خلاصة وصفوة تفكره وتأمله ، ووصل إلى حقيقة وجوهر العقيدة .

أو أنها المباديء والقيم التي تعرضت للاختبار والابتلاء ومحصت تمحيصا ، وصمدت وبقيت وصفيت ونقيت وأصبحت خالصة من كل الشوائب التي تخرجها أو تنحرف بها عن طريقها .

أو هي طريقة إبراهيم وأسلوبه الذي بدأه وشقه وحفره ومهده وذلله للبشرية ، وجاء كل من بعده واتبع واقتدى بتلك الطريقة وهذاالأسلوب لأنه لا يوجد أقوم ولا أصح ولا أوضح ولا أنقى ولا أرقى ولا أطهر من تلك الطريقة وهذا الأسلوب .

أم أن أمر الدين والعقيدة قبل إبراهيم لم يكن له شكل أو قوام أو ملامح أو سمات وأن إبراهيم هو الذي شكل وقوم ووضع الملامح والسمات لما سمي بعد ذلك بالدين والعقيدة .

أم أن ما جاء به إبراهيم يعتبر المقياس والمعيار الذي تقاس وتحتكم إليه بقية العقائد والأديان فما وافقها واتفق معها يعد حقا ، وما اختلف معها وخالفها يعد باطلا .

أو أن إبراهيم قد جمع كل ما يمكن أن يجتمع في عقيدة ودين ،وأن كل من أتى بعده ، يعتبر مقتبسا مما عنده ، فهو قد أوجز مفهوم العقيدة ، وكل الأنبياء والرسل بعده قد فصلوا ما جاء به ،أو كل منهم قد أهتم بسمة أو ملمح من ملامح عقيدته .

اختصاص إبراهيم - ؛- بتلك الكلمة دونا عن غيرة من الأنبياء والرسل الكرام يدل على أن ما جاء به أشمل وأكثر وأرحب من كونه دينا أو شريعة ، ليكن دين الأديان وشريعة الشرائع ، من حيث السابقة الزمنية ، ومن حيث المفهوم الذي أسسه ورسخه وصاغه إبراهيم ، لنوعية الصلة أو العلاقة أو الرابطة التي تصل الإنسانية بخالقها ، وينبغي أن نعلم أن جميع الرسالات السماوية خارجة من مشكاة واحدة ، ولها بداية وخاتمة ومبتدأ ومنتهى ، إنها كشجرة طيبة مباركة ، جذر واحد له سماته وملامحه وخصائصة ، وأفرع كثيرة ومتعددة تذهب في كل اتجاه وصوب ، ولكنها - في النهاية - متفرعة وخارجة من هذا الجذر والأصل ، مرتبط بها ارتباطا عضويا ،ويرتبط بها ارتباطا أصيلا ، لذلك كان التوجيه القرآني صريحا وواضحا وحاسما في موقفه من جميع الأديان السماوية ، وتلك النظرة الشاملة الجامعة التي لا تفرق ولا تميز ولا تفاضل أن جميع الأديان تعضد بعضها بعضا ، تكمل بعضها بعضا ،

وجاء الإسلام ليحيطها بإطار موحد مصححا ما زيف ،مثبتا ما بدل وغير ، راحضا كل ما ران على وجه الأديان من فعل البشر ، واضعا كل شيء في مكانه الصحيح .

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ البقرة: ١٣٦

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ البقرة: ٢٨٥

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ آل عمران: ٨٤

وكأن دعوة إبراهيم - ؛- هي دعوة للبشرية أن تنظر إلى جميع الأديان المساوية نظرة واحدة ، لا اعوجاج فيها ولا تفاضل ولا تمايز كما صرحت وأوضحت بذلك دعوة الخاتم محمد خ .

الحنيف :

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ البقرة: ١٣٥

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ آل عمران: ٦٧

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ آل عمران: ٩٥

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا النساء: ١٢٥

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ

الأنعام: ٧٩

قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الأنعام: ١٦١

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يونس: ١٠٥

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ النحل: ١٢٠

ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ النحل: ١٢٣

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ الروم: ٣٠

الحنف :الاعوجاج في الِرجل ، وهو أن تقبل إحدى إبهامي رجليه على الأخرى .

الحنيف : المائل من خير إلى شر ، أو من شر إلى خير .

وحنف عن الشيء وتحنف : مال

الحنيف : المستقيم .

معنى الحنيفية في اللغة : الميل .

الكلمة في حد ذاتها تعبر عن موقف فعال أكثر مما تعبر عن معنى جامد، وقليلة تلك الكلمات التي تدل تلك الدلالة ، فقد تكون الاستقامة او الاعتدال موقف سلبي يتخذه الشخص ، وهو أن يبتعد عن الشر والضلال ، وينوء بنفسه على أن يدخل في صراع أو نزاع مع الشر أو الباطل، الرجل الحنيف على عكس ذلك ، فهو يعمد إلى الباطل ويقصده قصدا ، ويبحث عن أشرس الميادين ، وينازل الباطل في أقوى صوره وأعتى حالاته ، وهذا ما فعله إبراهيم ، فلم يعتزل قومه ، ولم يهادنهم ، ولم ينصحهم ويجادلهم بالحسنى ، وإنما عمد إلى آلهتهم في أكبر معابدهم وحطمها تحطيما ، وسخر منهم بعد ذلك وسفه أحلامهم ، وظل على موقفه هذا حتى تصاعد الصراع ووصل إلى ذروته مع رمز السلطة والحكم ، أي داعية قد يبحث عن مناطق اتفاق بينه وبين الآخرين ، أو يحاول أن يكتسب بعض الأطراف – ولوعلى حساب الدعوة مؤقتا – إلى أن تقوى دعوته ويشتد عودها ،

مثلما يحدث بين المتحاربين من اتفاق على وقف القتال أو الهدنة ، وقد يكون هذا في صالح الدعوة على المدى الطويل ، ويملى هذا العقل وتؤيده الحكمة ،وليس هذا راجعا إلى تمسك الداعية بموقفه الجامد المتحجر ، وليس دليل على العناد والعنت ، ولا علامة من علامات ضيق الأفق وغياب نظرة ومرونة السياسي ، وتلك الأساليب والطرق التي يستعان بها لإخراج الدعوة من مآزقها ، ولكنه إصرار الحنيف أن يهدي الآخرين إلى الحق والصواب ، لقد نذر نفسه لتلك المهمة ،وحدد طريقه منذ البداية - وهوطريق واحد لا بديل له -وهو أن يدفع من حوله إلى الهدى ، هو لا يرى غير ذلك ، كالسهم المنطلق إلى غرضه لا يوقفه شيء ، كالشهاب المندفع في الفضاء لا يحول بينه وبين انطلاقه أي حائل ، وهو يبذل كل ما في طاقته ، ويسخر كل قدراته ، ولا يترك سبيلا إلا ويسلكها كي يحقق الهداية ، وتظهر تلك الصفات والسمات التي تميز شخصية الحنيف مع إبراهيم وهو يجادل والده ، إن إبراهيم هنا لا يدعوه ، يلتمس منه يرجوه يتضرع إليه يتذلل إليه ، ولو كان هناك مرحلة أكثر من ذلك لفلعها إبراهيم حرصا على والده :

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48) مريم: ٤١ - ٤٨

وصفة المودة والحب التي يكنها لوالده سبقت أو تغطت أو تجاوزت النبوة في هذا الموقف الحرج بينه وبين والده ، لذلك وصف ب(صديقا نبيا)، ورغم كل ذلك ،ورغم كل ما فعله وعرضه وقدمه لوالده ، لم ييأس ، فإذا كان هذا الوالد قد نسف كل الطرق والجسور التي يمدها إبراهيم بينه وبين والده ، إلا أن هناك بارقة أمل وهناك رجاء ، أن يغفر الله – عز وجل – لوالده ،لذلك وعد والده أنه سيطلب الغفران له .

المسلم :

المسلم الأول ، إنها نفس قلقة متوترة مستنفرة لا يقر لها قرار ، تريد أن تصل إلى حالة من الاطمئنان المطلق إلى مصيرها ، ليس هذا فحسب ، بل مصير الإنسانية في زمنها وفي كل الأزمنة.وهنا ملمح جليل من ملامح شخصية إبراهيم ، أنه مهموم ومشغول بأمر البشرية كلها بدون استثناء ، فأمر نفسه لا يعنيه ولا أمر عشيرته ولا قومه ، وأمر الحاضر لا يعنيه في شيء ، ولكن ما يشغله ويهمه ويعنيه مستقبل البشرية في كل زمان وفي كل مكان.

لم تشتمل كلمة على معاني كثيرة ومقاصد متعددة ومغاز رحبة وأغراض متشعبة كما اشتملت عليها كلمة (الإسلام)، فهي كلمة جامعة ، ولكنها ليست مانعة لأن يدخل تحت ظلالها الكثير من المعاني ، وفي الحقيقة أن الكلمة لا تعبر عن معنى مجرد أو دلالة مختزلة ، ولكنها تعبر عن عالم قائم بذاته ، له أسسه وثوابته ورواسخه ، له ملامحه وسماته ، عالم مثالي وفي نفس الوقت يتمتع بواقعية وحضور صادق في الزمان والمكان ،أو قل هوعالم واقعي ، ولكنه ضارب بأغصانه وفروعه في قمم المثالية والرقي والسمو ،وليس المسلم الذي يتدين بدين الإسلام ،

ولكن المسلم من ينتسب إلى هذا العالم انتسابا وثيقا يجعله يتسم بكل ما يتسم به هذا العالم ،من رقي وسمو وعبودية لله .وأول من جرت على لسانه تلك الكلمة هو إبراهيم – ؛– واختارها دونا عن بقية الكلمات ليسمي بها أبناءه بالنسب وأبناءه بالعقيدة .

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ الحج: ٧٨

ولشدة تعلق إبراهيم – ؛– بالإسلام ، وحرصه على أن يتصف بتلك الصفة أو ينتسب إلى هذا الدين ، كانت دعوته بعد أن انتهى من تأسيس البيت الحرام ، وهذا زمان له اعتباره وقدسيته وكذلك المكان ، وكانت الدعوة والرجاء من إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – لأنفسهما أن يكونا مسلمين ، وذريتمهما أن تكون – أيضا – أمة مسلمة .

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ البقرة: ١٢٨

ومعنى اجعلنا مسلمين ، أهدنا وأرشدنا إلى الكيفية التي نعبدك بها ونتوجه بها إليك لنكتسب تلك الصفة ونتسمى بهذا الاسم العظيم ، وأجاب الله – عز وجل – دعوة إبراهيم ، وهنا تتجلى رحمة الله بعباده ، ومدى رأفته بهم ، في أن الطاعات وأمور العبادة صادرة بأمر من الله ، وتلك التى تجعل أمور العبادة هينة ومحببة إلى النفس الإنسانية ، وكأن ليس هناك خيار آخر أمام العبد ، فهو مكلف تكليفا إلهيا ، لا يستطيع الانفكاك منه ، لم يترك أمور العبادة المفروضة يفعلها أو لا يفعلها ، نعم قد ترى بعض النفوس في أمور العبادة مشقة وعنتا ، ولكن البديل عن عدم القيام بها هي عصيان الأوامر الإلهية ، وحينما توازن تلك النفوس بين عدم الفعل وجريرته ، تسارع وتخف إلى تنفيذ الأوامر ، وبذلك لا تقترف غضب ومعصية الله ، وكأن إبراهيم – ؛- في هذا الموقف في شوق أن يتلقى أوامر من الله ، وهل بعد هذا تشريف وتكريم أن يتلقى أمرا من الله ، أمرا من الله بأن يكون مسلما ، وأمرا وفرض من الله بأن يؤدى المناسك ، ويفعل كل ما من شأنه أن يستحق ويستوجب التوبة ،

أو يطلب إبراهيم من الله أن ييسر له ويهيئ له ويقوم بما يستوجب أن يستحق تلك الصفة وهو الإسلام له . هنا لم يقل الله – عز وجل – كما قال لموسى وهارون – عليها السلام .

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ يونس: ٨٩

ولكن إجابة الدعوة هنا كانت عبارة عن أمر إلهي من الله لإبراهيم ،أمر بأن يسلم ، وينضوى تحت هذا الأمر أمور وتكاليف كثيرة ، أهمها وأجلها الإذعان الكامل والخضوع المتناهي لله عز وجل ، النفس النبوية هنا ، لا استقلالية لها ولا انفصال ولا ابتعاد عن ذات الله ، استجابة مطلقة لما يأمر به الله ، بل قد تجتهد تلك النفس اجتهادا بليغا بأن تطيع الأمر قبل أن يصدر ، وكيف يحدث هذا ؟ بأن تتصور ما يليق أو ما يتناسب أن يصدر عن الذات الإلهية ،رغبة وحبا وطمعا في الرضا ، هؤلاء – الأنبياء - نوعية من البشر ، وقع اصطفاء واجتباء الله – عز وجل – عليهم ، فشعروا بعظيم فضل ومنة وإحسان الله عليهم ، يريدون أن يؤدوا عملا يتناسب مع هذا الفضل والمنة والإحسان ، وأن كانوا يعلمون ويدركون أن كل ما يفعلونه لن يرقى ولن يسمو ولن يدنو مما أفاضه الله عليهم ،وإنما كل ما يستطيعون فعله ، أن يبذلوا أقصى طاقاتهم ويستفرغون كل إمكاناتهم ، في فعل الخير ويدعون الله رغبة في رضوانه وغفرانه ،ورهبة من غضبه وعقابه :

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ الأنبياء: ٩٠

وصدر الأمر الإلهي لإبراهيم أن يسلم ، وأطاع إبراهيم الأمر ،وخرج من هذا الأمر وهو موسوم بالسمة الإلهية ، لأن الإسلام هنا لم يعد أمنية أو دعوة إبراهيم ، ولكنه أمر من الله ، وطاعة وإذعان وخضوع من قبل إبراهيم:

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ البقرة: ١٣١

ولأن الإسلام خرج من مجرد كونه أمنية أو دعوة إبراهيمية إلى أمر من الله ، وإجابة من إبراهيم أصبح فرضا وإلزاما يلتزم به إبراهيم ، ليس هذا فحسب بل يوصي به بنيه ، وتعليل ذلك أن الله - عز وجل - هو الذي اختاره واصطفاه ، لذلك يجب التمسك به والحفاظ عليه والمداومة على ذلك حتى آخر لحظة في العمر ، ولأهمية وخطورة الأمر ، حرص يعقوب- ؛- وهو في اللحظات الأخيرة من حياته ، أن يأخذ العهد على بنيه ويجعلهم يقرون أنهم لن يعبدوا سوى الله ، ويسلمون له ، كما فعل إبراهيم وإسماعيل .

وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ البقرة: ١٣٢

قلنا أن الإسلام ليس كلمة ، وليس مجرد دين أو عقيدة أو شريعة ،قد يتبعها الإنسان ويتقيد بها بنسبة من النسب ، أو يتطبع بها في بعض حالاته ، أو يلتزم بها في بعض تصرفاته ، ولكنه عالم قائم بذاته له دعائمه وأسسه ورواسخه ، ومميزات تميزه عن غيره من العوالم ، وملامح تعينه وتحدده . ومن ارتضى بهذا العالم أو انتسب إليه ، عليه أن يتشرب تلك الملامح ويصطبغ بصبغته حتى يكون - هونفسه - عالم قائم بذاته .

والكلمة التي اشتق منها هذا المسمى ، تلقي الكثير من ملامح وسمات وتضاريس هذا العالم :

سَلم الجلد سَلما:دبغه بالسَّلم ،والسَّلم : شجر من العضاة يدبغ به .

سَلِم من الآفات ونحوها :سلاما وسلآمة بَرِئ وخلص .السلامة : البراءة ، وتسلم منه : تبرأ

أسلم : انقاد ، وأسلم أمره إليه وله :فوضه ، استسلم : انقاد

سَلَّم الله فلانا من كذا : نجاه .

التسليم : مشتق من السلام ،اسم الله تعالى لسلامته من العيب والنقص والفناء ، وأنه سلم مما يلحق الغير من آفات الغير والفناء وأنه الباقي الدائم الذي يفنى الخلق ولا يفنى .

أسلم : يقال كنت راعي إبل فأسلمت عنها ، أي تركتها وكل صنيعةأو شيء تركته وقد كنت فيه فقد أسلمت عنه .

تسَلَّم الشيء : أخذه وقبضه .

السُّلَّم : ما يصعد عليه إلى الأمكنة العالية .

استلم الحاج الحجر الأسود بالكعبة : لمسه باليد أو قبله .

السَّلم : الصلح

السلام : الأمان . التحية عند المسلمين .

سلاما : (قالوا سلاما) أي سدادا من القول وقصدا لا لغو فيه ، سلام هي حتى مطلع الفجر : أي لا داء فيها ولا يستطيع الشيطان أن يصنع فيها شيئا .

مسلم : وفيه قولان : أحدهما : هو المستسلم لأمر الله . والثاني : هو المخلص لله العبادة من قوله سَلَّم الشيءَ لفلان أي خَلَّصه ، وسَلِم له الشيء أي خلص له .

فالإسلام هو الخروج من عالم خروجا مطلقا ،بدون أدنى تفكير في الرجوع إليه مرة أخرى بل قطع كل الصلات التي تربطك بهذا العالم ومحو وتبديد أي أثر من أثاره في النفس ، إلى درجة تصل أن تنفي نفيا قاطعا أنه لم يكن لك أي صلة تذكر بهذا العالم في يوم من الأيام وأنك لم تكن من قاطني هذا العالم ،والدخول في عالم بكل حرية واختيار ، وشعور وإحساس أنك لم تخلق إلا لهذا العالم ،أن هذا العالم لم يخلق إلا لك ، وأنك والعالم صرتما شيئا واحدا ، فأنت تعيش في هذا العالم وهذا العالم يعيش فيك ، نعم ، أنت دخلت هذا العالم باختيارك وبكامل حريتك ، ولكن بعد ذلك حدث ما يشبه الانصهار لك والذوبان ثم يحدث لك حالة من التخلق والتكوين مثل تلك الحالة التي تحدث للجنين منذ بدايته يستمد سماته وملامحه وجيناته الوراثية

وكل ما يخص كيانه الخلقي والخلقي من هذا العالم ، وتلك الملامح والسمات والطبع والمزاج لا دخل لك فيه ، ولا قدرة لك على تغييرها أو تبديلها ، وهل يملك الجنين أي مشيئةأو إرادة في تحديد أوتشكيل أوتكوين كيانه ؟ منذ دخولك هذا العالم فقد أسلمت نفسك لله ، إرادتك هي إرادته ، مشيئتك هي مشيئته ، تفويض في أعلى وأرقى معانيه لله ، هذا الأمر وهذا الحال لا يقدر عليه الإنسان إلا بمعونة وتيسير من الله ، وهذا ما نظن الذي قصده إبراهيم – ؛– حينما دعا الله – عز وجل- أن يجعله مسلما .

لذلك فليس الإسلام دينا ، بل هو أكثر وأشمل وأرحب من ذلك .

وليس الإسلام شريعة ، بل هو أكثر وأشمل وأرحب من ذلك .

وإلا لم جعل الإسلام هو دين كل الأنبياء ؟

هذا التفويض المطلق ، والتسليم غير المقيد بشروط ، والعبودية الخالصة لله والعلاقة الأقوى والأرسخ بين العبد والله ، هي المعتمدة والمعتبرة لأن تكون دينا عند الله : چ

إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (19) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (20)

آل عمران: ١٩ - ٢٠

ولله حق على العباد يتفق مع عزته وجلاله ، وهو - عز وجل - لن يقبل دون هذا الحق ، وقد أدرك ووعى ذلك إبراهيم - ؛- لذلك قال ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة ، فالإسلام بالصورة التي فصلناها ومايحيط به من تفويض مطلق وعبودية خالصة ، لا يقدر عليه سوى أنبياء الله ورسله ، وهم لا يؤدونه إلا بعون وتوفيق من الله ، ولبقية العباد أن يحاولوا أن يتصفوا بتلك الصفة وأن يجسدوها في أفعالهم وأقوالهم وأفكارهم ومشاعرهم

وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ آل عمران: ٨٥

الفصل العاشر
اتكاسات الدعوات الدينية

من الخطأ أن نظن أن الدعوات الدينية كانت على نفس مستوى البشر - في ذلك الوقت - من التفكير أو الوعي أو الإدراك ، جميع الدعوات الدينية كانت صادمة لأصحابها ، لأنها تكلفهم الكثير من العنت والمشقة ، تلك المشقة والعنت التي يجدها من تعود على شيء وأدمنه ، وأصبح طابعا من شخصيته ، فلا يستطيع أن يتحول عن هذا الطبع إلا إذا تحول عن شخصيته التي يألفها ويعرفها تمام المعرفة ، ويألفها ويعرفها عنه من يعيشون معه ويحيطون به ، فهي - الدعوات الدينية - تريد أن تخلع عنهم تلك الأسمال البالية من العادات والتقاليد ، التي ورثوها عن أبائهم وأجدادهم بدون وعي أو تفكير ، وهم يريدون أن يتشبثوا بها ولا يفرطوا فيها ،ومن ناحية أخرى تريد أن ترتقي بهم وتسمو ليلجوا عوالم من الطهر والنقاء ، وتأبي نفوسهم إلا الخلود والبقاء في عوالمهم الوضيعة الدنيئة ، الدعوات الدينية تريد أن تخلقهم خلقا أخر ، أو قل تعيدهم إلى نقاء وطهر الفطرة التي ران عليها وتراكم الكثيرمن سخائم نفوسهم ، فطمر تلك الفطرة ، ومسخها مسخا ، والدعوات الدينية تطلب من أصحابها وتكلفهم أن يكونوا في جهاد دائم ومستمر ، بدون توقف أوفتور ؛

لأن في هذا الجهاد الدائم والمستمر ، تأصيل وترسيخ لجوهر الدين في أصل النفس البشرية ،وإذ ترسخ جوهر الدين في أصل النفس ،أصبح الدين – وما يشتمل عليه من قيم ومبادئ – جزءا من أصل النفس ، أوسمة وطابع أصيل فيها ،فلا تعد تشعر بعنت أومشقة وهي تمارس حياتها بهذا الطابع ، بل العنت كل العنت والمشقة كل المشقة في أن تباعد بينها وبين هذا الدين ، أو تحاول ان تفصل هذا الطابع – الأصيل – عن النفس .

ولكن كل هذا شاق على النفس ، ففي أن تقلع النفس عما تعودت وألفته أزمنة وأزمنة ، وأن تطلب منها الارتقاء والسمو إلى عالم آخر ، وترك وهجر عالمها ، وأن تكلفها جهادا دائما ومستمرا، فليس للنفس صبر أوطاقة لتحمل هذا ، لذلك قد يحدث انتكاسة للدعوة الدينية ، بعد رحيل صاحبها بمدة قد تطول وقد تقصر ، بل قد تحدث الانتكاسة وما يزال صاحب الدعوة بين ظهراني قومه ، مثلما حدث مع قوم موسي – ؛- حينما غاب عنهم أربعين يوما ،وترك فيهم أخاه هارون – ؛- ورجع ووجدهم عاكفين على عبادة العجل الذي صنعه لهم السامري.

وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (83) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (84) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (86) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (88) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (89)

طه: ٨٣ - ٨٩

" أن موسى ؛بعد أن أهلك الله – تعالى – فرعون وجنوده ، سار ببني إسرائيل متجها ناحية جبل الطور ، ثم تركهم مستخلف عليهم أخاه هارون ،وذهب لمناجاة ربه ومعه سبعون من وجهائهم ، ثم عجل من بينهم شوقا للقاء ربه ، فأخبره –سبحانه – بما أحدثه قومه في غيبته عنهم.

والمعنى : وقلنا لموسى : أي شيء جعلك تتعجل المجيء إلى هذا المكان قبل قومك وتخلفهم وراءك ، مع أنه ينبغي لرئيس القوم أن يتأخر عنهم في حالة السفر ، ليكون نظره محيطا بهم ونافذا عليهم .

فأجاب موسى معتذرا لربه – تعالى – بقوله (هم أولاء على أثري) أي على مقربة منى ، وسيلحقون بي بعد زمن قليل (وعجلت إليك رب لترضى) أي وقد حملني على أن أحضر قبلهم، شوقي إلى مكالمتك – يا إلهي – وطمعي في زيادة رضاك عني " 1

لقد رأي بنو إسرائيل المعجزة بأعينهم حينما فرق موسى البحر بعصاه ونجاهم الله وأغرق فرعون وجيشه ، أي المفروض أن يكونوا في قمة الإيمان والتمسك بتعاليم نبيهم ، سواء كان حاضرا بينهم أو غائبا عنهم ، ولكن لم يكن يمضي وقت - وبينهم ومعهم هارون – إلا وقد حنوا ومالوا إلى سابق عهدهم من عبادة العجل غير أبهين بوجود هارون بينهم ، غير مكترثين بموقفهم المشين حينما يرجع موسى ويراهم وقد ارتدوا على أعقابهم كافرين .

1تفسير الوسيط –د . محمد سيد طنطاوي –المجلد التاسع (136)

هنا الدعوة حدث لها انتكاس ، ولم يمنع النكسة وجود نبيين ، ولا وحدوث معجزة كانت نتيجتها نجاتهم من الذبح والقتل .

هنا لو بحثت عن سبب النكسة فلن تجد ، وأشد أنواع النكسة أن تحدث بدون أن يكون لها مبررات موضوعية أو منطقية ، وتلك المبررات الموضوعية أو المنطقية ، تقادم الدعوة وتواتر الأجيال فيفتر وهج الدعوة في نفوس أصحابها ويضعف تمسكهم بتعاليمها وإرشاداتها ،أو تحارب تلك الدعوة ويتعرض أصحابها للترهيب أو الترغيب ، فيضعف أصحاب الدعوة ويستجيبون لداعي الترهيب أو الترغيب ، وقد أدان بنو إسرائيل أنفسهم حينما برروا ما فعلوه بقولهم : (ما أخلفنا موعدك بملكنا) " أي : ما أخلفناموعدك فعبدنا العجل بأمرنا وطاقتنا واختيارنا ، فقد كان الحال أكبر من أن يدخل تحت سلطاننا "1

وقد عبر القرآن عن موقفهم هذا بقوله (وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم) " يشير إلى أنه بلغ حبهم العجل مبلغ الأمر الذي لا اختيار لهم فيه كأن غيرهم أشربهم إياه 2"

1تفسير الوسيط – المجلد الأول (139)
2المصدر السابق (207)

هم يعترفون بأنهم كانوا مساقين إلى هذا الأمر ، كأنهم واقعون تحت سيطرة قوة أو سلطان ، يحركهم كما تحرك الدمى الخشبية لا تبدى مقاومة أو اعتراضا ،حتى حبهم للعجل ، وكأن هناك من سقاهم - وهم لا يعلمون من فعل هذا - هذا الحب ، فهم مغلبون ومقهورون على أمرهم وإرادتهم .

وإذا كانت الدعوة الدينية قد انتكست وما يزال موسى بين ظهراني قومه، فما بالك بعد أن يرحل موسى إلى جوار ربه ويطول الأمد والعهد بين القوم ونبيهم ، أو بين هؤلاء القوم ومن سيأتي بعدهم من أبنائهم ؟

فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا

مريم: ٥٩

" والمعنى : فخلف من بعد أولئك الأخيار الذين أنعم الله عليهم ، خلف سوء وشر ، ومن الأدلة على سوئهم وفجورهم أنهم (اضاعوا الصلاة) بأن تركوها ، أو لم يؤدوها على وجهها المشروع (واتبعوا الشهوات) التي جعلتهم ينهمكون في المعاصي ،ويسارعون في اقتراف المنكرات "1

على ما يبدوا أن الزمن يبلي كل شيء ولا يستثني من ذلك الدعوات الدينية ، فهي - أيضا - تبلى وتضعف وقد تمحى وتصبح أثرا بعد عين بمرور الزمن ، ويأتي - الزمن - بقوم يرتضون بعرض الحياة الدنيا ، ويتخلون عن الملة والدين ، وهذا يوضح موقف إبراهيم ويعقوب - عليها السلام - فهما يؤكدان ويأخذان من العهد على أبنائهم أن يحافظوا على الدين ولا يفرطون فيه ولا يتركونه للزمن يفعل به الأفاعيل.

1تفسير الوسيط المجلد التاسع (51)

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (132) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134) البقرة: ١٣٠ - ١٣٤

ولو لم يكن الأمر في حاجة إلى وصية ، سواء إلى الموصى إليه أن يحافظ ويتمسك ويداوم ويستمر ويستفرغ كل جهده وطاقاته ولا يفترأو يكسهل أو يهمل أو يفرط ، أو إلى أهمية وخطورة وقدسية الوصية ، ما حرص إبراهيم أن يوصى بنيه ويعقوب ، وما اهتم يعقوب أن يأخذ على أبنائه عهدا ووعدا ألا يعبدوا بعده أحدا إلا الله ، كما فعل من قبل إبراهيم وإسماعيل وإسحاق - عليهم السلام - وهذا العهد والوعد حينما حضر يعقوب الموت ،وهذايدل على أهمية الوصية ، وكأنها آخر ما قاله يعقوب لأبنائه ، قبل أن يلقى ربه .

وكأن هناك خطرا ماثلا يرونه أو يتوقعونه ، إما أن يرتد الأبناء أو الأحفاد عن تعاليم الدعوة ، أو ينحرفوا بها عن سبيلها السوي ، أويفرطوا فيها ويتخلوا عنها ، وفي نفس الوقت شدة حرص وخوف من الأنبياء على دعوتهم حتى لو لم يكن هناك توقع من أن تنحرف الأجيال التالية عن الدعوة .

وانتكاسة الدعوةالإبراهيمية لها ما يبررها ويسوغها بحكم أنها :

أنها أول دعوة إلى العالم لعبادة وتوحيد الله ، فلم يكن لها سابقة أو مقدمات ، هي مجرد إعداد وتجهيز وتهيئة لما سوف يتوالى من دعوات ،ودعوة هذا شأنها وأمرها لا تعتبر حدا فاصلا أو نقطة فارقة بين عهدين أو عالمين ،وإنما – دائما – تكون الأمور ملتبسة متداخلة بين القديم والمألوف وسطوته وهيمنته على النفوس ، وبين الجديد الغريب ونفرة وإنكار النفوس له .

طموح الدعوة أو مهمتها ودورها قد يترك فراغا يتيح العودة إلى ما قبل الدعوة ، فالدعوة الإبراهيمة كان جل اهتمامها زلزلة وتقويض وهدم عالم الشرك ، وتخليص العالم من تلك الأغلال ،إيقاظ العالم من سباته ،دفعه إلى التفكير والتأمل ولو اضطر الداعي إلى إحداث صدمة أو الدخول في صدام ، وهذا ما فعله إبراهيم – ؛- من تحطيم وكسر الأصنام في قدس أقداس قومه ، هو لم يهاجم عبادتهم ولم يسفه أحلامهم

، ولم يدعوهم إلى ترك ونبذ تلك الألهة ، وحينما سألوه عن الفاعل ، أحالهم إلى أصنامهم- التي تحولت إلى قطع من الحجارة - ليسألوها ،وضعهم في مواجهة أنفسهم ، فضحهم ، وكشف مدى تفاهة عقولهم ، وانحطاط نفوسهم ، ودناءة أهدافهم ، ولكن مع كل ما فعله إبراهيم ، لم نجد إنجازا للدعوة يسهم في تغيير حال ووضع الناس ، بدليل ان إبراهيم تركهم ورحل ، وكل ما فعلته دعوة إبراهيم أنها استفزت عنادهم ،واستنفرت تمسكهم بما هم عليه من باطل وضلال " وعاش الخليل ما عاش والتوحيد في قومه مشوب بالشرك والضلال وفارق الدنيا والخلفاء من بعده يتقدمون وينكسون ويستقيمون وينحرفون ولم ينقض من بعده عهد إلا وهو ينبيء الناس أنها نبوة تتلوها نبوات ، وأنها أمانة موروثة في أعقابه لا تنقطع في جيل ولابد لها من ورثة أبرار "1

سمة من سمات مكونات شخصية إبراهيم ، أنه لا ينظر إلى الخلف ، ولا يهتم بالحاضر ،ولكنه مندفع إلى الأمام ، ليس إلى مستقبل الدعوة فحسب بل مستقبل العالم العقدي للبشرية ، تجاوز زمانه وعصره إلى جميع الأزمنة والعصور ، لذلك ضاقت به الأقطاروالبلدان ، وساح في الأرض ، وأختلط بجميع الأجناس ، وتحاور معهم وتناقش واختلف واتفق ،

1إبراهيم أبو الأنبياء – عباس محمود العقاد (9)

ليكون على بينة وعلى يقين بالشيء الحقيقى والجوهرى الذي يصلح ويرتقى بحياة البشر، إنه ليس صاحب رسالة ولكنه مؤسس لعالم الرسالات ، وليس صاحب دعوة ولكنه منطلق لكل الدعوات التالية له، هنا أنت لا تبحث على إنجاز للدعوة الإبراهيمة في زمن محددولا مكان معين ، لأن إنجازها الحقيقي فيما تلاها من دعوات ، أنت لا تبحث عن معنى وملامح الأبوة في الأب ،ولكنك تتلمسه في الأبناء والأحفاد ، نعم ، حدثت نكسة للدعوة الإبراهيمية على مراحل كثيرة ، لأن صاحب الدعوة لم يكن مشغولا أومهتما بما يحول بين الدعوة والانتكاسة ، لأن الانتكاسة لن تنال ولن تؤثر في الدعوة ، بل قد تزيدها قوة ومناعة ، وهي - النكسة - شهادة لها وليس عليها ، أن الدعوة موجودة وماثلة وشاخصة ، في الضمائر والعقول ، أما أن يسير البشر في ركابها مؤيدين ومقرين ، أو يتخلفوا وينكسوا عنها متخاذلين ومنكرين ،فليس لهذا حساب أوميزان في عالم العقائد ، " وقد أصابت النكسة كل عقيدة نادى بها الخليل قومه في عصره ، فانقلبوا إلى عبادة الأصنام وجهلوا سر الفداء وسر البقاء ،ولكن البداءة قد بدئت وسارت في طريقها ولولا أنها بدئت لما تبين أحد موضع النكسة فيما بعد ذلك " 1

1إبراهيم أبو الأنبياء – العقاد (198)

ولكن حدث شرخ في عالم الشرك ، وسوف يتسع هذا الشرخ بمرور الوقت ، هناك لبنة اقتلعت من السور العازل بين عالم التوحيد والنور وعالم الشرك والظلام وسوف تتوالى اللبنات بعد ذلك أن تسقط من تلقاء نفسها ، ومضة أضيئت وسط الظلام ،ليعلم الناس بوجود النور وأن الظلام ليس ضربة لاذب ،حتى ولو مضت الدعوة ومضى صاحب الدعوة بدون أن تثمر ثمرا حقيقيا ، أو تغير من حياة البشر تغييرا ملموسا ، وعاد الناس إلى سابق عهدهم ، أو لم يتجاوبوا مع تعاليم الدعوة ،كما يجب أن يكون التجاوب ، إلا أنه وضعت نبتة ، ألقيت بذرة ، شق طريق جديد أو أشير إليه ، وما على تلك النبتة والبذرة إلا أن تنتظر حتى تتجمع وتتفق وتتوافق الظروف والأحوال وتتهيئ الأوضاع لتضرب تلك البذرة بجذورها في الأرض ، وتتصاعد فروعها لتملأ الفضاء ،إن أي دعوة فتح لعالم الأمل والرجاء والرحمة والتسامح ليعرف القلب الإنساني طريقة إلى السعادة والسرور .

حالة العالم :نحن وإن قلنا انتكاسة الدعوات الدينية ، فلم نقصد بذلك ، أن هناك خللا أو عطبا قد لحق بالدعوة ، أو أن الدعوة نكست على أعقابها ،وتخلت عن دورها ومهمتها ، أو أن الناس لم يجدوا في تعاليم الدعوة ومبادئها وقيمها ما يريدون وما يطمحون ، ولكن الإنتكاسة صادرة من الناس أو التناقض بين طبيعة الناس وطبيعة الدعوات الدينية ،

فالدعوات الدينية لا تتعامل مع ما في طوقهم وما يتفق مع إمكانياتهم أو ما يبدونه وما يعلنونه ، الدعوات الدينية تعامل مع الناس بما هو مركوز في طبيعتهم – وهم يجهلونه – من قدرات هائلة وإمكانيات رائعة ، كالأرض فإذا نظرت إليها نظرة عابرة ، فهي لا تشتمل إلا على تراب وصخور ونباتات ومياه ، ولكن إذا فتشت ونقبت داخلها وبعمق ستكتشف من الكنوز الكثير والكثير ، والتطور والتقدم الذي قطعه بنو الإنسان بسبب اكتشاف القوانين الطبيعية أو تسخير واستغلال عناصر الطبيعة بما يخدم أغراض ومقاصد الإنسان ، فالطبيعة هي هي لم تتغير منذ ملايين السنين ، وتشتمل – منذ ملايين السنين – على كل القوانين ، والأرض تحتوى على كل تلك الكنوز ، كل شيء كان موجودا، وملايين البشر مروا ولم يكتشوفوا ما يحكم ويتحكم في عناصر الطبيعة من قوانين وضوابط ، والأرض مضى عليها ملايين السنين وفي جوفها كل تلك الذخائر والكنوز ، بل أن التاريخ يحدثنا أن عددا من العلماء حينما توصل إلى أكتشاف قانون أو حقيقة من حقائق هذا الكون ، كان يحكم عليه بالموت أو الجنون ، أوالشذوذ في الفكر، ونحن الآن نتعجب من موقف القوم من هؤلاء العلماء والمكتشفين ، مع أن ما يقولون به شيء بديهي ومن المسلمات، ولكن نظرتنا الآن بعدما تطور العقل الإنساني ، وتخلى وتخلص من ربقة الجمود والتحجر ،نرى ما كان في غاية العجب والغرابة والخروج عن كل مألوف ومعتاد نراه في غاية العقل والمنطق

، بل نحن نتعجب من موقف هؤلاء وثورتهم وغضبهم لمجرد أن قال بما يراه أنه حقيقة أو قانون من القوانين تحكم وتضبط عناصر الطبيعة في نظام مطرد .

إذن كل التقدم والتطور الذي قطعته وأنجزته الإنسانية في تاريخها الطويل من اختراع وابتكار واكتشاف ، كل هذا لم يخلق من العدم ، ولم يصنعه الإنسان من لا شيء ، فالجاذبية كانت موجودة وتعمل عملها في ضبط عناصر الكون منذ أن خلقت الأرض ، والملايين يلمسونها ويتصرفون على أساسها ، إلى أن جاء من يفسرها تفسيرا عقليا ، وعلى ضوء هذا التفسير تم استغلالها أو استعمالها فيما يفيد الإنسان ، وكذلك قانون الطفو وغيره من عشرات القوانين التي أسهمت في تغيير حياة الإنسان ، فكل شيء موجود ، لم يخلق شيء من العدم أو يستحدث منذ بدء الخليقة ، ولكن الأمر في حاجة إلى جهد وعمل وبحث وتنقيب ، الأمر في حاجة إلى تنظيم عقلي وترتيب فكري لتصل إلى إدراك ما يحكم الطبيعة حولك من نظام ،وفي حاجة إلى نظرة نافذة وعقل ثاقب ، لينفذ إلى ما وراء الظاهر ليصل إلى الجوهر والعمق ،والأهم مبدأوعنصر التجريب ، الذي يدل على مرونة وقدرة وعبقرية العقل الإنساني ، هل كان يتصور أن مجرد احتكاك حجرين بقوة وسط حزمة عشب جاف سترتب عليه الوصول إلى النار التي غيرت حياة البشرية تغييرا جذريا ؟ ليس هذا فحسب

بل هناك إمكانية الحصول على النار من الشجر الأخضر ، الذي يوحي منظره ومادته باستحالة خروج النار منه ، ولكن الأمر في حاجة إلى تجريب وفي حاجة إلى اتساع أفق ومرونة عقلية لاستقبال قوانين وحقائق طبيعية بثها الله ووضعها في الطبيعة.

الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ يس: ٨٠

وإذا قيلت تلك الحقيقة في غير وقتها المناسب أو في غير مرحلة من مراحل النضج العقلي ، لرفضها العالم ، ولو حدثت أمامه لربطها بغير أسبابها وأرجعها إلى عمل السحر أو فعل الجن والشياطين .

هذا كان موقف العالم قديما من الحقائق الطبيعية وما يتوصل إليه العقل البشري من من قوانين والتي هي في منتهاها ربط السبب بالمسبب أو العلة بالمعلول .، وكل هذا داخل إطار مادي يلمسه الناظر والمتأمل بجميع حواسه ،ومع كل ذلك استغرق العالم الآف السنين ،ولم تكن مسيرة العلم ممهدة أومذللة ، وإنما شابها الكثير من التراجع والتقدم والارتداد والخطأ والصواب ،

والكثير في العالم اليوم لا تعنيه تلك المسيرة ، ولا يهتم بتلك المراحل وما حدث في كل مرحلة ، يكفيه اليوم أن ينعم بثمار تلك المسيرة ويتمتع بمنجزات العلم ، ولا يكلف نفسه فهم شيء من تلك القوانين أومعرفة شيء عن تاريخ الاكتشافات والابتكارات .

فما بالك بمسيرة الدعوات الدينية ،وحديثها عن الحقائق الكونية ، وعن مصير الإنسان بعد الموت ، وعن قضية الخلق ، وعن عبادة وتوحيد والإيمان بوجود ذات لا تدركه الأبصار والعقول إدراكا ماديا ، وهنا لا يستطيع أن يأخذ أغلب الناس الموقف الذي يتخذونه من مسيرة العلم ، لأن الدين هنا يتحدث عن قضايا تمس صميم حياة الإنسان كفرد حياته في الدنيا والأخرة ، ويتحدث إليه في أعلى مستويات المسئولية ، ينظر إلى الإنسان كفرد وذات حرة مكلفة لها رسالة ودور ومهمة في الحياة ، ويتحمل جريرة كل ما يقترفه في حياته ، ويحاسب عليه حسابا دقيقا إن خيرا فخير وإن كان غير ذلك فسيحاسب عليه .

لا تتوقع من العالم أن يستجيب لدعوة دينية من أول وهلة ، لا سيما وإذا لم يكن لها سابقة ، تجعل النفوس مهيئة أو متوقعة ، حتى لو استجاب العالم لا تتوقع منه الالتفات والاكتراث لها بجميع حواسه وأن يتفرغ لها لا يشغله ويشتت ذهنه عنها بقضايا أخرى ،

حتى ولو فعل ذلك لا تتوقع منه الاستمرار والمداومة والثبات على ذلك ، فبعد أن يرضى فضوله ، ويسير في ركاب الدعوة بعض الوقت ، قد يتفلت شيئا فشيئا وينسل من بين التزامات تلك الدعوة ،

ويفرط في بعض أسسهها ، شاعرا أو غير شاعر أن ما يفعله – ولو كان هينا الآن – قد يكبر مع مرور الوقت ، ويؤدي إلى هدم الدعوة من أساسها ، وهذا مع حدث من أجيال أصحاب الدعوة الإبراهيمية :

" فالرواة الذين أرخوا ظهور الأصنام في الكعبة المقدسة بمكة لم يدرسوا الآثار المصرية ولم يدرسوا الأحافير ،التي درسها العصريون في القرن العشرين ، ولكنهم أرخوا الأصنام فقالوا : أن سيد مكة (عمر بن لحي) سافر إلى الشام وعاد منها بطائفة من الأصنام وأن أبناء إسماعيل بالحجاز تعودوا عبادة الأنصاب لأنهم كانوا يحملون معهم الحجارة المقدسة للتبرك بها كلما ابتعدوا من الحرم ، ثم انتقلوا من التبرك بها إلى عبادتها مع طول الزمن ،

وكانت روايتهم هذه مصدقة لما فعله أتباع إبراهيم وموسى وسائر الأنبياء في الأماكن الأخرى، فهكذا تحولوا من عبادة الإله الواحد إلى عبادة الانصاب والتعاويذ والتماثيل والطرافين "1

أيما كان الأمر ، فإن انتكاسات الدعوات شيء متوقع ، فكل شيء يبلي مع الزمن ، والأجيال المتعاقبة يفتر حماسها ، ويضعف تمسكها بالعقيدة ، ويخبو الوهج شيئا فشيئا ، وتتعاون عناصر من خارج الدعوة ومن داخلها على الوصول بالدعوة إلى مرحلتها الأخيرة وهي الإنتكاسة .

1إبراهيم أبو الأنبياء – عباس محمود العقاد .(152)

الفاصل الحادي عشر
إبراهيم في القرآن استدعاء شخصيات الأنبياء :

كثيرة ومتعددة تلك الأغراض والمقاصد التي من أجلها يتم استدعاء شخصيات الأنبياء والرسل في القرآن الكريم ، ومن أهمها وأجلها تثبيت فؤاد النبي – خ - .

وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ هود: ١٢٠

ولكن الأمر مع إبراهيم – ؛- أربى وزاد على تلك المقاصد والأغراض الكثيرة ، لأن العالم العقدي – قبل أن ينزل القرآن – كان عالما متداعيا بعدما تآكلت أسسه وركائزه بفعل التحريف والتزييف والتزوير ، وكان مطموس الملامح والسمات بعدما طمرت أنواره وإشرقاته تحت الخرافات والأساطير التي تراكمت بفعل الحقب والعصور ، وغيرت مقاصده وأهدافه أغراضُ وأهواءُ البشر المتدنية والوقتية ، وكانت الجزيزة العربية تعيش حالة من الخواء الفكري والعقدي ، فلم يكن لدى العرب أي أثر من علم يعتمد عليه في إيجاد مرجع علمي موثوق فيه ، كل ما لديهم مجموعة من الأقوال والروايات المتناثرة هنا

وهناك لا ترقى إلى اليقين العلمي ، ولا تصمد أمام النقد العقلي والتمحيص العلمي . المرجع التاريخي والعقدي الوحيد في الجزيرة العربية كلها كان متمثلا في التوراة ، حيث القبائل اليهودية متمركزة في يثرب ، يمثلون ما يمثلونه من قوة مهابة الشأن محترمة الجانب ، لثرائها المادي وقوة تماسكها الظاهرى ،" واليهود في مستعمراتهم الأولى بالحجازبلغوا شأوا من الرقي العمراني لم يبلغه عرب الجزيرة الأصلاء "1 وكان موقف العرب من هؤلاء في غاية الغرابة ، فهم لم يندمجوا الإندماج الكامل مع اليهود ، ولم يقبلوا على دراسة التوراة ، كذلك لم ينأوا كل النأي عن اليهود ، ولم يزهدوا في التوراة ، وهناك أسباب لذلك خاصة بالعرب ، وأخرى خاصة باليهود أنفسهم ليس هذا مجال الخوض فيها.

لذلك كان الأمر ليس في حاجة إلى إعادة ترميم هذا العالم العقديأو إصلاحه ولكن هدمه وإقامة بنيان آخر على أسس وقواعد وركائز صحيحه ؛ لملوهذا الفراغ ، وشغل هذا الفضاء ، لدى العرب ، وكان لابد من الإبتداء بمكة عاصمة وحاضرة وأم قرى العرب تجارة وثقافة وثراء وعقيدة ، والإتجاه إلى المركز الصلب الحيوى النشط البيت الحرام ، لتأصيل وترسيخ الحقائق التاريخية ،

1نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم - الشيخ محمد الغزالي – صفحة (28)

وتخطي كل تلك العصور المظلمة والمجهولة واستدعاء المؤسس والباني الأول للبيت الحرام ،إبراهيم – ؛- وعقيدته التي كان يدين بها ، والتي سار على نهجها أبناؤه من الأنبياء والرسل ، وذريته من بعدهم .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لتصحيح ودحض وهدم مزاعم وأكاذيب وافتراءات اليهود على تاريخ العرب ، الذي حرفوه أو طمسوه في التوراة ، وتوضيح ملامح وصفات العقيدة الجديدة .

وكان موقف اليهود أمام العرب قبل نزول القرآن يستند إلى القوة والوجاهة ، فهم أصحاب كتاب سماوي ، وكانوا يمثلون إرستقراطية ثقافية وعقدية في الجزيرة العربية ، فلديهم ما ليس لدى العرب ، ويملكون العلم والتاريخ والعقيدة ، وامتد هذا الأمر من الماضي إلى الحاضر والمستقبل ،فهم الذين كانوا يبشرون بمجيء النبي المنتظر ، وأنه سيكون من بين ظهرانيهم ، وسيكونون أول من يؤمن به وسيقاتلون به العرب "لقد استأثر اليهود بالوحي الإلهي أجيالا متعاقبة ، فظل في جنسهم أحقابا حتى زعموا أنهم أصحابه وأنه يستحيل أن يتجاوزهم إلى غيرهم "1

1نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم – الشيخ محمد الغزالي – صفحة (28)

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ البقرة: ٨٩

لم يكن لدى العرب ما يستندون إليه للوقوف ضد تلك الأقوال والإدعاءات ، فكل ما يقول به اليهود مكتوب لديهم في التوراة ، وطالما ليس لدى العرب دليل نفي أو تكذيب لما يعرض أمامهم ، فليس ثمة إلا تصديق ما يعرض عليهم .

لتلك الأغراض والمقاصد تم استدعاء شخصية إبراهيم – ؛– وعرض المواقف والحقائق فيما يخص اليهود وما في التوراة من أكاذيب وتزوير وتزييف وتغيير وإخفاء وطمس ،ومن ناحية أخرى أظهار هوية البيت الحرام ، وأن الذي أسسه وبناه ورفع قواعده إبراهيم وابنه إسماعيل – عليهما السلام – وأن البيت له رسالة ودور ، وقد حددها إبراهيم ، وهي عبادة وتوحيد الله ،منذ اللحظة الأولى لوجوده في مكة ، فعبادة الأصنام أو ما طرأ على البيت الحرام من انحراف واعوجاج ،لا أساس له لا عقديا ولا تاريخيا.

لذلك توزعت المشاهد الإبراهيمية بين السور المكية والسور المدنية .

والقرآن يستجيب لدواعي الزمان والمكان ، أو قل يتعاطى مع القضايا التي تنشأ في طريق الدعوة الجديدة ، لذلك كانت السور المكية تختلف عن السور المدنية ، استجابة لاختلاف الزمان والمكان وموقف المكيين والمدنيين من الدعوة واختلاف توجهات وفكر ونفسية وموروثات وتطلعات المجتمع المدني والمجتمع المكي " ورعاية مقتضى الحال جعلته يناقش الكتابيين فيما أثاروا من قضايا واختلقوامن بدع وذلك ظهر جليا في الطور المدني ، أما عبدة الأصنام فإن المنطق الحسي كان يسيطرعليهم والعمل للدنيا وحدها هوما يشغلهم " 1

إبراهيم بين مكة والمدينة :

ذكر إبراهيم – ؛– في القرآن في اثنتي وعشرين سورة ، منها ست سور مدنية هي :

1المصدر السابق (157)

1- البقرة .

2- وآل عمران

3- النساء .

4- التوبة .

5- الحج .

6- الممتحنة

ومنها ست عشرة سور مكية هي :

الأنعام .

هود .

يوسف .

إبراهيم .

الحجر .

النحل .

مريم .

الأنبياء .

الشعراء .

العنكبوت .

الصافات .

ص .

الشورى .

الزخرف .

الذاريات .

الأعلى .

إذن نصيب إبراهيم من القرآن المكي أكثر من نصيبه من القرآن المدني وهذا له دلالة سنذكرها في حينها .

أولاً : المشاهد التي ورد ذكر إبراهيم فيها في السور المدنية :

في سورة البقرة اشتملت على مشهدين :

المشهد الأول : استغرق عشر آيات (من الآية 124- 133) .

عناصر المشهد : ابتلاء إبراهيم بكلمات \ جعل إبراهيم إماما \ طلب إبراهيم أن تكون الإمامة في ذريته \ نفي عهد الله عن الظالمين \ جعل البيت مثابة للناس \ اتخاذ مقام إبراهيم مصلى \ أمر إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت \ دعوة إبراهيم بجعل مكة بلدا آمنا وأن يرزق أهله من الثمرات \ رفع قواعد البيت \ دعوة إبراهيم الله أن يجعله وإسماعيل مسلمين وان يريهما مناسكهما \دعوة إبراهيم بإرسال رسول يتلو آيات الله ويعلم قومه الكتاب والحكمة ويزكيهم \ اصطفاء الله لإبراهيم في الدنيا وكونه في الآخرة من الصالحين \ أمر الله إبراهيم بالإسلام \ استجابة إبراهيم للأمر \ وصية يعقوب لبنيه بعبادة إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق .

المشهد الثاني : استغرق آيتين (من الآية 258- 260) .

عناصر المشهد: محاجاة النمرود لإبراهيم بشأن إحياء الموتى \ الحديث عن الذي مر على قرية وأماته الله مئة عام ثم أحياه \ طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحي الموتى .

في سورة آل عمران ، ذكر إبراهيم في تسع آيات توزعت على ثلاثة مشاهد

المشهد الأول : استغرق آية واحدة (32) .

عناصر المشهد : اصطفاء الله آدم ونوح وآل إبراهيم على العالمين .

المشهد الثاني: استغرق أربع آيات (من الآية 65- 68)

عناصر المشهد :محاجاة اليهود والنصارى في شأن انتساب إبراهيم إلى كل منهما \ نفي القرآن هذا النسب \ وصف اليهود والنصارى بالجهل \ نفي القرآن هذا النسب \ إقرار أن إبراهيم كان حنيفا ولم يكن من المشركين \ إقرار القرآن بأن أحق من ينتسب إلى إبراهيم الذي اتبعوه ومحمد – خ ومن اتبعه .

المشهد الثالث : استغرق آية واحدة (84)

عناصر المشهد : أمر الله بالإيمان به وبما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي عيسى وموسى والنبيون من ربهم \ عدم التفرقة بين واحد منهم \ الإقرار بالإسلام .

المشهد الرابع : استغرق ثلاث آيات (95- 97)

عناصر المشهد : الأمر باتباع إبراهيم \ أولية وضع البيت ببكة \ اشتمال البيت على آيات بينات مقام إبراهيم \ فرضية حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

في سورة النساء ذكر إبراهيم في ثلاث آيات توزعت على ثلاثة مشاهد :

المشهد الأول : استغرق آية (54)

عناصر المشهد : فضل الله على آل إبراهيم بالكتاب والحكمة والملك العظيم .

المشهد الثاني : استغرق آية (125)

عناصر المشهد : أفضل وأحسن الأديان من أسلم وجهه لله وهومحسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا \ اتخاذ الله إبراهيم خليلا .

المشهد الثالث : استغرق آية (163) .

عناصر المشهد :ابلاغ الرسول أن الله أوحى إليه كما أوحى إلى نوح والنبيين من بعده وأوحى إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وإتيان داوود زبورا.

في سورة التوبة ذكر إبراهيم في آيتين (70) و (113) :

المشهد الأول : استغرق آية (70)

عناصر المشهد : إقرار القرآن أن السابقين قدجاءهم نبأ من قبلهم ، قوم نوح وعاد وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات اتتهم رسلهم بالبينات ، وهؤلاء لم يظلمهم الله ولكن كانوا يظلمون أنفسهم .

المشهد الثاني : استغرق آية (113) .

عناصر المشهد :استغفار إبراهيم لأبيه كان عن موعدة وعدها إبراهيم إياه \ تبرأ إبراهيم من أبيه حينما تبين أنه عدو لله \ وصف إبراهيم بأنه أواه حليم .

في سورة الحج ذكر إبراهيم في مشهدين :

المشهد الأول : استغرق آية واحدة (43) .

عناصر المشهد : الحديث عن تكذيب الأقوام للرسل وقوم إبراهيم وقوم لوط .

المشهد الثاني: استغرق آية واحدة (78)

عناصر المشهد : الحديث عن ملة أبوة إبراهيم \ هو الذي سمى المسلمين من قبل .

في سورة الممتحنة ذكر إبراهيم في مشهد واحد ، استغرق آية واحدة (4)

عناصر المشهد : إقرار القرآن أن إبراهيم والذين معه أسوة حسنة \ تبرأ إبراهيم ومن معه من قومهم ومما يعبدون \ إعلان إبراهيم ومن معه بداية العداوة والبغضاء بينهم وبين قومهم أبدا حتى يؤمنوا بالله وحده \إلا قول إبراهيم لأبيه لاستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء \ دعاء إبراهيم ربه بالتوكل والإنابة .

ثانيا : المشاهد التي ورد ذكر إبراهيم فيها في السور المكية

في سورة الأنعام ذكر إبراهيم في خمس آيات توزعت على مشهدين

المشهد الأول : استغرق إحدى عشرة آية (74- 84)

عناصر المشهد :إبلاغ إبراهيم أبيه أنه وقومه على ضلال مبين لاتخاذهم الأصنام آلهة \ الله يري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين \ بحث إبراهيم عن الإله الحق \ وصول إبراهيم إلى الإله الحق \ محاجاة قومه له \ إتيان الحجة إبراهيم \ الله يهب له إسحاق ويعقوب .

المشهد الثاني : استغرق أيه واحدة (161)

عناصر المشهد : هداية الله الرسول إلى صراط مستقيم الدين القيم ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين .

في سورة هود ذكر إبراهيم في مشهد واحد ، استغرق المشهد سبع آيات (69- 76)

عناصر المشهد : مجيء الرسل إبراهيم يحملون البشرى \ تقديم الطعام لهم \ إنكارهم وتوجسه منهم \ إخبار الرسل إبراهيم بأنهم مرسلون إلى قوم لوط \ تبشير الرسل امرأة إبراهيم بإسحاق ويعقوب \ تعجب امرأة إبراهيم من تبشيرها بإسحاق ويعقوب \ مجادلة إبراهيم الرسل بشأن قوم لوط \ وصف إبراهيم بانه أواه منيب \ أمر إبراهيم بالإعراض عن مجادلة الرسل بشأن قوم لوط .

في سورة يوسف ذكر إبراهيم في مشهدين ، كل مشهد استغرق آية

المشهد الأول : استغرق آية (6)

عناصر المشهد : اتمام النعمة على يوسف وعلى آل يعقوب كما اتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق .

المشهد الثاني :استغرق آية (38)

عناصر المشهد : اتباع يوسف ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب \ نفي الشرك عنهم \ الاعتراف بفضل الله عليهم وعلى الناس \ أكثر الناس لا يشكرون .

في سورة إبراهيم ذكر إبراهيم في مشهد واحد استغرق سبع آيات (35- 41)

عناصر المشهد : دعوة إبراهيم أن يجعل هذا البلد آمنا وأن يجنبه وبنيه أن يعبد الأصنام التي اضلت كثيرا من الناس \ من يتبع إبراهيم فإنه منه ومن يعصيه فالله غفور رحيم\إبراهيم يتضرع إلى الله أنه سكن واديا غير ذي زرع عند بيته المحرم ليقيموا الصلاة \ دعوته أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليه وأن يرزقهم من الثمرات ليشكروا الله\ حمد إبراهيم ربه أن رزقه على الكبر إسماعيل وإسحاق \دعوة إبراهيم أن يجعله الله مقيم الصلاة ومن ذريته \ دعوة إبراهيم أن يغفر الله لوالديه وللمؤمنين يوم يقوم الحساب .

في سورة الحجر ذكرإبراهيم في مشهد واحد استغرق ثمان آيات (51- 58)

عناصر المشهد : إنباء عن ضيف إبراهيم \ دخولهم عليه ووجله منهم \تبشيره بغلام عليم \ تعجب إبراهيم من البشرى بعد أن مسه الكبر \ إخبار الضيوف إبراهيم أنهم بشروه بالحق ونهيه عن القنوط \ سؤال إبراهيم عن مهمة الضيوف \ إخبارهم له أنهم مرسلون إلى قوم لوط .

في سورة النحل ذكرإبراهيم في مشهد واحد استغرق أربع آيات (120- 123)

عناصر المشهد : وصف إبراهيم بالأمة والقنوت لله والحنف ونفي الشرك عنه \ شاكر لأنعم الله \اجتباه الله وهداه إلى صراط مستقيم \ أتاه الله في الدنيا حسنة وهو في الآخرة من الصالحين \ الوحي إلى رسول الله باتباع ملة إبراهيم الحنيف \ نفي الشرك عن إبراهيم .

في سورة مريم ذكر إبراهيم في مشهد واحد استغرق تسع آيات (41- 50) .

عناصر المشهد : ذكر إبراهيم في الكتاب ووصفه بالصدق والنبوة \ محاولة إبراهيم اقناع والده ألا يعبدالأصنام \ إخبار إبراهيم والده بإتيانه العلم ما لم يأته \ طلب إبراهيم من أبيه أن يتبعه ليهديه صراط مستقيم\ نهي إبراهيم والده عن عبادة الشيطان ؛ لأن الشيطان عاص لله \ خوف إبراهيم على أبيه أن يمسه عذاب من الرحمن \ رد إبي إبراهيم وإصراره على عبادة الأصنام وتهديده لإبراهيم بالرجم والهجر \ وعد إبراهيم لأبيه أن يستغفر له ربه لأن ربه حفي به \ إعلان إبراهيم اعتزال الأصنام \ وهب الله إبراهيم إسحاق ويعقوب وجعلهما أنبياء \ وهب الله من رحمته وجعل لهم لسان صدق عليا .

في سورة الأنبياء ذكر إبراهيم في مشهد واحد استغرق إحدى وعشرون آية (51- 72)

عناصر المشهد : إتيان إبراهيم رشده من قبل وعلم الله به \ محاورة بين إبراهيم وقومه وأبيه عن التماثيل التي هم عاكفون عليها \ إجابة أبي إبراهيم عن إتباع الأباء بشأن عابدتهم للأصنام \ إتهام إبراهيم أباه وقومه بالضلال \ سؤال قوم إبراهيم عن مهمته

وهل جاء بالحق أم هم من اللاعبين \ إجابة إبراهيم أن ربهم رب السموات الذي فطرهن وهو على ذلك من الشاهدين \ قسم إبراهيم بالكيد للأصنام \ قيام إبراهيم بتكسير الأصنام إلا كبيرهم \ سؤال القوم عن الفاعل \ إتهامهم أبراهيم \ الإتيان بإبراهيم وسؤاله \ سخرية إبراهيم منهم وإحالتهم إلى كبير الأصنام \ ضيق إبراهيممن قومه لعبادتهم من لا يسمع ولا يجيب ولا ينفع \ الحكم على إبراهيم بالحرق \ أمر الله للنار أن تكون بردا وسلاما على إبراهيم \ الله ينجي إبراهيمولوط إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين \ الله يهب إبراهيم إسحاق ويعقوب نافلة وجعلهم صالحين\ جعلهم أئمة بالأمر الإلهي والوحي فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الذكاة وهم عابدون لله .

في سورة الشعراء ذكر إبراهيم في مشهد واحد استغرق عشرين آية (69- 89)

عناصر المشهد : أمر الرسول بأن يتلو عليهم نبأ إبراهيم \ سؤال إبراهيم أبيه وقومه عن معبودهم \ إجابة أبيه والقوم بأنهم يعبدون الأصنام ويظلون لها عاكفين \ سؤاله لهم إذا كانوا يسمعون إذ تدعون أو ينفعون أو يضرون \ إجابة قومه أنهم وجدوا أباءهم يفعلون هذا \ إقرار إبراهيم بأن الأصنام عدو له إلا رب العالمين \الذي خلقه فهو يهديه والذي يطعمه ويسقيه والذي يشفيه إذا مرض والذي يميته ثم يحييه

والذي يطمع أن يغفر له خطيئته يوم الدين \ تضرع إبراهيم إلى الله أن يهب له حكما ويلحقه بالصالحين \ ويجعل له لسان صدق في الآخرين ويجعله من ورثة جنة النعيم \ وأن يغفر لأبيه لأنه كان من الضالين \ ولا يخزيه يوم يبعثون \ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

في سورة العنكبوت ذكر إبراهيم في ثلاثة مشاهد استغرقت ثمان آيات .

المشهد الأول : استغرق آيتين (16- 17)

عناصرالمشهد :قول إبراهيم لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون \ما تعبدون من دون الله أوثانا \ لا يملكون لكم لكم رزقا \ ابتغوا عند الله الرزق \ اعبدوا الله واشكروا له إليه ترجعون .

المشهد الثاني : استغرق أربع آيات (24- 27)

عناصر المشهد : جواب قوم قوم إبراهيم قولهم اقتلوه أو حرقوه \إنجاء الله إبراهيم من الحرق \ قول إبراهيم لقومه إن ما اتخذتموه من دون الله أوثانا مودة في الدنيا ويوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا \ إيمان لوط له \ إعلان إبراهيم هجرته إلى الله \ الله يهب إبراهيم إسحاق ويعقوب ويجعل في ذريته النبوة والكتاب وهو في الآخرة من الصالحين .

المشهد الثالث : استغرق آيتين (31- 32)

عناصر المشهد : مجيء الرسل إبراهيم بالبشرى \ إخباره أنهم مهلكوا أهل قرية لوط لأنهم كانوا ظالمين \ إخبار إبراهيم الرسل أن في القرية لوط \ إخبار الرسل بعلمهم بذلك وأنهم مأمورون بإنجائه إلا امرأته كانت من الغابرين .

في سورة الصافات ذكر إبراهيم في مشهد واحد استغرق إحدى وثلاثين آية (82- 113)

عناصرالمشهد : إخبار أن إبراهيم من شيعة نوح \ سؤال إبراهيم أبيه ماذا يعبدون \ تعجبه وإنكاره من عبادتهم إفك دون الله \ النظر إلى النجوم \إخبارهم أنه سقيم \ انصرافهم عنه \ إسراعه إلى الأصنام \ مخاطبة الأصنام والسخرية منها \ تكسيره الأصنام \عودةالقوم \ تعجبه وسخريته من قومه أن يعبدوا ما ينحتونه بأيديهم \ طلب قومه أن يبنوا له بنيانا ويلقوه في النار \ أرادوا بإبراهيم كيدا ولكن الله جعلهم الأسفلين \إعلان إبراهيم أنه ذاهب إلى ربه سيهديه \ دعوة إبراهيم ربه أن يهب لهمن الصالحين \ تبشيره بغلام حليم \ إبراهيم يقص على إسماعيل رؤيا ذبحه \ استسلام إسماعيل لرؤيا أبيه \ هم إبراهيم بذبح إسماعيل \ فداء الله لإسماعيل \تبشيره بإسحاق نبيا من الصالحين \ من ذريته محسن وظالم من لنفسه .

في سورة ص ذكر إبراهيم في مشهد واحد ، استغرق آيتين (45- 46)

عناصر المشهد : ذكر عبدنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار \ إخلاصهم بخالصة وذكر الدار \ وهم عند الله لمن المصطفين .

في سورة الشورى ذكر إبراهيم في مشهد واحد استغرق آية (13)

عناصر المشهد :الله شرع للمسلمين من الدين ما وصى به نوحا وما وصى به إبراهيم \ وموسى وعيسى \أن أقيموا الصلاة ولا تتفرقوا \ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب .

في سورة الزخرف ذكر إبراهيم في مشهد واحد استغرق ثلاث آيات (26- 28) .

عناصر المشهد : قول إبراهيم لأبيه وقومه أنه براء مما يعبدون \ إلا الذي فطره فإنه سيديه \ جعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون .

في سورة الذاريات ذكر إبراهيم في مشهد واحد استغرق ثلاث عشرة آية (24- 37) .

عناصر المشهد:الحديث عن ضيف إبراهيم المكرمين \ دخلوا عليه وألقوا السلام فرد سلامهم وأنكرهم \أسرع إلى أهله وجاء بعجل سمين\ لم يأكلوا منه \ أحس منهم خيفة \ الضيوف يطمئنون إبراهيم ويبشرونه بغلام عليم \ تعجب زوجة إبراهيم من كونها عجوز ومع ذلك ستلد \ يخبرونها أنه قول ربها وهو الحكيم العليم \سؤال إبراهيم الضيوف عن مهمتهم \ إخبار الضيوف إبراهيم إنهم أرسلوا إلى قوم مجرمين \ ليرسلوا عليهم حجارة من طين .

في سورة الأعلى ذكر إبراهيم في مشهد واحد استغرق أية واحدة (19)

عناصر المشهد : صحف إبراهيم وموسى .

بالمقارنة بين المشاهد المدنية والمشاهد االمكية ، نخرج بجملة من الملاحظات منها:

أن المشاهد المدنية لم يذكر فيها مواقف إبراهيم من الأصنام ولا تلك المجادلات والمناقشات بينه وبين قومه وأبيه ، فكل تلك المشاهد لم تذكر بالتفصيل والتوضيح والتفسير إلا في السور المكية فالمشاهد في المدينة تختلف اختلافا كبيرا عن المشاهد في مكة فيما يخص هذا الأمر ،وهذا منطقي، فمعقل الأصنام في مكة والتمسك بتلك العبادة أو العادة أشد ما تكون هنا ،والجبهة القوية المتماسكة التي تقف وتعارض الدين الجديدة بكل عناد وإلحاح وتصميم وتحاول بكل الطرق والسبل القضاء على الدعوة وصاحبها ، وإن لم تستطع فعلى الأقل محاصرتها والتضيق عليها وخنقها لتلفظ أنفاسها ،وتحاول الدعوة الجديدة إيجاد قاعدة تاريخية وأساس شرعي وسند خلقي ، الإسلام هنا يحاول بكافة السبل التشبث بالأرض والوقوف بثبات وثقة أمام الأعاصير والعواصف التي تريد العصف به " في مكة كان الإسلام دينا خارجا عن القانون لا إعتراف به "[1] الجبهة الصلبة العنيدة الواقفة في طريق الإسلام هي مكة ، مهيمنة على مركز الثقل التاريخي والعقدي للعرب جميعهم المتمثل في البيت الحرام ،

1التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم- الشيخ محمد الغزالي – صفحة (144)

الذي ترتفع منه دعوات الشرك والضلال ، والذي يجمع العرب كلهم ليكونوا يدا واحدة ضد العقيدة الجديدة ،تلك العقيدة التي تحاول إزاحة الحجب والأغشية عن وجه البيت الحرام وتعيد إليه ملامحه الوضيئة الطاهرة المقدسة ،لذلك كانت المشاهد في السور المكية متعددة وكثيرة مهاجمة تلك العادة المذمومة ،وتوجيه الضربات والطعنات لتلك الجبهة لإضعافها تمهيدا لتقويضها والإجهاز عليها بمرور الوقت ، وتأتي المشاهد مستمرة ومتتالية ومتوالية ، من جميع وكافة الزاويا ، تارة بين براهيم وأبيه ، وتارة بينه وبين قومه ، وتارة بينه وبين قومه ومعهم أبوه ، وتارة بينه وبين الملك ، مرة يجادلهم في الجدوي من عبادة الأصنام التي لا تسمع ولا ترى ولا تضر ولا تنفع ، ومرة يحطم الأصنام ، ويطلب منهم أن يسألوا كبير الأصنام أن يخبرهم عن الفاعل ، ومقصد القرآن من تلك المشاهد في غاية الوضوح والبيان ، فما كان إضعاف عادة عبادة الأصنام في عقول وقلوب المكيين ، ثم نزعها واقتلاعها ليس بالأمر اليسير أو الهين ،وإعتزاز المكيين لا سيما قريش بتلك المكانة والمنزلة التي تحتلها بين العرب وغير العرب ،

فمكة أم القرى ومكة بها البيت الحرام ، والبيت الحرام معقل الأصنام ، والذي بني البيت هو إبراهيم، وقد وصلت إليهم عبادة الأصنام عن أبائهم وأجداهم ، فالأمر ثابت وراسخ ، وأن تناقش أمر العقيدة مجرد مناقشة هذا أمر في غاية الخطورة ، لذلك فالشأن في حاجة إلى معالجة متريثة ومتأنية ومستمرة ، فهي ظلمات متراكبة فوق بعضها ، والأمر يتطلب أن تزيح طبقة وراء طبقة ، وأن ترجع إلى الأصل والمبدأ والأساس ،وهو إبراهيم ، وإن بناء البيت مقرون ومتلازم بدعوة التوحيد ، فلم يكن إبرهيم من المشركين ولا من عبدة الأصنام ، وإنما كان موحدا لله قانتا له .

وهذا استدعى أن تكون السور المكية ضعف السور المدنية وأكثر ، وهذا هو السبب في أن المشاهد في السور المكية حافلة وحاشدة ومحتشدة بمواقف إبراهيم الرافضة والثائرة والمجادلة من قومه ،ووصل به الأمر أن يعارض أقرب المقربين له .

والمشاهد المكية في جملتها تهدم وتزيل ، ثم تؤسس وتقيم.

فهي تهدم وتزيل كل ما تراكم في أذهان العرب والمكيين - بصفة خاصة – من خرافات وأساطير وأباطيل الخاصة بالبيت الحرام ، وما شاب العقيدة الحقة من ضلالات وانحرافات ، وتقييم صرحا قويا ومتماسكا وشامخا ومتكاملا من العقيدة التي تقف بكل ثبات أمام هجوم خصومها وأعدائها "

ومعروف أن التوحيد بدأ غرسه في مكة ، وقد حوى القرآن المكي من الآيات ما أخمد أنفاس الشرك وجعله شبهات داحضة ، فإذا تكرر الكلام في العصر المدني فللمزيد من الإيضاح والتفصيل والتدليل "1-

الإطار العام للمشهد:

قد تجد مشاهد بعينها في أكثر من سورة ، وإن دققت في عناصر المشهد فستلحظ عدم التكرار ، فهناك اختلاف في عناصر كل مشهد وفي ترتيبها وفي مكانها ، وما يجاور كل عنصر وعلاقته بالآخر والتي تختلف وتتغير وتتبدل باختلاف المشهد ،" والقصص تتكرر في القرآنوفي كل واحدة منها ملحظ لا يرى في الأخرى ، وإنما تعرف حقيقة القوم كاملة من الجمع بين شتى القصص في صعيد واحد ، وهذا الصنيع يحتاج إلى علم خاص به "2 لذلك فلا تكرار مطلقا ، كل ما هنالك أن الإطار العام قد يكون واحدا بين المشهدين ، وتختلف المشاهد تبعا لأمور منها :

1نحو تفسير موضوعي لسور القرىن الكريم – الشيخ محمد الغزالي –(23)
2المرجع السابق (170)

1-السياق الموضوعي .

2- السياق المكاني .

3- السياق الزمني .

4- المقصد .

فإذا أخذنا مشهدين يقعان في إطار واحد ، وهو دعوة إبراهيم ، فهناك مشهد في سورة البقرة الآيات : (124- 133) ، ومشهد يقع في نفس الإطار في سورة إبراهيم الآيات : (35- 41) .ففي المشهد الأول في سورة البقرة ،المكان : نزلت السورة في المدينة ، الزمان : بعد هجرة الرسول – خ – من مكة إلى المدينة ، جاء المشهد بعد عدة مشاهد تاريخية تعرض المراحل التي مر بها بنو إسرائيل ، وموقفهم من الأنبياء بصفة عامة ، ثم موقفهم من النبي – خ – ويتطابق موقفهم مع موقف النصارى ، فالموقفان يطلبان من النبي أن يتبع ملتهم ، وكل منهما يتهم الآخر أنه على باطل ،وهنا تثار أسئلة :

أيهما على حق ،اليهود ام النصارى ؟

إلى أي الفريقين ينحاز الرسول ؟

وإذا كان اليهود والنصارى على باطل ..فما الدليل على ذلك ؟

وما ملامح الدين الجديد بين ملامح الدينين ؟

هنا المدينة :

خلق الإسلام خلقا آخر حينما انتقل من مكة إلى المدينة ، كل شيء تغير تغيرا كبيرا في حياة المسلمين ، وفي مسار الدعوة الإسلامية ،وما يهمنا هنا هل تغير - تبعا لذلك - أسلوب القرآن وتناوله لموضوعات وقضايا ومآزق ومشكلات الحياة في المدينة ؟

نعم ، " استأنف المسلمون بعد الهجرة تلقي القرآن الكريم ، كما كانوا يتلقونه خلال ثلاث عشرة سنة مضت قبلها ، وإن كان الجو قد اختلف ، فقد كان الحديث عن اليهود تاريخا تؤخذ منه العبرة أما الآن فالحديث عن اشتباك قائم وعراك يمس الحاضر والمستقبل " 1

1نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم – الشيخ محمد الغزالي (22)

كان الإسلام والمسلمون بعيدين عن اليهود ، واليهود بعيدون عنهم ، وإن كانوا ينظرون بحذر وتوجس للدين الجديد ، وحديث القرآن المكي عن اليهود حديث تاريخي لم يتطرق إلى ما أثاروه من قضايا ومشكلات أمام الدعوة الجديدة ، إذن هناك عنصر جد في المدينة ، وهم اليهود " وأهل الكتاب صنفان : اليهود والنصارى ، ولم يقع حوار ساخن بين المسلمين والنصارى داخل المدينة ، وإنما حمى الخصام بين المسلمين واليهود الذين كونوا مستوطنات لهم في المدينة نفسها ، وشمالي الحجاز ، والذين تصدوا للإسلام يكذبون الله ورسوله ويهاجمون وحيه ، يؤلبون عليه عبدة الأصنام في شتى الأرجاء .

وقد أغراهم بالهجوم أنهم جمعوا مالا وعتادا ، وقامت لهم ثروات وحصون ، وذاك سر تكرار التنديد بمصادرقوتهم خلال هذه السورة الكريمة (إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك وقود النار) " 1

1المرجع السابق (28)

واختلفت التحديات التي تواجه الدعوة الجديدة في المدينة عما كانت تواجهه في مكة ، وهذا استدعى طرقا وأساليب جديدة ، وكما قلنا كان أهم تحديا فرض على الدعوة الجديدة هم اليهود ، وكان لابد للرسول أن يقبل ما عرضه اليهود من تحديات أو يجيب على تلك الأسئلة التي كان القصد منها تشويه صورة الدعوة أو نثر الرماد في عيون الناس حتى لا يقبلوا على الدعوة ، أو على أقل تقدير يرتابون في الدعوة .

السياق الموضوعي يستدعي مشهدا يجيب على كل تلك الأسئلة ويضع الخيار الحق أمام الرسول ، وفي نفس الوقت يضع ويجلي ملامح الدين الجديد ، وينفتح المشهد على إبراهيم ، البداية الحقة ، فحين تلتبس الأمور ، وتشتبك الخيوط ، يجب أن نعود إلى الوراء ، إلى البداية التي يتفق عليها الجميع ، أو لا يستطيع أحد أن ينكرها أو يجحدها ، الجميع بلا استثناء يتفقون على إبراهيم ، ويبارك ويقر ويؤكد القرآن على هذا ، فقد جعله الله إماما ، وتلك الإمامة لا يستمدها إبراهيم من رضا أو قبول اليهود أو النصارى ، ولكنها من الله ، وإبراهيم يستحقها عن جدارة ؛ لأنه نجح في الابتلاء الإلهي ، وتتجه عناصر المشهد مباشرة إلى الأساس الإبراهيمي ،البيت الحرام ،

الذي بناه إبراهيم بأمر من الله ، وأمره أن يطهره وإسماعيل من كل رجس أو دنس أو شرك، ويتصدر إبراهيم المشهد موضحا وكاشفا عن المهمة العظيمة والدور الجليل المناط به ، فإذا كان الأمر أمر عبادة ،

فقد جاءت دعوة إبراهيم متسقة مع لوازم ومهيئات العبادة بأن يجعل الله هذا المكان بلدا آمنا ، فهنا ستقام العبادة الحقة ، ومن هنا ستنطلق أنوار التوحيد ، لذا فيجب أن يتميز هذا المكان ، ويتوافر فيه ما لا يتوافر في أي مكان في العالم، وأن يكون مجعولا من الله مشتملا على المقوم الروحي والمقوم المادي وأن يكون ساكنو البيت أو أهله أو قاصدوه آمنين من جميع الوجوه

ويعود إبراهيم متصدرا المشهد مرة أخرى وتتوالى العناصر هناأو الوقائع لا يحكمها التسلسل الزمني أو الترتيب المنطقي ، وإنما تحكمه تسلسل تصاعدي للأهمية ، لتصل إلى ذروة وقمة المشهد أو قل نهاية وتتمة المشهد ، ليجسد أعظم إنجاز عقدي في تاريخ البشرية كلها يتم على يد إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – وعلى نفس مستوى القمة والذروة تأتي دعوة إبراهيم باختياره أن يكون وإسماعيل مسلمين وذريته ، وأن يريهما المناسك ويتوب عليهما ،ويأبى إبراهيم ، أو تأبى شخصية إبراهيم إلا ان تظل على مستوى وقمة الحدث في الحاضر ،

ولا يكتفي بذلك بل يندفع وهو على نفس القمة والذروة إلى المستقبل داعيا إلى إتمام وإكمال إنجاز عقدي - يحققه ويصدقه حاضر وواقع الدعوة الجديدة - بأن يبعث الله في تلك الأمة والتي ستمر بمرحلة ضلال وشرك وكفر ، بان يبعث الله رسولا ينقذها من تلك الوهدة ، وحدد إبراهيم دوره ومهمته ، وهو من أعظم المهمات وأجل الأدوار،وهو تلاوة آيات الله ،ولا تتجلى عظمة وجلال شخصية إبراهيم كما تتجلى هنا ، فآيات الله خالدة وواضحة وجلية وليست محدودة بحد ، لذلك فتلاوة هذا الرسول ستكون مرتبطة بالآيات ، وقد حقق تلك المواصفات القرآن الكريم معجزة الرسول ، فسيظل القرآن - الذي تلاه الرسول - يتلو آيات الله إلى أبد الأبدين ، لا ينفد عطاؤه ولا ينضب معينه ، ولم يكتف إبراهيم بذلك ، فدأبه وديدنه الطموح إلى الكمال والرغبة في التمام ، فكان من الممكن أن تقتصر مهمة الرسول على ذلك ، ولكنه طمح إلى ما وراء ذلك ، فهو يطلب أن يكون الرسول من أولي العزم وأن يعطي أمته عطاء لا مزيد بعده ،فهو خاتمالعطاءات وتتمة الفيوضات من السماء لأهل الأرض ، فطلب أن يعلم الرسول أمته الكتاب ليكونوا أولي عقول ، والحكمة ليكونوا أولي بصائر ، ويزكيهم ليكونوا أولي ارتقاءات ، كل هذا ليكونوا أصحاب رسالة للعالمين .

شخصية بهذا السمو والرقي والجلال ، وملة بهذا الهدي والرشاد من يعرض عنها فهو السفه بعينه . ولعلو شأن تلك الملة وجلال منزلتها وصى بها إبراهيم بنيه ،وظهر في جانب من المشهد أو في خلفيته يعقوب – ؛- دونا عن بقية أبناء إبراهيم ،لتوظيف واستثمار عنصر من عناصر المشهد للرد على إفتراء اليهود على يعقوب أنه يتبع اليهودية ، فبرأه الله من تلك الفرية ، بفتح المشهد على يعقوب قبل موته جامعا أبنائه موصيا إياهم بإتباع ملة أبائه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، تلك الملة التي تقوم على التوحيد والتنزيه مشيرا من طرف خفي إلى انحراف اليهود والنصارى عن ملة إبراهيم وأبنائه ، هذا العنصر من المشهد يتعاطى ويتعامل مع واقع وحاضر الدعوة الجديدة ويرد على إدعاءات باطلة لليهود ،كما أن المشهد بإجماله يضع الأساس الحق والصدق للدين الجديد هادما كل ما يناقضه أو يعارضه بكل وضوح " يعرض فيه ذلك التاريخ المجيد لإبراهيم ؛وأبنائه وأحفاده في العصور الذهبية التي لا يختلف أحد من أهل الكتاب ولا المشركين في تعظيمها ومحبتها ومحبة الانتساب إليها مكررا على لسانهم جميعا

تلك الكلمة العذبة التي تركها إبراهيم باقية في عقبه فتوارثها أبناؤه وأحفادهيوصي كل منهم بنيه ، كلمة (الإسلام لله رب العالمين) وتراه في أثناء عرضه لتاريخ إبراهيم ؛ وإمامته للناس لا ينسى أن يحكي كلماته التي دعا بها ربه أن يجعل من ذريته إماما للناس كما جعله هو .

ثم تراه حين يروي قيام إبراهيم وابنه إسماعيل ببناء البيت المعظم الذي جعله الله حراما وآمنا ومثابة للناس وقبلة لصلاتهم ، لا ينسى أن يحكي تضرعهما إلى الله ، أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة وأن يبعث فيهم رسولا منهم يعلمهم ويزكيهم .

ممهدا بهذا وذاك لتقرير الصلة التاريخية المتينة التي تربط هذا النبي وأمته بذينك النبيين الجليلين ، لا صلة البنوة النسبية فحسب ، بل صلة المبدأ ورابطة الوحدة الدينية أيضا ، فهم من ذريتهما ووجودهم تحقيق لقبول دعوتهما ، وملتهم ملتهما وقبلتهم قبلتهما ومثابتهم في حجم مثابتهما.

ومقررا في الوقت نفسه انقطاع مثل هذه النسبة المشرفة عن اليهود الذين ينتسبون بالبنوة لإبراهيم ويعقوب وهم عن ملتهما منحرفون ولوصيتهما مخالفون ، فماذا يغني النسب عن الأدب ؟ ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه "[1]

أما المشهد في سورة (إبراهيم) وإن كان الإطار واحد للمشهدين إلا أن عناصر المشهد وترتيبها وعلاقة كل عنصر بالآخر ، وما تصدر المشهد وما بقي في الظل كل هذا اختلف باختلاف العناصر المؤثرة .

السياق الموضوعي :فالمشهد جاء في سياق الذين بدولوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار ، وهم كفار ومشركو مكة " أسكنهم الله حرمه وجعلهم قوام بيته وأكرمهم بمحمد – خ – فكفروا نعمة الله

1 النبأ العظيم – د . عبدالله دراز صفحة (185)

وقال الإمام ابن كثير ما ملخصه (يذكر الله - تعالى – في هذا المقام – محتجا على مشركي مكة الذين كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم – بأن مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله - تعالى – وحده – وأن إبراهيم تبرأ ممن عبد غير الله وأنه دعا لمكة بالأمن وقد استجاب الله له فقال – تعالى :

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ العنكبوت: ٦٧

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ آل عمران: ٩٦"1

والسياق المكاني مكة ، والسياق الزماني تلك الفترة التي كانالرسول – خ ما يزال في مكة بين الكفار والمشركين ، والسياق القصدي ، تحذير الكفار والمشركين من عاقبة ضلالهم وبعدهم عن العقيدة الحقة عقيدة التوحيد التي كان عليها إبراهيم – ؛- لذلك ذكر إبراهيم وبرز إلى المقدمة وتصدر المشهد بدعائه أن يجعل الله مكة بلدا آمنا ، ويقيه الله أن يعبد ويجنبه عبادة الأصنام ،

1التفسير الوسيط – د . محمد سيد طنطاوي المجلد السابع (555)

فقد أضلوا عبادا كثيرا ،ويعرض إبراهيم عناصرا المشهدأنه أسكن ذريته وقت أن كان هذا المكان قفرا ، وأن البركة والخير حلت به بسبب وجود البيت الحرام الذي جعل لعبادة الله وتوحيده ، ويدعو إبراهيم لأهل مكة بالرزق من كل الثمرات بعد أن دعى لهم بالأمن .

لم تتكرر عناصر المشهد كما في سورة البقرة ، وإنما كانت عناصر مختلفة ،وتم التركيز على موقف إبراهيم من عبادة الأصنام ، فالمشهد يتناسب مع السياق بجميع جوانبه ونواحيه ، ولم يذكر هنا ما ذكر هناك من رفع قواعد البيت ولا دعوة إبراهيم أن يبعث الله رسولا ، ولا وصية إبراهيم لبنيه ومن بعده وصية يعقوب ،السياق مختلف تماما عما كان في سورة البقرة ، وتبعا لذلك اختلفت عناصر المشهد وما تقدم وما تأخر وما تبدل وما تغير وما تصدر المشهد ظاهرا جليا وما بقي في الظل متواريا خفيا ، حتى مفردات دعوة إبراهيم اختلفت في كلا المشهدين ، " قال الإمام الرازي : وإنما قال هنا (بلدا آمنا) على التنكير ، وقال في سورة إبراهيم (رب اجعل هذا البلد آمنا) على التعريف لوجهين :

الأول : أن الدعوة الأولى وقعت ولم يكن المكان قد جعل بلدا ، كأنه قال :اجعل هذا الوادي بلدا آمنا .والدعوة الثانية وقعت وقد جعل بلدا ، فكأنه قال : اجعل هذا المكان الذي صيرته بلدا ذا أمن وسلامة .

الثاني : أن تكون الدعوتان وقعتا بعد ما صار بلدا ، فقوله : (اجعل هذا بلدا آمنا) تقديره : اجعل هذا البلد بلدا آمنا كقولك : كان اليوم يوما حارا ، وهذا إنما تذكره للمبالغة في وصفه بالحرارة ، لأن التنكير يدل على المبالغة ، فقوله رب اجعل هذا البلد بلدا آمنا معناه :اجعله من البلدان الكاملة في الأمن . وأما قوله : (رب اجعل هذا البلد آمنا فليس فيه إلا طلب الأمن لا طلب المبالغة "1

هنا - في مكة - شرك ومقام مخاطبة عبدة الأصنام ، وعناد وإصرار ومجابهة صريحة وحادة للدعوة في مهدها ، أمام هذا المكان مراحل جهاد وكفاح حتى يتحول إلى عبادة الواحد الأحد ، وتمسك المكيين تمسكا شديدا بما انحدر إليهم من عبادة أبائهم ، ورفض ومقاطعة ومحاربة أي عقيدةأو عبادة تخالف ما درجوا عليه وما ألفوه ،

1التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . محمد سيد طنطاوي – المجلد الأول – صفحة (270)

فجاءت دعوة إبراهيم - ؛- تتناسب وتتوافق وتتسق مع كل عناصر المشهد ، دعوة أن يخرج الله البيت من الحالة التي هو عليها إلى حالة أخرى ، تطهيره من الأصنام وتخليصه من يد المشركين وهيمنتهم عليه ،لذلك كانت الدعوة أن يجنبه الله عبادة الأصنام وبنيه ، ويتم التركيز في المشهد على الأصنام ، فهي من ضمن العناصر الرئيسة في المشهد ، أو من أبرز زوايا المشهد ، فقد أضلوا الكثير من الناس ، ومن يتبع إبراهيم في توحيده لله فهو منه ، ويعود المشهد بنا إلى الوراء ، منذ البداية الأولى لمجئ إبراهيم إلى مكة ، وقت أن كان المكان قفرا خاليا من كل مظاهر الحياة ، يأتي إبراهيم تاركا العالم كله ، يسكن ذريته – زوجته وابنها إسماعيل – وخلو المكان وتصويره بتلك الهيئة أنه لا ينتمي إلى أحد ولا أحد ينتمي إليه ، وكان أول ساكن أومستقر به هو إبراهيم ،وكأن المشهد يسجل ويجسد للمكيين -عبدة الأصنام- الهوية الحقيقة للمكان ونوعية تواجد إبراهيم ، فضاء لا يعمره معمر ، وخلاء لا يشغله شاغل ، لم يشهد المكان أي صورة من صور العبادة إلا التي أقامها وبدأها إبراهيم ، المشهد في إجماله يقوض ويهدم عبادة الأصنام ويمحو كل عصور ومراحل الضلال والإضلال التي مرت على البيت ،

ويرسخ ويوصل الهوية الحقيقية للبيت الحرام ، ويصل الحاضر ، حاضر البيت بماضيه ، أو قل يكشف الحقيقة بكل وضوح وجلاء ، لتنهار كل صور الزيف الضلال والباطل ، لا أحد يدعي أن غير إبراهيم هو المؤسس الحقيقي والباني للبيت ،حتى المشركين وعبدة الأصنام ، فإذا كنتم تعترفون بذلك ولا تنكرونه ، فلم لا تشايعون إبراهيم على عبادته ، وتتركون عبادة الأصنام ؟ ! والدعوة الجديدة التي جاء بها محمد - خ - ما هي إلا دعوة للعودة إلى الأصل الحقيقي لهوية البيت ودوره ورسالته .

ختام الجهد

إحساس يتملكني ويملأ على شعاب النفس وأنا أكتب عن شخصيات الأنبياء :محمد وموسى وعيسى – صلى الله على نبينا وعليهما السلام – الإشفاق على نفسي ، نعم ، فكثيرا ما توقفت عن الكتابة مزمعا الكف عما أنا بسبيله ، فقد أقحمت نفسي فيما لا قبل لي به ، مثل ذلك الإنسان الذي جذبه ضوء في نهاية الطريق ، فأخذ يسعى للوصول إليه ، غير منتبه أو مكترث إلى ما في الطريق من عقبات وعراقيل ، فوقف وسط الطريق يريد أن يرجع من حيث أتى .... ولكن يعز عليه تلك المسافة التي قطعها ، ويعز عليه ألا يصل إلى نهاية الطريق حيث النور بكل ما يشمله من هداية وإرشاد، وخير وجمال ، فيقف لا يستطيع أن يتراجع ، ولا يقدر على التقدم، نادما أنه بدأ الطريق وما كان له أن يبدأه ، متحسرا أنه لا يقدر أن يتقدم ليصل إلى نهاية الطريق ، والمفروض له أن يصل .

ندم وحسرة يثيران في النفس مشاعر شتى من الحزن والإحباط والأسى والحيرة ، ويتوقف العقل عن الفكر ، ويتعطل القلم عن الكتابة ،فكل ما كتبته وتكتبه وستكتبه ...كل هذا هراء ، فمن الممكن أن تكتب عن كل شيء وأي شيء إلا عن هؤلاء الصنف الراقي كل الرقي والسامي كل السمو من البشر،

هل من الممكن أن تصور قطعة من الفحم الأسود الجامد المتحجر الملقاة في زاوية من زوايا الإهمال والظلام ، هل من الممكن لهذا الشيء أن يتصور الشمس في إشراقها وشموخها وبهائها ؟!

هل من الممكن لحبة رمل في صحراء شاسعة ، هل من الممكن لمثل تلك الحبة أن تصور الكون كله باتساعه وعمقه وغموضه وجماله وجلاله ؟!

إذن محاولاتك أن تكتب عن هؤلاء العظماء والإجلاء نوع من الحمق والتهور ؛ لأن كل المقدمات والنهايات تؤكد أنك ستبوء بالخسران المبين ، ولن تخرج من ذلك بشيء يبل الظمأ ويشفي الغليل .

حتى وإن وفقت وكتبت عن هؤلاء الأنبياء ، فكيف بك والكتابة عن أب هؤلاء ، أبوهم في النبوة ، الشجرة الأم التي يتفرع عنها كل هؤلاء ، فكل هؤلاء يبدأون من إبراهيم وينتهون إليه ، وإبراهيم يجمع كل هؤلاء ويجسدهم نبوة وكمالا ورقيا ؟

ومن قال أننا نكتب عن الأنبياء ، نحن لا نكتب إلاعلى ما أستطعنا أن ندركه ونصل إليه ونعيه من النبوة ، فإذا كانت النبوة في حد ذاتها تجاوزت وتعدت وتفوقت وسمت وارتقت على البشرية ،

فكيف لبشر أن يكتب عن شيء تجاوزه وتعدى كل قدراته وإمكاناته وطاقاته ، فأنت لا ترى الشمس التي خلقها الله ،وإنما ترى من الشمس ما تسمح به قدراتك وتطيق أن تراه ، أما الشمس كما خلقها الله فشيء آخر ،كذلك الكون ، أنت ترى كونا بشريا ، وهذا الكون الذي تراه أو تدركه أو تعيه جزء أومساحة ضئيلة جدا من الكون الذي خلقه الله ، وهناك أشياء وأمور وعوالم كثيرة لا ندركها لا بحواسنا ولا بعقلنا .

إذن ما سبق من صفحات ليست عن إبراهيم النبي كما خلقه الله ، ولكن عن تصور بشري محدود وقاصر عن شخص عظيم وجليل ، العظمة والجلال ليست من وصفنا نحن ولكن من عند الله – عز وجل .

على هذا فإبراهيم – ؛– فوق ماكتبناه .

وإبراهيم – ؛– أرقى وأسمى مما وصفناه .

وإبراهيم ؛تجاوزوتعدى ما صورناه .

إذن لماذا نكتب وهذا حالنا ؟

لا حيلة لنا ، فنحن نكتب لأن الكتابة نوع من التعلق القدري بهؤلاء .

نحن نكتب لأن الكتابة نوع من الإندفاع اللا إردي نحو هؤلاء .مثل تلك النبتة الضعيفة الواهية التي تندفع مخترقة ظلام الأرض وتشق الصعيد إلى النور والفضاء الواسع .

نحن نكتب لأن الكتابة نوع من الاستنارة ،مثل الفراش المندفع نحو النور وهولا يعرف ماهية النور ، وقد يكون ما يراه نارا فيسقط محترقا فيه، فهو لا يعرف ما الفرق بين الاثنين ،فهو اندافع فطري نحو أي شيء يمت للنور بصلة .

وأرجو أن أكون قد وفقت في هذا الكتاب في الاقتراب - ولو من على البعد - ليس من إبراهيم - ؛- ولكن من صورة الخليل كما تصورتها ، في إطار من الحب والإجلال والتقدير لمن شق طريقا للإنسانية إلى الله .

سلام على إبراهيم في العالمين .

سيرة ذاتية

الاسم : محمود محمد محمود القليني .

المؤهل : ليسانس في الأداب والتربية جامعة الإسكندرية لغة عربية عام 1979.

العنوان : جمهورية مصر العربية - دمنهور - محافظة البحيرة .

الإيميل : mahmoudelkelleny@yahoo.com

الهاتف :0201061414124

الأعمال المنشورة :

أولا : في المسرح :

مسرحية : (إخناتون والكهنة) جهة النشر : الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة عام 1994

مسرحية : (مصرع الخُرساني) جهة النشر : الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة عام2002.

مسرحية :(محنة الإمام أحمد بن حنبل) جهة النشر : الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة عام 1997

مسرحية : (بلد راكبها عفريت) جهة النشر : الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة عام 2010.

كتاب : (الأدب في مسرح الطفل) جهة النشر : العلم والإيمان للنشر والتوزيع بدسوق عام 2015

ثانيا : في الروايات والقصص :

رواية :(الإسكندرية عناقيد العشق والغضب) جهة النشر : مكتبة بستان المعرفة عام 2011.

رواية :(الجنوب الهادئ) جهة النشر :الهيئة العامة لقصور الثقافة عام: 2014

رواية : (الدجال والشيطان) جهة النشر : مكتب معروف للنشر والتوزيع عام 1985

(إنهم يذهبون) مجموعة قصص قصيرة ، جهة النشر : دار الشعب بالقاهرة عام 1983.

ثالثا : في الكتب :

(الفكر الإسلامي ومستجدات العصر) جهة النشر :المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة عام 2005 .

(أمير الصحافة العربية) جهة النشر : مكتبة بستان المعرفة عام 2009

(العمرية ..في رحاب عمر بن الخطاب) جهة النشر: مكتبة دار العلم والإيمان عام 2007

(عش حياتك سعيدا ولا تحزن) جهة النشر:مكتبة بستان المعرفة عام 2004

(الثورة في وجدان المصريين) جهة النشر : مكتبة بستان المعرفة عام 2012.

(الباحثون عن الله) جهة النشر مكتبة دار العلم والإيمان عام 2013.

(شخصية موسى النبي) جهة النشر : مكتبة بستان المعرفة عام 2011.

(شخصية المسيح) جهة النشر : مكتبة بستان المعرفة عام 2014.

(شخصية النبي محمد) جهة النشر: مكتبة بستان المعرفة عام 2014

(قيم ومعايير في أدب يوسف إدريس) جهة النشر : مكتبة دار العلم والإيمان عام 2015.

(الذاتية والقيم الوجودية في أدب إبراهيم عبد القادر المازني) جهة النشر : مكتبة دار العلم والإيمان عام 2015.

(النساء فقدن عروشهن) جهة النشر :مكتبة العلم والإيمان بالمنصورة.

الجوائز الحاصل عليها :

جائزة التأليف المسرحي من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية (محنة الإمام أحمد)

جائزة (ملتقى جائزة أبها) بالمملكة العربية السعودية عن مسرحية (محنة الإمام أحمد) عام 1417هجرية .

جائزة التأليف المسرحي من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية (إخناتون والكهنة) .

جائزة التأليف المسرحي من مجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية (مصرع الخرساني) .

جائزة الدراسات النقدية عن دراسة بعنوان (قيم ومعايير في أدب يوسف إدريس) من المجلس الأعلى للثقافة .

جائزة الدراسات النقدية عن دراسة بعنوان (الذاتية والقيم الوجودية في أدب المازني)

جائزة المقالة النقدية عن دراسة في قصة (الطريق) لنجيب محفوظ ، من المجلس الأعلى للثقافة .

جائزة الهيئة العربية للمسرح - الشارقة -عن نص بعنوان (غائبلا يعود) 2017.